توفيق يوسف عوّاد

طواحين بيروت



توفيق يوسف عوّاد

طواحين بيروت

الرواية

الناشر
مكتبة لبنان
بيروت

اختارت منظّمة الأونسكو العالمية هــذه الرواية في سلسلة «آثار الكتّاب الأكثر تمثيلاً لعصرهم» وشرعت بترجمتها الى اللغات الأجنبية ، وقــد صدرت الحلقة الأولى ـ الترجمة الإنكليزية ـ عن دار هاينمان في لندن سنة ١٩٧٦ بعنوان «Death in Beirut».

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح
بيروت

الطبعة الخامسة
١٩٩١
رقم الكتاب 01 S 141202

بعض ما قيل

قال أنسي الحاج في « النهار » :

هل تذكرون «الرغيف» ؟ لا يزال توفيق يوسف عوّاد هو نفسه بعد ثلث قرن . بل هو اليوم أهمّ . لأنه ، بعد ثلث قرن ، عاد يكتب لجيل اليوم وعن جيل اليوم رواية اليوم . الرواية التي لم يكتبها لهذا الجيل أحد سواه . عجيب توفيق يوسف عوّاد ، حسبناه دخل التاريخ ، فإذا هو لا يزال يصنعه .

وعلى أثر ترجمة « طواحين بيروت » الى اللغة الانكليزية كتب « باتريك سيل » في مجلة « ميدل إيست إنترناشيونال » يقول :

قبل أي واحد من الصحفيين والسياسيين والمحللين ، قبل أي واحد من ممتهني قراءة المستقبل ، أدرك توفيق يوسف عوّاد ، بحدسه الفني والوطني ، أن شيئاً ما سينهار ، وأن المجتمع اللبناني – مجتمعه – يتداعى للسقوط . وهو في رائعته هذه – التي لها مكانها الرفيع في « بانتيون » الآداب – يتنبّأ عن الكارثة بصوت صارخ ، أقل ما يقال فيه أنه يحملنا على الخجل عن مواطنيه ، لأنهم سدّوا آذانهم عنه ولم يسمعوا إليه في حينه .

« طواحين بيروت » – إنها ملحمة الجيل في لبنان والبلدان العربية تجاه قضاياه المصيرية في العقيدة والسياسة والجنس .

الحلقة الأولى

« لماذا يموت الصباح وتنتحر الشموع ؟... »

عبدالله القصيمي

١

مع الفجر قامت آمنه إلى سلّتها .

وها هي للمرّة العاشرة تقلّب ما حشتها به . وتميمه واقفة تنتظر : متى تنتهي تسوية هذه السلّة التي استغرقت أُسبوعاً من التحضير ؟

وعيل صبر الفتاة فضربت بيدها إلى الخزانة وناولت أُمها طرحتها تستعجلها في الخروج . ولكن المرأة ألقت الطرحة وهرولت إلى دكّة في المطبخ فأدخلت يدها في خابية ، وزادت منها ما تعرف جيداً أن ابنها يحبّه منذ الصغر ، فكيف غاب عن بالها ؟

— ما نسينا شيئاً بعد ؟

— بلى ، نسيتِ أن الشمس طلعت ونحن في المهديّه . متى تريدين أن نصل لبيروت ؟

— سنصل لبيروتك . بيروت تهمّك ، لا يهمّك أخوك !

ونترت السلّة فوضعتها أمام باب البيت وأقفلته ، ثم أعادت المفتاح بعنف إلى عبّها ، وهمّت لا تدري بأيش ...

كان قد مضى على سفرتها الأخيرة إلى بيروت شهران . وحدها كانت — كما أوصاها جابر ، كما يوصيها كل مرّة — ووحدها كانت تريد أن تكون اليوم . ولكن ماذا تصنع بتميمه ؟ ترفض البقاء في البيت .

— لو تنتظريني عند خالتك في صيدا .

شالت تميمه برأسها سلباً . فبربرت آمنه وهي ترفع السلّة إلى كتفها :
– أعوذ بالله من هذا الجيل !
وبدلاً من أن تمشي في الدرب اتجهت إلى ما وراء البيت ، إلى حيث تعرف تميمه ، فصاحت تلحق بها :
– متى نخلص من دجاجاتك ؟ طمّني بالك ! أنا لن أقضي حياتي في هذا القنّ مثلك إكراماً لك ولابنك .
– قلت لك ألف مرّة انزعي بيروت من رأسك . صيدا وبس !
لم تجب تميمه .
فاستطردت الأم ملاطفة :
– بيروت لها ناسها ، يا بنتي .
تقول ذلك وهي موقنة أن كلامها يزلق عن تميمه كما يزلق المطر عن البلاط . واستطردت :
– إيّاك أن تفتحي هذه السيرة لجابر ! اكفينا شرّه وشرّك .
كانت تميمه قد مشت لوجهها تاركة لأمها أن تودّع دجاجاتها وتتبعها متى تريد... هذا القنّ تفوح منه المسكنة . يعشّش فيه الذلّ . والبيت العتيق الأدكن من أساسه قبر للأيام ، لم تزده هـذه الغرفة الرطبة من الباطون وهذه السقيفة ذات الأعمدة الكالحة إلا بشاعة الترقيع . أحسّت تميمه مرّة أُخرى بكره ذلك كلّه وهي تدير ظهرها وتبتعد .
ووضعت آمنه إسكربينتها تحت إبطها تحثّ الخطى وراء ابنتها وتطلب منها أن لا تركض هكذا ، فهي لا تقدر أن تركض مثلها ، فتجتهد تميمه في التمهّل وفي لجم أفكارها .
هذا الدرب أكل طفولتها بين المهديّه وصور – وهو يأكل صباها اليوم بينهما وبين صيدا – تماماً كما يأكل قدمي أُمها الحافيتين .
لن يأكل من عمرها بعد اليوم إلا بمقدار ما يفصلها عن البكالوريا . ثلاثة أشهر . وبعدها بيروت . من المدرسة في صيدا إلى الجامعة في

بيروت ... وبعد الجامعة ؟ لا تعرف ... كل ما تعرفه ويجب أن يعرفه الآخرون أن حياتها لها .

حياتها ليست ملكهم .

وستعيش حياتها كما تريد .

بانتظار ذلك عليها أن تقضي ما تبقّى عليها بين المهديّه وصيدا . من المهديّه إلى صيدا ، مروراً بصور ، ومن صيدا إلى المهديّه — « خطى كُتبت علينا » — وتردّد هذا البيت الذي تحفظه من جملة ما تحفظ من أشعار ، وتترنّح به على الدرب الذي يلفّ الرابية نزولاً ، ولا تلتفت إلى الوراء .

لم يكن في المهديّه من السيارات إلا واحدة منذ كانت المهديّه ، « ناش » ، ماتت ماركتها قبل أن تولد تميمه ، وزال أثر الناش من الأرض وناش المهديّه تقرقع بأوصالها المفككة غادية رائحة ، لا هي تكسي فتُعرف ولا كميون فتُوصف . جاءت من صور عجوزاً إلى المهديّه ، شمطاء عرجاء ، مع هذا الدرب المحفّر المغبّر الذي وصل المهديّه بالعالم . ومنذ أسبوع انطرحت في الساحة تطلب رحمة ربّها ، وأبو أحمد يأبى إلا أن يعالجها من الفجر إلى النجر ليُعيدها إلى أشغالها الشاقّة ، وأحمد وراءه يصلّي على روحها حالماً بـ « المرسيدس » .

وما شأن السيارات — وجديدة ! — في ضيعة ذات ثلاثين بيتاً أو أقل نصفها خراب والنصف الآخر سينعي من بناه في القريب ؟ تولّت أفريقيا القسم الأكبر ، وتتكفّل الكويت بالباقي بما تبذله من سهولة العمل وسرعة الإثراء .

وتستعرض تميمه في خيالها المراحل التي شهدتها من حياة المهديّه ، فتطلع لها وجوه ووجوه ، فلا تجد منها وجهاً تأنس إليه .

حتى أطلّ البحر .

كانت الشمس ترقّص أشعتها على البساط الأزرق الشفّاف ففتحت الفتاة صدرها لفرحة الصباح ، ونسيت أشعارها العربية فهي تترنّم الآن بأُغنية فرنجية تعرف أن أمها لا تطيقها فترفع صوتها بها وتقفز على الحصى .

وآمنه غارقة في بحرها . كيف يكون استقبال جابر لأخته ؟ أكثر ما تخشاه أن يرفضهما معاً : « إرجعي ببنتك وسلّتك ! »

وأفريقيا . ترى ، متى تنتهي أفريقيا ؟

متى يعود تامر رأس البيت ؟

سبع عشرة سنة ... أقسم لن يغيب إلا ثلاث سنين . أربعاً على الأكثر .

صحيح ، فكّ رهن البيت ، « وكفانا مؤونة الناس » ، وبانتظام يبعث بنفقات العائلة وأقساط المدرسة لتميمه وأقساط الجامعة لجابر ومطالب جابر التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ولكن الحاجة إلى وجوده أهمّ اليوم من الحاجة إلى المال .

في السابق كان يوجّه الحوالات باسمها . فلمّا رشد جابر أصبحت تصل باسم جابر . وجابر يعزق . يتحكّم بالبيت . يقتّر على أمه – « لا بأس . » يسلبها ما توفّره من قرش أبيض لليوم الأسود – « لا بأس . لا بأس . » ولكنه يمنّ على أُخته . يسوّف . ينهر . يعارضها في ما تطلب لملبسها وزينتها، وحتى في ما تشتري من كتب ومجلات . كلّما أتى إلى المهديّه نبش خزانتها وبعثر : « ما هذه الكتب الروائية الهوائية وما هذه المجلات المولعة بها ؟ ! » حسناً فعل في تمزيق تلك المجلات . نساء بلا حياء ! « أعوذ بالله من هذا الجيل ! » وقطع مصروف الجيب عنها طول شهر .

ولكن ، إلى هذا الحدّ وكفى . قسط المدرسة استحقّ منذ أُسبوع ، والمدرسة تطالب تميمه ، وجابر إلى اليوم لا علم ولا خبر . «كل شيء ولا يكون قسط المدرسة قد طار . »

المال . المال . لعن الله الطمع ضرّ ما نفع . لماذا لا يكتفي تامر بما

عنده؟ محلاّت من خير الله ومزارع – كل الناس تعرف، كل من عاد من أفريقيا يقول – بثمنها يعيش في لبنان سلطاناً. ويسكن بيروت. ويكون ابنه وابنته تحت جناحيه. كل سنة يَعِد: في القابلة إن شاء الله! ثم يطلع بنغمته: الشغل. الشغل! «العمر ينتهي ولا ينتهي الشغل».

ما بقي من هذا العمر؟

وانخفضت كتف آمنه بالسلّة.

هذا الذي بقي، لها على الأقل، لا يليق ببيروت. لذلك ستبقى هي في المهديّه. لو عاد مع أفواج الذين عادوا. لو عاد في الوقت الذي كانت تحتفظ فيه بشيء من شبابها.

في البداية كان يكتب مرّتين وثلاث مرّات في الشهر. ومع كل رسالة أشعار لها. أيّ خجل كان خجلها وأي هناء حينما كان الحاج فضلو يقرأ لها، وهي ترفع طرف الحبرة، تختلس النظر – أعمى – إلى هذه الألفاظ التي يرتّلها ترتيلاً وتبرق بها عيناه.

ثم انقطعت الأشعار.

الخجل الذي كان يعتريها من سماعها انقلب إلى خجل أشدّ من انقطاعها. بأي انكسار انقلبت بعد الرسالة التي ليس فيها من أولها إلى آخرها قافية واحدة، ولو أنها تحمل حسب العادة نبأ المبلغ المرقوم.

في الزيارة التي تلت – تذكر آمنه ذلك ولا تنساه – هزّ الحاج فضلو رأسه وحكّ لحيته متسائلاً بسخرية عن السبب الذي من أجله «جفّت القريحة التامرية»...

سكت من بعدها ونسي.

أيكون صحيحاً أن تامر تزوّج عليها عبدة سوداء؟

أمّ حسين تقول: «كلّهم تزوجوا عبدات». تروح وتجيء في المهديّه: «تعرفون الأخبار؟» وتتوقف بسحنتها النحس وعينها البلقاء وتسأل:

«كيف الأخبار عن الغيّاب يا أُم جابر ؟» ولسانها على الغيّاب ، وعلى تميمه ، وعلى جابر ، وعلى خلق الله . لسان الحية !

تعرف أُم جابر كيد أُم حسين . ومع ذلك فقلبها يحتقن لمجرّد الفكرة ، ينفجر على تامر ، على أفريقيا وعبداتها ، وعلى كل الذين يتزوجون الثانية و ... الرابعة .

جميل الموالي رجع من غينيا . وهو في الأوتيل في بيروت . لو تذهب إليه وتستوضحه الحقيقة عن تامر . ما اسم هذا الأوتيل ؟

– تميمه !

نادت الأم ابنتها دون وعي ، فأدارت الفتاة وجهها جواباً . ولكن آمنه نكّست رأسها ولم تقل شيئاً . كيف تدخل على الرجل ، وبأي عين تكلّمه في هذه الأمور ؟

– ما تريدين من تميمه ؟ تميمه ستكتب إلى أبيها من غد : حصة تميمه باسم تميمه . وأنتِ حصتك باسمك إذا أحببت . وصاية ابنك ستجرّ علينا الخراب والويل .

– لا تكتبي شيئاً . إقرأي لي ما تكتبين قبل أن تبعثيه .

ووضعت آمنه السلّة لتنتعل .

كانتا قد وصلتا إلى الطريق العام ، فوقفتا تنتظران أي باص إلى بيروت من باصات صور . وحالفهما الحظ فلم تنتظرا إلا قليلاً . جلست آمنه على كرسيّ إضافي محشور بجانب الباب والسلّة في حضنها ، ودعا المعاون تميمه إلى المقعد الخلفي الممتد عرض السيارة ، فنظرت فإذا هو مزدحم بستة أشخاص وهو أصلاً لخمسة . وشالها أحدهم ببصره ثم نهض مقدّماً إليها محلّه الضيّق بابتسامة واسعة ، وكرّر الدعوة . ولكن تميمه كانت قد أدارت وجهها صوب البحر . لم يُعجبها المحلّ ولا الابتسامة . ولو لم ينزل راكب في المحطة التالية لسافرت واقفة إلى بيروت .

٢

كانت تلك المرّة الثالثة التي تدخل فيها تميمه نصّور شارع الحمرا . في الأولى رافقت أُمها إلى بيت مدام خوري حيث يقيم جابر ، وكان الشجار مع جابر .

وفي الثانية تركت أُمها عند فم الشارع زاعمة أنها ستذهب لزيارة صديقتها ماري أبو خليـل في المستشفى الأمريكي . قالت : « ونلتقي في كاراج صور الساعة كذا وكذا » . ودارت دورة وعادت فجلست في مقهى على الرصيف .

كانت الحمرا تبهرها بما يعج فيها من حياة وألوان .

في الطريق الضيّق المؤدي إلى بيت مدام خوري تجدد النقاش بين الأم وابنتها . ولكن تميمه لازمت عنادها تريد مجابهة جابر .

فانثنت آمنه عن الموضوع . قالت ترثي لصاحبة البيت :

ـ النقرس مرض صعب . مسكينة ! ماذا تنفع هذه الحبوب التي تبتلعها الواحدة بظهر أُختها ؟

وتعود إلى جابر :

ـ كنت أفضّل أن يكون أخوك في ربعه . الحاج فضلو مستعدّ ، قال لي ، أن يدبّر سكنه مع رفيق له من أولادنا في غرفة واحدة .

ثم تُردف طالبة لنفسها التعويض :

ـ بشرط أن يبتعد عن حسين القمّوعي . مصيبتنا كلّها من حسين .

وطلعت آمنه درج البيت تحمل سلّتها بيد ، وتستند باليد الأخرى على درابزون الباطون المقشّر . وسبقتها تميمه إلى الجرس فضغطت بعنف ، وثارت على أمها من جديد من أجل هذه السلّة .

ـ تعتقدين أن ابنك سيأكل منها ؟ في أي زمان أنت عائشة ؟ كل

تعبك رائح في الزبالة . إبنك لا يأكل إلا في السان جورج وفي فينيسيا وفي الكازينو ، وأنت احملي إسكربينتك تحت إبطك وارجعي حافية كما جئت!
لا مَن يفتح ، وفي الداخل حسّ خطى . فدقّت آمنه بدورها تريد الخلاص من تعنيف تميمه . « هذه البنت تفضح أُمها . أعوذ بالله من هذا الجيل ! »

وأخيراً انفرج الباب وأطلّت منه الخادمة وهتفت بملء فيها :
— أهلاً وسهلاً بالست أُم جابر وبالمدموازيل تميمه !
تلميذة نابهة تبدأ خطاباً في حفلة مدرسية . هكذا فكّرت تميمه وهي تنظر إلى زنّوب وإلى عينيها البارقتين بالذكاء . وتتذكّر فنجان القهوة الذي حملته إليها زنّوب في الزيارة الأولى وكيف كبّه جابر في غضبه على السجادة ، فاعتذرت تميمه وركضت زنّوب تمسح السجادة وعيناها معلّقتان بتميمه ، تبتسم — تواسيها — وتمسح لها طرف تنّورتها ، مع أن القهوة وقعت بعيدة عن التنّورة .
كانت الأم قد بادرت بالسؤال عن جابر ، فأجابت زنّوب وأنظارها لا تفارق تميمه أنها لا تعرف .
— الست روز يمكن أن تعرف .
وقادتهما في الممشى الطويل إلى الدار .

كانت الست روز جالسة إلى طاولة عليها خرائط بعضها فوق بعض ، فقامت ودلفت بسمنتها ترحّب بالست أم جابر وترمق تميمه هاشّة باشّة :
— ما شاء الله ! ما شاء الله !
مُبدية إعجابها بالمدموازيل ، مؤكدة أنها «كل يوم أجمل وأجمل» . وتتأملها من فوق إلى تحت . وأمرت لها بالكولا وللست أم جابر بالقهوة .
كان الصبا كلّه يهجم مع هذه الكتلة من الحياة الغضّة البضّة المشدودة في فستان رمادي رقيق ارتدته تميمه لذلك اليوم . وكان فيها أكثر من

الجمال . دعوة في هاتين العينين العسليتين الواسعتين إلى « الشرود في دنيا لها أول وليس لها آخر » – روز خوري ذات خبرة – لولا هذه العقدة بين الحاجبين . ولكنها عقدة حلوة تُكسب صاحبتها لدى الابتسام مزيجاً من القبول والرفض والرفض والقبول تعرفه روز جيداً من القرويات ، فلا يزيدهن إلا فتنة وإغراء .

– جابر لم ينم البارحة في البيت .

فشهقت الأم .

– لا داعي للقلق ، أكّدت صاحبة البيت ، فهو معتاد أن يغيب . ولكنها المرّة الأولى التي ينام فيها ليلتين متواليتين خارج البيت .

– ليلتين !

كاد صواب الأم يطير . وانهالت التكهنات والابتهالات إلى الله . فيما كانت الست روز تقلّب خرائطها بوجه تميمه مزهوّة :

– البناية التي سأطلع بها .

ثم تبلع حبّة من حبوبها وتلعن الهندسة والمهندسين . أكّدوا لها في البداية أن التكاليف لن تتجاوز المئة والخمسين ألف ليرة . وصلوا بها الآن إلى المئتين والخمسين .

– كل شحطة قلم بعشرين ، بثلاثين ألف ليرة !

وهي لا تريد أن تقع تحت الديون .

وانفتح باب إحدى الغرف وأطلّت منه نظّارتان ، فرفعت رأسها ونادت :

– وفنجان خصوصي يا زنّوب ، مرّ للأستاذ .

والأستاذ بالباب لا يتحرّك ولا يقول شيئاً . نحيل ، ضئيل ، في روب أصفر ، مقلّم ، وشعر مهمل تتهدّل خصلة منه على صدغه الأيمن ، ونظّارتاه بوجه تميمه . أزعجتها هاتان النظّارتان فنهضت وهي تتظاهر باستشارة ساعتها .

ـ العاشرة .

قالتها بصوت مسموع . والأستاذ لا يبرح العتبة يفرك ذقنه القاحمة ذات الشعر النافر، بأنامل عصبية . وتهمّ روز بمراسم التعريف ولكن تميمه أدارت ظهرها لتقول لأمها إنها ذاهبة الى الجامعة تسأل عن جابر ، فهبّت الأم ، فردّتها تميمه إلى القعود :

ـ أنتِ انتظريني هنا .

وخرجت .

لم تتناول آمنه من قهوتها جرعة أو جرعتين حتى قامت إلى غرفة ابنها تتفقّد ثيابه وأمتعته . فاتبعتها روز بقهوتها . ولما دخلت عليها الخادمة وجدتها تمسح عينيها بقميص من قمصان جابر ، فعادت تخبر أن أم جابر تبكي . .

كانت روز خوري غارقة في خرائطها .

لا بدّ من البناية الجديدة . كل الحيّ نفض عتيقه . على أنها ، بصرف النظر عن التكاليف، لا يمكنها أن تفكّر بهدم هذا البيت إلا بالكثير من التأثّر ، فهو جزء من حياتها ، وعتبته خير ، منـــذ أن داستها وهي من أعلى إلى أعلى .

تنقّلت في ماضيها من شرق المدينة إلى غربها ، ومن الشمال إلى الجنوب ، وبالعكس ، مراراً ، قبل أن تستقرّ في الحمرا .

في بيتها .

« مدام روز خوري » محفورة في النحاس على البابِ ، منصوبة أمام عيون الحسّاد منذ عشر سنين .

زهره جناديوس ! لو ناداها منادٍ اليوم بزهره جناديوس ، أو بأي اسم آخر من الأسماء التي تعاقبت بعده ، فالنداء موجَّه إلى غيرها .

ماتت تلك الأسماء .

وروز خوري تحتفظ منها بذكريات بعيدة ، داخل بعضها في بعض ،

مبهمة ، كأنها من عالم آخر .

زهره ابنة الخوري نعمة الله جناديوس كاهن رعية « المقلب » في شمالي لبنان .. . مات المرحوم قهراً . الحمد لله أن الخورية ماتت قبل الحدث العظيم . « أحبّت الشاويش . راحت خطيفه مع المسلم ! » قالوا . وكرّت السبحة .

لم يقبل أحد أن يعترف لها باسم حرم أدهم أفندي . سمّوها زهّور الشاويش . وكان الغيارى يفتّشون عن يد تغسل لهم الفضيحة بالدم لولا أن أتاهم فرج من السماء : مات أدهم برصاص الأشقياء وهو يطـارد عصابة منهم في الصرود . فهربت إلى بيروت باسم ورده نعمةالله . ولم يلبث المترجمون في بيروت أن ترجموا ورده إلى روزيت تحبباً ، ولكنها بترته يوم بترت آخر علاقة لها مع الرجال . وقصص الرجال الذين عرفتهم قد طوتها . ختمت عليها وعلى كار الغرام .

ما عدا هذا — ونظرت إلى صورة في صدر الدار — فهي لا تستطيع أن تنساه . واغرورقت عيناها .

المهمّ أنها استوت في وقار الست روز لا من البارح ، ولا من سنتين حينما شرعت في تشغيل التكسيات ، بل من اليوم الذي اشترت فيه بيت الحمرا وتنبأت للحمرا بمستقبلها الباهر .

الطابق الأرضي أصله قبو الحجر الذي بنت عليه هـذا الطابق من الباطون . لو عرفت في ذلك الوقت كيف ستنقلب الدنيا ! ولكن مَن كان يستطيع أن يعرف ؟ الحاصل أن الطابق الأرضي ضائع . مرتع لجلال الكرش بين دكّانه ومكتبه العامر ، مع كاراج لا يسع إلا سيارتين من سيارات التكسي . الثالثة تبيت في الطريق .

« الكرش لا يمكن الاستغناء عنه وعن جلاله ! » عمود من أعمدة البيت على حاله ، وعمود لا بدّ منه في البناية التي ستطلع . كان في الدكّان قبل أن تنتقل إلى البيت وينتقل البيت إليها . دخل في الصفقة .

ظلّ يبيع خضاره سنين ويدبّر خادمتين أو ثلاثاً لأهل الحيّ كلما راح إلى عكّار . فلمّا ازدهر هذا الحقل ترك الخضار تذبل في الحقل الآخر – روز لا تشتري من عنده شيئاً – ثم جعل من غرفة نومه خلف الدكّان مكتباً ، فأصبح أولياء البنات يأتون بهنّ إليه ، وهو كالطاووس خلف طاولة عتيقة عرجاء قالت له روز ألف مرّة « غيّرها » فلم يسمع . « يحب أن يعيش في الوسخ ! » وليِصْقَ الحائط صوفا أوسخ وأوسخ ، وكراسي قشّ منفّشة كشعور البنات لدى وصولهنّ من عكّار .

ولكن الشغل ماشٍ .

الطابق الثاني بهندستها : دار وخمس غرف ومطبخ .

غرفتها هي في أول الممشى ، مع نافذة تُطلّ على الطريق وأُخرى على سفرة الدرج .

تقابلها الغرفة الثانية إلى الجهة الخلفية ، معتمة ، مقفلة طول النهار على أثاثها الفاخر . ليست بحاجة إلى نور الشمس ولم تعرف من الكهرباء إلا الضوء الأحمر في الليالي .

الثالثة على الصفّ نفسه لجابر نصّور ولأي مستأجر . نحس هذه الغرفة . يتبدّل عليها في السنة عشرات . عسى أن يثبت هذا . طالب حقوق ، يقول . الطلاّب إذا ثبتوا فتسعة أشهر . ولكنها لا تراه يدرس . همّه ملاحقتها : « عندك واحدة جديدة ؟ » كأن عندها فبركة نساء . دفّيع على كل حال . الحوالات تتدفق عليه من أبيه ، وليلته العامرة بعد كل حوالة بخمسمائة ليرة من خير أفريقيا .

الرابعة للصحافي المؤلف الشاعر الأستاذ رمزي رعد وكتبه وجرائده وأوراقه وجنونه . وحده بين مستأجري خلق الله غلب روز . يدفع شهراً ويمتنع دهراً . ومع ذلك أي قوة من السماء أو من جهنم حالت دونها ودون طرده حتى الآن؟ لا تعرف أتحبه أم تكرهه؟ تحترمه أم تحتقره؟ مخلوطة في دماغها . أمّا أن تخاف منه ومن قلمه – كما لمّح مرّة بعد

تأخره في الدفع ففشرْ ! روز خوري لا تخاف أحداً . وعندها في الحكومة مَن يحمي ظهرها .

أمّا الخامسة فعلى اسم « نائبنا العتيد » المحامي اللامع الأستاذ الكبير أكرم بك الجردي . الغرفة الوحيدة التي لها شرفة على الطريق . طبعاً ، البك ما أطلّ على الشرفة في زمانه . فالغرفة ليست لسكنه – هو يسكن شقّة فخمة في الحازمية – وإنما هي لمزاجه . وكيلها في مشاكلها مع السوّاقين ، ومنذ وفاة زوجته الزبون رقم ١ في البيت . إيجار الغرفة مدفوع سلفاً كل ثلاثة أشهر لساعتين في الأسبوع : ساعة يوم الإثنين وساعة يوم الجمعة... « البك حجز من العمارة الجديدة الروف . أُوديت لا ترضى إلا بالروف . تريد أن تُطلّ على البحر ! أن تسرّح أنظارها في الجبال ! السيدة المبجّلة أُوديت مدام فوّاز أفندي نعمان . يعني – وهزّت روز برأسها – يعني بالعربي الفصيح الذي فاز بالشرفين : الوظيفة التي دبّرها له البك ، والقرون التي أطلعتها له أُوديت . »

لا . لا . ستُقنع أكرم بك باختيار جناح آخر ، أيّ جناح تطلبه أُوديت في البناية الطويلة العريضة ما عدا الروف . الروف لها هي ، ولن يعلو أحد عليها ...

سبحت بأفكارها الى بعيد . من الآن إلى أن تبيع التكسيات ، وتستردّ ما لها في ذمّة الناس من أموال ، وتتفق مع المهندسين على الأسعار ، فرج ورحمة ... « فوّاز أفنـدي نعمان ! والنعم ! كشّاف ! كشّاف ، قال ، في الجمرك ! فليكشف خلف رأسه ! فليتفضّل وينظر تحت ذقنه ماذا تهرّب زوجته وأُم أولاده الثلاثة » !

وطوت الخرائط ودخلت إلى غرفة جابر تؤانس أُم جابر . فرصة لمفاتحتها في هذا الجسم الذي يأخذ العقل : تميمه .

٣

تعرف تميمه الجامعة اللبنانية . مركزها على الأقل ، الأونسكو ، وبعض أقسامها الموزّعة في المدينة . سبق لها أن زارتها مرّتين ومعها رفيقة من صيدا تعتزم هي أيضاً المجيء إلى بيروت للدروس العالية . وفي الحلم زارتها ألف مرّة .

أمّا ما يقول جابر إذ تطلع بوجهه فلا تفكّر فيه .

كانت تستمع ، وهي في سيارة السرفيس ، إلى الركّاب يتحدثون عن الطلاّب وعن التظاهرة التي قرروا القيام بها . اليوم الساعة العاشرة يلتقون أمام الأونسكو .

– كل يوم خضّة .

هكذا كانوا يقولون . يخشون خصوصاً أن ينقلب الأمر في بيروت إلى ما انقلب قبل أيام في طرابلس : إصطدامات وقتلى ، مع الفدائيين وضد الفدائيين .

– وضربات سخنة .

– والعودة إلى نغمة مسلم مسيحي .

– أصابع أجنبية . إسرائيل .

– لا مسلم ولا مسيحي . إسرائيل لا تفرّق بيننا .

– إسرائيل ومعها ألف عزرائيل : الزعماء ومآربهم ونكاياتهم .

– يتناحرون فيما بينهم واليهود على الحدود .

– الجيل الجديد كفر بهم وبخزعبلاتهم .

– أين هو الجيل الجديد؟ بالسينمات والستريوهات . إلى أين نروح مع جيل الهيبي ؟

– والميني جيب !

فأفلت السائق المقود ورفع قبضته مهدداً . كان منرفزاً ويتوقّع لهذا اليوم شؤماً ، فالسيارات تنقل العسكر منذ الصباح الباكر باتجاه الأونسكو، وقد غيّر له البوليس وجهة السير مرّتين ، وهو يشتم البوليس ومن لبّسهم الطقم . الميني جيب أطفح كيله فأخذ يروي كيف أن ثلاثة « من الشبعانين من حليب أمهم » ، أمسكوا نهار الأحد بنتاً من بنات الميني جيب فمزّقوا عنها الميني جيب وتركوها نصف عارية في ساحة البرج . ركضت لأول سيارة — إليه هو — طالبة السترة . خلّصها البوليس وإلا :

— كنت هرست عظامها تحت الدواليب !

ولعن الركّاب هذه الأيام وسبّوا الحكومة .

تميمه بقيت ساكتة .

كان العسكر يتكاثرون كلّما اقتربت السيارة من الجامعة . وعلى المفرق الكبير ، على مئتي متر من الأونسكو ، سيارات كبيرة تتوالى وتُفرغ أفواجاً منهم حاملين الهراوات ، وأخرى تتبعها بجنود يتمنطقون بأسلحتهم الكاملة ويتوزعون في كل صوب ، قد منعوا السير باتجاه الأونسكو وهم يدعون حتى المشاة إلى الرجوع ، فاضطُّر سائق السرفيس أن يخضع للأوامر ، وترجّلت تميمه .

وقفت في ناحية تراقب ما يكون .

الاصطدام واقع حتماً إذا خرج الطلاّب من الجامعة .

وعنّ لها فخطت نحو الجامعة . حاذت صفّاً من رجال الأمن فلم يعترضها أحد . بضع خطوات أيضاً . فلحق بها جنديٍ فابتعدت . كان يأتي من حرَم الجامعة هدير وهو يتعالى في الجو ويتزايد . فانثنت تنظر . الطلاّب يتدفّقون إلى البوابة والجنود يتراصّون بوجوههم سدّاً . وتسود الضوضاء . اشتبك الفريقان . وتُقبل سيارة للعسكر ، تحكّ بظهرها ، تكاد تقلبها ، وجندي يحثّها بعقِب بندقيته ، فتستدير إليه باحتقار ، لم تتأثّر لو صوّب البندقية إليها وأطلق قدر ما تأثّرت بما أطلقه من كلام شنيع .

واستأنفت سيرها بتمهّل ، تحدّياً له . والجلبة تتعاظم، وزحف الطلاّب إلى البوابة يتحول إلى سيل جارف ، فيتراجع الجنود ، وما كادوا حتى أقبلت من صوب المدينة جماعات أُخرى من الطلاّب بأعلامها ولافتاتها ، فارتدّت تلاقيهم ووضعت رأسها بين الرؤوس دون أن تعي على الأرجح ما أقدمت عليه ، فهي في قلب المعركة وكأنها في بحر هائج ، تماسكاً وتدافعاً، ضرباً وصياحاً ، مع مطر من الأحجار والأخشاب والنفايات يرشقها أولاد قد هرعوا يتسلّقون الأعمدة ، يُطلّون من وراء الحيطان ، يتصايحون من كل صوب . وإذا بأزيز مُنكَر .

– رصاص !

– رصاص ! رصاص !

من هو الأرعن؟ من هو الخائن؟ ودوت الأصوات :

– ليسقط مطلقو الرصاص !

– جبناء ! جبناء ! ليسقط الجبناء مطلقو الرصاص !

– يريدونها مذبحة . يشعلون الفتنة .

– يعيش الطلاّب ! يعيش الطلاّب !

– ليسقط المجرمون !

والرصاص يمزّق الفضاء . ترفع تميمه كفّيها إلى عينيها . تحاول أن تنجو يميناً ، يساراً ، فيتقاذفها الحشد . وهي مع ذلك تتّقي الوقوع تحت الأقدام . تحين لها فجوة بين الأكتاف ، تتطلّع . جريح يقع . آخر يجرّه جنديان . ثالث يمسح الدم عن وجهه... تذكر أنها رأت ذلك كله ، ولاحت لها من خلاله – كلمع البرق خلال الضباب المتكاثف – صور التظاهرات والاشتباكات في صيدا . ولكنها لم تشترك فيها مرّة .

ثم بدا لها أن الهرج والمرج قد أخذا في الزوال ، وشيئاً فشيئاً هدأ الحال .

الساحة تخلو .

الطلاّب يتفرقون ، العسكر يركبون سياراتهم وينصرفون ، لم يبقَ منهم إلا أفراد قلائل ، انتصب بعضهم في ناحية ، وتمشّى بعضهم في ناحية جيئة وذهاباً .

والشارع ليس فيه إلا بقايا المعركة . حطام لا اسم له ، مع رؤوس بندورة مهروسة تذكّر بالدم . وفي الجو سكوت مبغوت .

بإمكانها أن تمضي... ولكن ، إلى أين؟ هي لا تعي شيئاً ممّا حدث بعد ذلك .

حينما فتحت أجفانها وجدت نفسها في مستشفى والطبيب يعالج جرحاً في رأسها بمعاونة ممرّضة . وبين الطبيب والممرّضة وجه ينحني عليها بابتسامة تشعّ ملء عينيه .

ونقلوها إلى غرفة بيضاء ، وأضجعوها على سرير أبيض ، والشخص إياه — ينحني عليها .

لم ترَ في حياتها عينين تبتسمان كهاتين اللتين ترمقانها ، لا يقول صاحبهما شيئاً ، ولا تقدر هي أن تقول :

وعزمت أخيراً فسألت :

— من أنت ؟

قال وقد شاركت شفتاه في الابتسام :

— « أخوك » . ولكن اسمي هاني الراعي .

ثم أخذ يقصّ عليها ما حدث .

بعد أن تفرّق المتظاهرون ، وكان منهم . مشى في الشارع باتّجاه البحر . وكانت أمامه فتاة تمشي مسرعة كأن عليها موعداً هامّاً . أمّا هو فكان يفكّر بلا شيء وبألف شيء . واضعاً رأسه في طريقه ، وكان يسمع وقع قدميها ويراهما دون أن ينظر غارقاً في بحران ما تركته المعركة في نفسه . ومرّ بجندي يروح ويجيء على الرصيف من أولئك الذين تخلّفوا

في المكان للحراسة ، وإذا بحجر يمرق في الفضاء بينه وبينه . وآخر أشدّ منه . فعبر الجندي الشارع إلى الرصيف المقابل رافعاً بندقيته وعيناه إلى شجرة على الرصيف . وإذا ولد يهبط من الشجرة ويُطلق ساقيه للريح فيلحق به الجندي . فتوقّف ينظر إلى المطاردة المثيرة حتى توارى كلاهما في منعطف ، فارتدّ مستأنفاً السير ، فما هاله إلا الفتاة التي كانت تمشي أمامه وقد انطرحت أرضاً على خطوتين منه . فانحنى ينظر إلى الدم ينزف من رأسها ، وحملها بذراعيه يتساءل أين يأخذها . كان المكان بعيداً منعزلاً . وأقبل تكسي فيه راكب فاعترضه مستغيثاً : « أُختي ! » فيشير الراكب إلى السائق ، ويعاونانه في حملها إلى السيارة إلى أقرب مستشفى... في الطريق اتّضح له الأمر . الحجر الأخير الذي رشقه الأزعر — « لعله عزّ عليه أن يذهب ضياعاً » — أخطأ الجندي فأصابها في قذالها .

— الجرح بسيط ، والحمد لله .

— أخبرني أيضاً . أخبرني كل شيء .

أخبر أنه قصد خصيصاً إلى الجامعة اللبنانية ليشترك في التظاهرة . طالب هو في جامعة القديس يوسف ، السنة الثالثة هندسة . كان يودّ أن يكون في الجامعة اللبنانية لو أن فيها كلية هندسة . يؤيّد الحركة التي يقوم بها الطلاّب . حركة بريئة عادلة . يريدون من السلطات الوفاء بالوعد : أن تنشىء أبنية خاصة بالجامعة اللبنانية وتجهّزها بما تتطلبه رسالتها . الجامعة اللبنانية ينبغي . قال ، أن تنهض بالأعباء الملقاة حتى اليوم على الجامعات الأجنبية .

كانت تُصغي إليه بشغف . فإذا سكت طرحت عليه سؤالاً . تطرح عليه الأسئلة بلا حساب . وهو هادىء في كلامه ، وهي مهتاجة ، وسألته من أين هو . قال :

— من دير المطلّ . طبعاً لم تسمعي اسمها . ضيعة صغيرة في الجبل ، المتن الشمالي . حلوة .

ويعيش في الضيعة مع عمّته وجدّه . ويسكن في بيروت – الأشرفيه – غرفة بالايجار . وأبوه في ليبيا ، منذ سنتين ، متعهد بناء .

هو لم يسألها شيئاً كثيراً عدا اسمها وماذا كانت تعمل أمام الأونسكو . هي تطوّعت لذكر المهديّه ، ودروسها في صيدا ، والبكالوريا هذه السنة ، والجامعة اللبنانية في السنة المقبلة .

على الغداء دعته أن يتناول مما أحضرت لها الممرّضة . اعتذر :

– أتغدّى وأعود . يجب أن أرى بعض الأصحاب .

إنتظرته وهي تعدّ الدقائق . وامتدّ بهما الحديث إلى المساء .

وفجأة نظرت إلى ساعتها : « السادسة ! » فقفزت من سريرها .

– بأي قلق يجب أن تكون أُمي . تركتها في العاشرة صباحاً .

وجاء الطبيب فكشف عن الجرح . الأفضل أن تقضي يومين أو ثلاثة في المستشفى تحت رقابته ، وإلا فعليها أن تعود كل يوم لتغيير الضمادة .

رافقها هاني الراعي بالتكسي إلى شارع الحمرا وودّعها على مفرق الطريق المؤدي إلى بيت مدام خوري . وكانت قد أخبرته في ما أخبرته – هل تدري ماذا أخبرته أيضاً – بالخلاف بينها وبين أخيها في شأن متابعتها دروساً عالية بعد البكالوريا ، فقال لها :

– أراكِ غداً في المستشفى . أي ساعة ؟

– الثالثة ، قال الدكتور ... إذا بقيت في بيروت . سأجتهد أن أبقى .

– وإلا فتكتبين لي إلى دير المطلّ . أنا في دير المطلّ كل أحد .

– وتخبرني في جوابك هل تحققت أمنيّة الأزعر .

فانتظر إيضاحاً . فأردفت بخبث :

– هل ذهب حجره الأخير ضياعاً...

٤

أحدث دخول تميمه بالحالة التي عادت بها هتافاً عظيماً من قِبل الست روز وانهماكاً وتهافتاً . وما كادت تطّلع على ما جرى — وقد روته الفتاة بكلمتين زاعمة أنها ذهبت من نفسها إلى المستشفى — حتى انبرت تقذف حمم غضبها على الحكومة وبواليسها والطلاّب والزعران « وكل هذا الكون الذي تغيّر من الأساس » . وغطّى خطابها على لوعة الأم فلم تجد آمنه محلاً لنأمة إلا هز الرأس بالموافقة .

وجابر لم يظهر حتى الآن .

وليس بالإمكان السؤال عنه في الجامعة إلا من غد . هذا إذا فتحت الجامعات أبوابها . فالطلاّب يلهجون بإضراب عام في جامعات بيروت الأربع ومعاهدها العليا . هكذا أنبأها هاني ، وقال إنه اجتمع على الغداء بقادة الحركة من الطلاّب ، وإن المفاوضات جارية بينهم للقيام بعمل مشترَك استنكاراً لأساليب العنف التي لجأت إليها السلطات . وربما تطورت الحركة بسبب تدخّل عناصر تريد تحويلها إلى نصرة الفدائيين ، الأمر الذي يهدد بخطر الانقسام والاصطدام ، وهو ما يسعى هاني الراعي وأصحابه ، كما قال ، لتفاديه . لا بدّ على كل حال من قضاء الليلة في بيروت مهما قالت الأم . ولكن آمنه موافقة في قلبها ، فلن يطمئن لها بال حتى ترى جابر .

كانت روز قد سبقت تميمه إلى أفكارها فوضعتها في سرير أخيها وأمرت لها بالشاي وأبت إلا أن تقدّمه بيدها — « سلامة عينيك ! » — وتجسّ نبضها كل دقيقتين . وأوفدت زنّوب إلى جلال الكرش توصيه بشراء فرّوج للشورباء « عشاء خفيفاً للمدموازيل تميمه » . أما الست أم جابر فلن ترفض الدعوة إلى أي شيء من حواضر البيت — « البيت بيتك » —

ولما حاولت آمنه الاعتذار بأنها ستأكل مما في السلّة حلفت روز بالله العظيم لا يمسّ السلّة أحد ، فهي مخصّصة لجابر . وأكلت الأم عشاءها مغموساً بالدموع .

لم تذق تميمه النوم إلا لماماً .

كانت تفكّر بأحداث نهارها بين الجامعة والمستشفى وما انكشف لها فيه من أمرها وأمر هذا « الأخ » الذي انبثق لها مكان أخيها . تكاد لا تصدّق كل هذا . ربما كان من نسج خيالها المحموم . ولكنه واقع لا ريب فيـه ، وها هي تتحسّس ضمادة رأسها ، فترى العينين اللتين تبتسمان ، وتسمع كلمات هاني تنسكب في روحها كهذه الأمطار الهادئة المرنّمة على الشبّاك . ترُى ، هل يأتي في الموعد إلى المستشفى ؟

حاولت في الصباح أن تقوم فدار بها رأسها . وقامت عند الظهر تتمشى في الغرفة فكادت تقع . فصرخت أن عليها أن تذهب إلى الطبيب بعد الظهر .

— طبيبي الخاص أجلبه لك على رأسه إلى هنا وفي هذه الدقيقة .

ووثبت روز إلى التلفون .

ولمّا جاء الطبيب جعلت تدور حواليه ، تعاونه على كشف الجرح ، تسابق الأم إلى التحديق والتفجّع . فلمّا انتهى من تغيير الضمادة قال إنه سيعود في اليوم التالي ، وأوصى بالراحة التامة .

ولكن روز كانت حريصة على معرفة شيء . ولدى تشييعه إلى الباب سألته عن المدة التي يحتاجها الجرح للشفاء ، وهرولت عائدة :

— أُسبوع ، قال الدكتور ، وممنوع أن تتحركي من السرير .

وخرجت إلى الدار ونادت زنّوب أن تأتيها بعلبة السكاير من غرفتها .

كانت الساعة قد قاربت العاشرة . فأفاق الصحفي من نومه ، ولما أطل على الدار بروبه رأى روز ترفع سيكارتها بأطراف الأصابع وتنفث الدخان

بأشكال هندسية وتتابع طيرانها وذوبانها حتى السقف لتُعقبها بأخرى . فقال في نفسه : « لأمر ما راضية اليوم عن نفسها » .

– ماذا تقول الجرائد يا أُستاذ عن حوادث البارح ؟ رأيك الشخصي في الحالة .

كان من دالّتها عليه أن تُجلسه كل صباح على فنجان قهوة ليقرأ لها الأخبار المحلية – « لعن الله أيامنا لم تتعلم فيها البنات قراءة ولا كتابة ! » – ولكنها تشفع : « ومَن له مثلي سكرتير خاص يقرأ ويكتب ! » .

رمزي رعد لم يكن يقرأ لها في الواقع إلا القليل ، ويلخّص لها في الغالب ، ويؤلّف تأليفاً . ولم يكن مستعجلاً لذلك . دوشه الصباحي البارد – هي تعرف – قبل كل شيء . فتركته إلى دوشه ودخلت على تميمه .

لما أحسّت بوقع خطاه في الدار عائـــداً من الحمّام هتفت له من الغرفة :

– عندي شخص يا أُستاذ رمزي رعد مُعجَب بكتاباتك . تفضّل اشرب القهوة معنا .

خفق قلب تميمه في لهفة وتهيّب . الأستاذ رمزي رعد ! هنا في هذا البيت ! وصاحبة البيت تناديه باسمه الكامل – تأكيداً – .

أحسّت بمزيج من غبطة وكبرياء ، وبالكثير من الخجل عن روز خوري تخرق حرمات الأسماء الكبيرة بمثل هذه اللهجة التمثيلية .

الأستاذ رمزي رعد ! تقرأ مقالاته كل يوم في جريدة « الصباح » ، وقصائده كل أُسبوع في مجلة « العصور » . وقرأت كتابه « أرباب وعبيد » في صيدا ، لم ينفع حظر المدرسة على التلميذات قراءته إلا في الترغيب فيه والتهام فصوله في خلواتهن .

كان إذن هو الذي وقف بباب الغرفة أمس ، وكان هو الذي نجت بنفسها من نظّارتيه . وها هو يقف بالباب ، قبل أن يدخل ، وقفته تلك ناصباً نظّارتيه بوجهها ، ثم يتقدم إلى كرسي إزاءها ، لم يسألها عن سبب

الفساده مكتفياً بما استبقته به روز من شروحها . ومضى الحديث عن التظاهرة .

قال ، وكأنه يُصدر قراراً ، إنها بداية . الإشارة للاندفاع في طريق الثورة .

« لا بدّ منها » — ذلك كان عنوان مقاله في العدد الأخير من « العصور » — تذكر تميمه عنفه . وهو عازم على مواصلة الكتابة تصعيداً حتى يرى الثورة لا في الجامعات فقط ، بل في البلاد كلها . وإذا كان الطلاّب في العالم قد ثاروا — وهم في الغالب يثورون ضد عالم لا يفهمهم — فأسباب الثورة في لبنان أهون من ذلك وأدهى . إنها الحلقة الأولى من سلسلة الثورات في التاريخ . الثورة ضد الظلم والقهر ، والجهل والفقر . ثورة العبيد على الأرباب...

كان يتكلم بسخرية . باحتقار .

من علُ ، كأنه واقف على نُصُب نفسه .

وعلى وجهه جمود وعليه صُفرة .

كالصُفرة في الأفق قبل العاصفة .

عيناه وحدهما ترافقان لسانه ، فبين نظراته وألفاظه شرارات متشابكة . والشرارات تتساقط على وجهها وتُحرقه .

وقطع حديثه فقام إلى غرفته ثم عاد بأوراق قال إنه سوّدها الآن . وتركها لها .

انقضى النهار ولم تذهب تميمه إلى المستشفى — اكتفت بتلفون اعتذار — وتقدّم الليل بعد انصراف رمزي رعد وهي ملازمة غرفتها تتناول مقاله فتقرأه مرّة أخرى . سيظهر المقال في العدد المقبل من « العصور » . عنوانه حرف . حرف واحد — « لا » — وتعود إلى بعض مقاطعه والشرارات تتساقط على وجهها من جديد :

« أيها الطالب الذي تظاهرت ،
لقد رآك الحكّام تملأ الشوارع والساحات
وسمعوا صوتك يصرخ بوجوهم : لا !
لا أصدّقكم . لا أؤمن بكم . لا أُريدكم .
من الجامعات سترتفع الهتافات لعنات
والأيدي بوجه السماء
حراباً !... »

والعبارات حافلة بالتشطيب ، كأنما يكتب بسكّين ، فالورق مجرّح .

في الصباح حملت الجرائد أخبار التظاهرة وأسماء الجرحى ، وكذلك أسماء الطلاّب الذين أُوقفوا بتهمة الشغب . بضعة عشر في مقدّمتهم جابر نصّور . « والتحقيق جار عمّن أطلق الرصاصة الأولى » .

فرصة أُخرى انتهزتها تميمه لاجتماعات وأحاديث بينها وبين الأستاذ رمزي رعد ، تنعقد قبل الظهر وبعده وتمتد إلى ساعة متأخرة من الليل .

لقد غابت العينان اللتان تبتسمان .

إنها الآن بكلّيتها للوجه ذي الصقيع وكلماته المحرقة .

٥

كان الطلاّب قد تنادوا من الجامعات كلّها واشتد هياجهم . وانتهت المشاورات بين الرابطات إلى اتخـاذ قرار وافق عليه الجميع : الإنذار بالأضراب العام إذا لم تُطلق السلطات سراح زملائهم وتُوقف التحقيق معهم .

فخضعت السلطات .

في مساء اليوم نفسه علا الصراخ في المهديّه .

فبينما كانت تميمه تقلّب الأمر بينها وبين أُمها من أين تدبّران قسط

المدرسة إذا بجابر يدخل إلى البيت برجاً من غضب . وتتوسط أُمه لردعه عن أُخته فيطرحها أرضاً فوق ابنتها ، ما هاله إلا كيف تجرأت « الكلبة » — وتسكت أُمها — على عصيان أوامره . ولم تكتفِ حتى قصدت إلى الجامعة . ونزلت في التظاهرة ، ونامت في بيت روز خوري بحجّة الجرح . « تستأهل الرجم بحجارة الأرض كلها . تستأهل الرصاص ! » قسط المدرسة ؟ فلتدبّره من خالتها في صيدا ! فلتُعْطِها أُمها مما تخبّئ في الصرر !

— وبلاك وبلا مدرستك !

وهدّدها بالذبح إن هي وطئت بعد اليوم شارع الحمرا أو أدارت وجهها صوب بيروت . ورجع من حيث أتى .

لم تنزل لتميمه دمعة ولم يطرف جفن . ذهبت إلى غرفتها فأقفلت على نفسها الباب .

ماذا تفعل ؟

هل تكتب إلى أبيها ؟ لم تكتب إليه في هذه الأمور ولا في غيرها منذ سنين .

أربع سنين بالضبط .

وهو يلحّ في رسائله إليها فلا تلين ، ولا تبوح بالسبب .

وجّهت إليه في صغرها ، منذ فكّها الحرف ، رسائل عديدة باسم أُمها كانت تذيّلها بإمضاء « زوجتك الأمينة آمنه » . وحبّرت له في ذلك العهد أكثر وأكثر ، أشياء باسمها تُطلعه فيها على مراحل دراستها وتنمّق عواطفها نحو « الوالد الحنون » الذي تتشوّق إلى رجوعه إلى « الوطن العزيز » ، فتتلقّى منه بخطّه الفارسي المنسرح وعباراته الجميلة أجوبة كانت مثار فخرها وكانت تحتفظ بها بين أشيائها الثمينة .

حتى كان ذلك اليوم الذي وصلت إليها منه تلك القصيدة .

كانت في الخامسة عشرة من العمر والقصائد ملء رأسها — رمزي

رعد ليس من رأيها فيمن أحبت وتحب من شعراء . لا سعيد عقل ولا نزار قباني . ولا شوقي ولا أبو ماضي . جبران ، قال ، يشذّ عن الجميع ، فيه شيء من النبوءة . وهذا رأيها . قصائده هو ؟ كلمته مطوّلاً عن قصائده . مقالاته كلّها قصائد . بين سطوره أصوات غريبة . « يُخيَّل إليّ وأنا اقرأك أنني أسمع ريحاً » . أعجبه التشبيه ، قال : « أنت شاعرة ويجب أن تكتبي » ... ربما ! ربما كتبت يوماً من الأيام شعراً على الطريقة الحديثة ، طريقته هو... كلّهم في جبل عامل ينظمون . إذا كتبت شيئاً في المستقبل فما أبعد ما سيكون عن هذه الأوزان الرتيبة والقوافي المقرقعة كالعظام !

وعادت إليها قصيدة أبيها — ليتها احتفظت بها ! — لا تذكر منها إلا القافية الأولى : تميمه ، والأخيرة : تميمه . مع أنها استظهرتها في ذلك الوقت بكاملها ، واندفعت تتلوها على الرائحات والغاديات من أترابها وتعقد لها الحلقات مزهوّة بأبيها ، حتى تصوّرت أن أباها أبو فراس الحمداني ، أبو فراس آخر في منفاه يحنّ إلى الأهل والوطن .

عيد دام طول ذلك النهار .

في صباح اليوم التالي دخلت إلى صفّها لتجد في دِرجها تلك الورقة : « القصائد الرنّانة لأختك العبدة السوداء » — بالحبر الأحمر !

حتى الآن تتساءل أي واحدة دسّت لها السمّ . وإن كان قلبها قال لها مَن هي الحسودة اللدودة التي كانت تموت قهراً كلّما جاءت علامتها في الدرس أو مرتبتها في الامتحان دون علامة تميمه نصّور ومرتبتها . ولكن كيف كان لها أن تواجهها بذلك ؟ لم تعرف كيف انتهى الصف حتى هرولت إلى الحمام ، مزّقت القصيدة والورقة معاً ، وبكت كأشقى ما يبكي إنسان على وجه الأرض . ومنذ تلك اللحظة انقطعت عن الكتابة إلى أبيها .

هل تكتب الآن ؟

ضحكت لأوّل مرّة منذ أربع سنين لهذا السؤال . وقامت إلى طاولتها فتناولت ورقة وقلماً .

على أنها كانت قد حسبت حسابها . فبين وصول الرسالة إلى غينيا ووصول الجواب بالمال إلى لبنان شهر أو يزيد . والمدرسة تفتح أبوابها بعد يومين ، والقسط لا ينتظر .

ستذهب إلى الحاج فضلو في طلب سلفة على الدفعة المقبلة من أفريقيا .

فوافقتها أمها .

كان الحاج فضلو تاجراً معتبراً في صيدا ، له منزلة متوارثة أباً عن جد في عالـَمي الدين والدنيا . وكان ، إلى جانب تجارته ، على رأس مؤسسة أشبه ما تكون بالبنك ، إليه تعود المنطقة في أكثر معاملاتها بينها وبين ديار الهجرة . بنك لا كالبنوك ، له نظامه الخاص ميثاقاً شرفياً غير مكتوب ، وله شبكاته الموزّعة في زوايا الأرض يعرفها قصّادها والراسخون في العلم . نشأ أصلاً صندوقاً للودائع يأتمنه عليها الأقربون ، وظلّ كذلك سنين . فلما فرضت السلطات الأفريقية في مختلف أنحاء القارة القيود على إخراج المال عظم شأنه ، فأشغاله تنبت مثل الكمأ تحت كل سماء ، وقد أدّى إلى المهاجرين وإلى أهلهم في الوطن خدمات ، بالإضافة إلى إعلاء منزلة صاحبه ، على علوّها ، في العالـَمين المذكورين . بلى ، إن الخبثاء لا يفوتهم أن يشيروا مثلاً إلى رجحان كفّة على أُخرى ، فيتصدّى لهم الغيارى بما يكون لو لم يكن الحاج فضلو ؟ « أتبقى أتعاب أولادنا ، جنى عرقهم ودمهم ، عند العبيد السود ، وتموت هنا نساؤهم وأطفالهم جوعاً ؟ »

الواقع أن الحاج فضلو من الفضل معدنه ، إلى دقّة في المعاملة ، ولطف في الاستقبال ، وحرص على مصالح الفريقين هنا وهناك .

وقد سبق لتميمه أن جاءت مع أُمها وأخيها إلى مكتبه مراراً ، خصوصاً عهد كان تامر نصّور يوجّه المال باسم زوجته . فلمّا صار إلى اسم جابر — حقاً من حقوقه الشرعية كما قال الحاج — درج جابر على المجيء وحده وبدأت المشاكل في البيت .

تذكر تميمه - كيف تنسى ؟ - ذلك اليوم الذي جاءت فيه مع أمها وأخيها قبل سنين لقبض ما كانوا يتوقّعون أنه وصل في موعده لذلك الفصل . فأخبرهم الحاج فضلو أن المال لم يصل هذه المرّة ، « لعلّه بسبب انقلاب حصل في غينيا فأخّر الأمور» . ففتحت أُمها فاها لا تفهم . تسأل عن « الاقلناب » أي شيء هو ، وتلوك اللفظة العجيبة بما يُضحك تميمه بالرثاء كلما تذكرت . وصحّحتها لأمها دون أن تُدرك كثيراً من معناها - كانت في الحادية عشرة من العمر - ولا تنسى انكسار أُمها وضبّها على ولدَيها للانصراف وهي تدعو الله أن يحمي تامر ويُعيده سالماً من أفريقيا . فإذا الحاج يستمهلها على الباب وينثني إلى خزانته الحديدية فيُعطيها مبلغاً على الحساب - هكذا لا ورقة ولا شهود - لتلبية حاجات العائلة .

مع هذه الصورة دخلت تميمه إلى مكتب الحاج فضلو في ذلك الشارع الضيّق من صيدا القديمة ، المزدحم بالقرويين من أنحاء الجنوب للتبضّع ، العابق بروائح أصناف المانيفاتورة تمتزج برائحة الثمار المجففة برائحة الحلويات تُقلى في دكان على باب المكتب وتهبّ في وجهها . تماماً كما كانت في الزمان ، لم يتغير شيء . وسال لعابها ، ورأت نفسها طفلة تلتهم هذه الفطائر الرافغة . وتلمّظت بالذكرى ورقيت السلّم .

وكعهدها بالمكتب . هو هو . وزبائنه الدائمون . نساء وأطفال ينتظرون دورهم في الدخول على الحاج - الحاج في الغرفة الثانية مع الخزانة الحديدية - فأخذت لنفسها محلاً بينهم على المقعد الخشبي - إياه - قد حفي لونه الأخضر على مسح الأقفية وكست ذراعيه أدهان الأكفّ . وطاولة أمام المقعد من عمره ، عليها جرائد لمن يعرف القراءة ، أكداس فيها العتيق والجديد . وسجادة على الأرض مخروقة في مواضع ، مع رطوبة وعفونة في السقف والزوايا ، وهيئة زريّة في كل شيء... ولكن الأمل يشعّ في عيون هؤلاء النساء والأطفال ويصدع المكان ببهجة رائعة ، فليس في جوّه إلا انتظار الخير المتدفّق من أفريقيا . ومعه الحب والحنين ،

والأشواق والقبلات .

الأنظار منصبّة على الباب حتى ينفرج . قد رأت تميمه على أثر وصولها رجلاً يأخذ الحاج بيده ثم يُغلق الباب . فوق هذا الباب بالخطّ الثلث العريض وبالحرف المذهّب الفاقع ضمن إطار مطعّم بالصَدَف : « اتّقِ شرّ من أحسنتَ إليه » . لم تدرِ أي شعور خامرها وهي تتأمل هذه الكلمات . انقباض لا تستطيع وصفه . عتب على الحاج فضلو . نقمة عليه وعلى التجار جميعاً . لماذا يختارون هذا الحديث دون سواه من الأحاديث الشريفة السمحاء ؟

أيّ تشكيك في عباد الله ! أيّ تمنين !

وضربت بيدها إلى الطاولة تقلّب الجرائد .

« العصور » . العدد الأخير من « العصور » . وفتحت المجلة على زاوية رمزي رعد . زاويته كل أُسبوع . وهذا اسمه —كليشيه عن توقيعه— في ذيل هذه المقاطع التي يكتبها في السياسة ، في الأدب ، في الفن ، في كل ما يخطر بالبال .

وأخذت تقرأ : التعليم الجامعي في لبنان مسألة ثورة لا مسألة إصلاح — الرقابة تفقأ عيون الناس (تعليقاً على طمس نهود عارية في مجلة فرنسية مصوّرة لدى دخولها إلى البلاد) — تحية إلى منتحر (طالب تشيكوسلوفاكي احتجاجاً على احتلال السوفيات لوطنه) — إلى التي هربت من نفسها...

من هي هذه التي هربت من نفسها ؟

« إلى التي هربت من نفسها
وتركت ظِلّها معي
وفَوحها في روحي
هل أقول لكِ : ارجعي .
سترجعين مع الليل نجماً

يهوي في حضني
وعصفوراً يقع بين يدَيّ بجرحه الدافىء
وسأكون في انتظاركِ
أنا الذي وجدت نفسي فيكِ
والذي ظِلّي معكِ أيان تكونين » ...

انتفضت بكل جوارحها . هذه الكلمات إليها موجَّهة . قال لها مثلها تماماً . يُعيدها هنا على الورق . قالها تلك الليلة حينما اختلى بها بغياب أمها في زيارة لجابر على أثر توقيفه .

وعادت تقرأ ... وتقرأ ...

ولكن المكتب قد خلا . والحاج فضلو يدعوها إلى الدخول .

٦

كانت هادئة في عرض الموضوع عليه ، واضحة في شرحه ، حسنة التوزيع والربط بين أقسامه ، منتهية إلى رجاء – في ضوء ذلك كلّه – بالكتابة إلى أبيها في غينيا بما تُمليه حكمة الحاج وحرصه على مصلحة الطرفين... وتُصغي إلى نفسها وتتعجب كيف استطاعت ، بالرغم من اضطرابها الداخلي ، أن تمضي في الحديث هذا المضيّ الذي لا اضطراب فيه ولا تجمجم .

ولكنها لاحظت – وارتابت – أن الرجل يستمع إليها بشيء من ملل ، فهو يزمّ بعينيه الصغيرتين ويمضغ طرف عثنونه ، أو ينكت بقلمه شعرات له في رأسه الأصهب نكتاً متداركاً . فلمّا فرغت قال متلطفاً :

– يا ابنتي (وسكت قليلاً) أنا مقتنع بما تقولين ومؤيّد له بحذافيره . فليس غائباً عني سلوك أخيك . وكنت مُزمعاً أن أكتب الى الوالد من تلقاء

نفسي إراحة لضميري أمام الله . ولكن... ولكن أخشى أن لا يصل كتابي إليه .

ـ الحالة في غينيا طبيعية . هل جدّ شيء ؟

كان الحاج ينقر الآن بقلمه على الطاولة . فرفع وجهه :

ـ من واجبي أن أصارحك . قبل أن أستمع إليك كنت عازماً على الكتمان . ثم وجدتك فتاة ذكية مثقفة . ولذلك أنا واثق...

وتوقّف يبحث عن الكلمة ، فقالت :

ـ أرجو أن تكون ثقتك في محلّها .

فأطلع على وجهه ابتسامة يطرد بها من ذهن مُخاطبته أيّ سوء تفاهم . هو يريد أن يقول إن لها من علمها ورجحان عقلها ما يشجّعه على الإفصاح لها بما كان يفضّل أن تطلّع عليه من سواه . وبادر إلى رفع يده مطمئّناً :

ـ لا . لا . صحة الوالد بخير ولله الحمد .

فاستعجلته الخبر ـ من فضله ـ فأخبرها أخيراً . قال لها إن السلطات في غينيا قد اكتشفت عصابة للتهريب ، وإنها ألقت القبض على عدد من المهاجرين اللبنانيين ، وهي تحقق معهم بتهمة الاشتراك في العصابة ، وبينهم تامر نصّور .

ـ والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقام إيذاناً بانتهاء الزيارة .

خرجت إلى الشارع وفي رأسها أنواء كأنواء البحر .

عصابة ! تهريب ! تحقيق !

إذن أبوها...

ليتها لم تكتب إليه ! ليتها لم تضع الرسالة في البريد قبل دخولها إلى المكتب ! ليتها لم تطأ عتبة هذا المكتب . « اتّقِ شرّ من أحسنتَ إليه » هل أحسن إليها ليتّقي شرّها ؟ لم يجد ضرورة للاعتذار عن تسليفها المبلغ... سلّفها رجحان العقل والثقافة العالية .

وتغمرها موجة من الاحتقار . له . لنفسها . لأبيها . للدنيا .

ما يكون وقع الخبر على أُمها ؟

فلتصلِّ آمنه نصّور ! فلتقرع صدرها – الآن وقت ربّها – فليردّ لها زوجها من غربته ! فليُطلق سراحه من السجن ! ولينتظر جابر بعد اليوم الحوالات ! فليعد إلى المهديّه يضربها ويضرب أُمه ! فليقلب الخوابي ! فليمزّق الفرش ويحفر في الزوايا ! ربما كان ، في خرم ما ، قرش أبيض للياليه الحمر .

ولكن لا . لم يبقَ شيء لا له ولا لها . وإذا بقي شيء فلتلك المسكينة تعلف به أحلامها ودجاجاتها .

قسط الفصل الأخير . وبعده البكالوريا – بعد البكالوريا ستشتغل . تدبّر لنفسها وظيفة .

لا . لن تقصد إلى خالتها ووجه زوجها المقيت . وبأيّ حق تسبّب لتلك المرأة الطيّبة مشكلاً ؟

إلى من تقصد؟ إلى من؟

وأحسّت تميمه بالاختناق . هذا الشارع الضيّق القذر روائحه تُطلع إلى حلقها الغثيان ، فأسرعت في الخروج إلى الهواء الطلق .

واجهها بائع جرائد . طلبت العدد الأخير من « العصور » ، وجعلت تقرأ من جديد وهي ماشية ، كالماشي في حلم . وضرب رأسها بكتف أحدهم ، ثم برأس آخر . لم تجد نفسها إلا وهي في ساحة صيدا على مقربة من كاراج بيروت . وكلمع البرق خطر لها خاطر : المس ماري . المس ماري . كيف لم تفكّر بالمس ماري ؟

وطوت المجلة وركبت إلى بيروت .

٧

كانت ماري أبو خليل ، أو المس ماري كما يعرفها الجميع ، ممرّضة في المستشفى الأمريكي . ترجع العلاقة بين تميمه وبينها إلى سنيّ الدراسة الأولى في صيدا بالرغم من اختلاف الصفوف . ماري أكبر منها وكانت في صف أعلى من صفها . ولكنها صديقتها الحميمة، إليها وحدها كانت ترتاح وتُفضي بشؤونها ، بمطامحها ، بكل هذه الأسرار الصغيرة التي تتداعى الصبايا للهمس بها . ويا ما زارتها في المهديّه في العطلات ، تقضيان النهار قفزاً في الحقول وتنامان الليل في سرير واحد . تنامان ؟ إذا توقّفت ماري عن أخبارها . من أين تأتي بهذه الأخبار ؟ تقلّد التلميذات ، تنكّت على المعلّمين والمعلّمات ، تمثّل أدوار المغرمين والمغرمات ... لعوب ، طروب ، مزقزقة كالعصفور ، وفي غاية الذكاء والكسل ! ولم تترك المدرسة لتقصيرها . كانت تضحك لعلاماتها كما تضحك لكل شيء وتتذرّع بها لفصل آخر من فصولها الهزلية . ولكن أباها مات تاركاً أرملة وثلاث بنات هي كبراهن . فاضُّطرت إلى العمل . وفي مدى قصير من الوقت ارتقت إلى رتبة رئيسة ممرّضات في قسم الجراحة .

ماري لن تخيّبها . تكاد ترى وجهها الحلو وتتخيّل كل شيء .

قصدت رأساً إلى المستشفى .

في المستشفى هبطت تميمه . قيل لها إن المس ماري أبو خليل غائبة .

ــ ماذا ؟ في الأناضول ؟

ــ يجب أن تكون اليوم في اليونان .

رحلة من هذه الرحلات الموسمية التي تنظّمها شركات السياحة ــ هكذا فسّرت الموظفة ــ ثم أضافت :

ــ ستعود يوم الإثنين من الأسبوع المقبل . أيّ خدمة ؟

– لا شيء . لا شيء .

وخرجت تميمه .

كانت عاجزة عن التفكير . ثم فكّرت : من يضمن لها أن ماري قادرة على تسليفها مالاً وهي تعيل أرملة وولدين ؟

بالإضافة إلى نفقاتها هي .

بالاضافة إلى إيجار هذه الشقّة الجميلة التي تسكنها في شارع عبد العزيز .

جنون !

وثارت ثائرتها من جديد على جابر .

توجهت إلى كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية وطلبت مقابلة العميد . أحالها العميد بواسطة سكرتيره إلى مدير التسجيل . فذهبت إليه في مكتبه حيث انتظرت بالباب نصف ساعة خُيّل إليها أنها دهر . وسألت عن أخيها أفواج الطلاّب الذين كانوا يروحون ويجيئون في المكتب ، فلم يكن واحد منهم يعرف جابر نصّور .

وتحققت ظنونها لدى مقابلة المدير . فما أن لفظت الاسم حتى عبّس وانقلب إلى أوراقه فأخرج فيشة جابر نصّور . ثم مطّ ذقنه نحوها ليُبلغها أن جابر نصّور قدّم بالفعل في بداية السنة الدراسية طلباً للالتحاق بالكلية ومع الطلب شهادة « الموحدة » السورية . ولكن مجلس الجامعة تلقّى من لجنة الخبراء الناظرة في الشهادات أن شهادة جابر نصّور مزوّرة .

– على كلٍ أُحيلت الشهادة إلى السلطات في دمشق بواسطة وزارة الخارجية اللبنانية للتحقيق . وآسف يا آنسة لشيء آخر : لدى مجلس الجامعة ما يُثبت أن جابر نصّور هو الذي أطلق الرصاصة الأولى في التظاهرة الأخيرة . وإذا كانت الحكومة قد أفرجت عنه وعن رفاقه وأوقفت التحقيقات تحت التهديد بالإضراب العام ، فان مجلس الجامعة اتخذ قراراً بمنعه من دخول حرم الجامعة .

رجعت إلى الشارع وقد عزمت أمراً . ستركب أول سيارة إلى الحمرا وتقذف بوجه أخيها القنبلتين : خبر تامر وخبر جابر .

وإذا صوت يناديها باسمها . فالتفتت .

رمزي رعد .

– إمشي خلفي .

ومشى .

ومشت خلفه .

لا تعلم المسافة التي مشتها ولم تتبيّن الناس ولا الأشياء .

وجدت نفسها في غرفة ما ، في حيّ ما ، في لحظة ما . ورمزي رعد قد خلع نظّارتيه . يلفحها لهيبه . ينفخ في نحرها . يطوّف بأعطافها ، يلفّها من أخمص قدميها إلى أم رأسها .

فتغمض أجفانها وترتمي .

٨

– لا ! لا ! لا !

لم تصرخ صرختها إلا عندما وصل بالحميم منه إلى الحميم منها . قبل ذلك كانت كأنما تتفرّج على فِلم أو تسلك في حلم .

كان قد ألقاها على الكنبة واستلقى إلى جانبها في استراحة ماكرة ، رأسه إلى كتفها وأنفاسه إلى نهد منها يتشمّمه ، وكفّه على النهد الآخر يتذوّق ، متمهّلاً ، دفءه ويتلمّس ، مترفقاً ، حجمه وصموده وشموخ برعمه . وإذا به يهبّ فجأة وينقضّ عليها بقبلة ملء الفم ، فحاولت صدّه شأنها في المرّتين السابقتين : الأولى في بيت مدام خوري في تلك الزاوية المعتمة ، والثانية هنا في هذه الغرفة لدى دخولهما ، ولكنها هذه المرة ،

كانت ضعيفة . أحسّت انها ضعيفة وأنها لن تستطيع المقاومة .

« إذا أعطت المرأة شفتَيها فلم يبقَ لها ما تمنعه » .

أين قرأت هذا ؟

وتتذكّر أن القول كان موضوع محاورات بينها وبين بعض صاحباتها في المدرسة ، وتختلف الآراء بينهن فيه فيسألنها : « وأنت ؟ » فتلزم الصمت .

في الواقع ، ماذا تريد أن تعطي وماذا تريد أن تمنع ؟

تهرّبت من الجواب ، واستوت في جلستها :

— لو نتحدّث ؟

— عن الصعود إلى القمر ؟ !

واندفع في حضنها هبوطاً ، فرفعته عنها :

— بل عن قصيدتك .

فشال بحاجبيه واشتعلت عيناه ببريقهما الخبيث :

— أيّ قصيدة ؟

وانزلق من الكنبة إلى الحضيض ساحباً كفّيه على عطفيها فساقيها حتى أطراف قدميها ، وجثا على ركبتيه يتناول إسكربينتها من فردتيها ويخلعهما من هنا ومن ههنا ، ويهمّ بخلع جوربيها فتضرب صدره بالقدمين ، فيأخذهما في الهواء وينصرف إلى أصابعهما فركاً من فوق الجورب بأصابعه وعضاً بأسنانه . ثم يطوّق عنقه بهما ، ويُرسل يديه في ثيابها متلمساً مخارمها ومواطن الفرح في جسدها ما طالت أنامله ، وهي في استلقاءتها على الكنبة تشدّ بساقيها على أُذنيه ، وترمقه من فوق ، قد استولى عليها ، وهي منه في تلك الحال ، شعور أقرب ما يكون إلى الكبرياء . الكاتب الكبير الأستاذ رمزي رعد ! لو يرى الناس أُذنَي الكاتب الكبير الأستاذ رمزي رعد بين قدمي تميمه نصّور !

وإذا به قد وثب من مكانه وعلاها ، فأحسّت لوقوعه عليها انسحاقاً .

لحظة . وما كادت حتى صرّت بأسنانها واستجمعت قواها فدفعته بعنف لم تكن هي تتوقّعه ولا ترغب فيه ، فانقلب إلى جانبها في حرد ظاهر .

قالت ملاطفة :

ـــ قصيدتك . أهي لي حقاً ؟

لم يقل لها حتى الآن كلمة حب . وقامت إلى حقيبتها فأخرجت قصاصة المجلة ، فتناولها منها وأخذ يتلو كلماته . جلس هذه المرّة على كرسي بإزائها . فخُيّل إليها أنه ابتعد فراسخ . عاد الكاتب الكبير الأستاذ رمزي رعد ، وعاد إليها التهيّب .

كانت له في الأداء براعة الممثلّين . أوشكت أن تقولها له ، ثم عدلت غاضبة على نفسها للفكرة وسمّرت عينيها بشفتيه . ومن شفتيه إلى عينيه . إلى ذقنه . إلى جبينه . كانت الكلمات تُضفي عليه هالة من عبقر . كلا ، إنه لا يمثّل . إنه يعيش كلماته ، يعيش منها وبها ولها ، فهي لحمه ودمه ، وفيها دنياه ، وهو في الدنيا غريب .

قالت :

ـــ لو يكون الحب شِعراً ! لماذا لا يكون الحب شِعراً فقط ؟

طرح القصاصة على الحقيبة ومال فأخذ بشَعرها ملء كفّيه .

ـــ شَعرك ، كل خصلة منه قصيدة .

ولواها به على المسند يعرك بجبينه أُذنها على خصلة طائشة ، فارتعشت للدغدغة تنساب في عروقها وتغمرها منها غبطة هي غبطة الأم يعابثها طفلها . وطفل هو هكذا ـــ طفلها ـــ ودّت لو يظلّ على لعبته البريئة الحلوة . وتمدّ ذراعها إليه بحنان . فإذا الرجل فيه يستيقظ هائجاً كالوحش ، ينهض مزمجراً ، يحتملها بذراعيه ، يعصرها على صدره ، ينشب أظافره في ردفيها ويدور بها على نفسه في الغرفة دورة ، دورتين ، ثلاثاً ، ثم يرتمي بها أرضاً وينهال نهشاً :

ـــ قميصي ! تمزّق قميصي !

وطاش دماغها فهي لا ترى ولا تسمع ولا تعي شيئاً . لا تعرف الوقت الذي انقضى عليها في تلك الحال ، وانتقلت من حيث هي إلى حيث تذهب بها أفكارها قافزة فوق الحواجز ، ضاربة بين الأمكنة والحوادث والأشخاص...

حسين القمّوعي ، وهي طفلة ابنة ست أو سبع ، يرفع ثوبها عند تلك الصخرة على درب الحقول في المهديّه ويحكّ بها مُلحّاً ، يحاول طرحها على الصخرة لولا أن أطل الناطور بعصاه . تكاد ترى عصاه تصفق ظهر حسين ، وتجسّ ساقيها من وقع ما لحقها معه . ومذ ذاك لا تُطيق القمّوعي وتنجو بنفسها من نظراته .

وماري أبو خليل ، ضيفتها في المهديّه أثناء تلك العطلة . ونامتا في فراش واحد . في الثالثة عشرة كانت هي وماري أكبر منها وقد تكوّر نهداها واشرأبّا . « هاتي لأرى » قالت لها . وأخرجت لماري نهديها من القميص ، وكشفت بدورها عن باكورتين فجّتين ، قاسيتين . بل « هما كلّتان » ، قالت ماري ، « إيّاك أن يلعب بهما الصبيان ! » والصفعة التي أكلتها من ماري بين الجدّ والمزاح اذ استفاقت عليها في الليل تأخذ النهد الذي صوبها وترضعه .

وأبو الشروال على طريق المدرسة في صيدا ، ذلك الصباح وهي ذاهبة إلى المدرسة . السنة الأولى من دخولها إلى مدرسة صيدا . كانت تقيم عند خالتها . وأبو الشروال يبول في حائط أوكأنه . طلع بوجهها في المنعطف فأجفلت . أتمشي أم ترجع ؟ أم تقف مكانها ؟ فاذا به ينقلب إليها انقلابة وقد أمسك بكلتا يديه : « تعرفين ما هذا ! » ولوّح لها به وعيناه تقدحان شرراً ، فأركنت إلى الفرار . وتذكر أنها بكت طول نهارها .

— تبكين يا تميمه ؟

وانحنى رمزي رعد يلتقط بفمه عن خدّي تميمه نصّور دمعتين .

— لا شيء . لا شيء . أريد أن أروح .

فتضاحك ساخراً وعاونها على النهوض ، فمشت إلى الكنبة وأخرجت من حقيبتها منديلاً تمسح به وجهها ، ثم تنتصب بوجه الرجل وتتفرّس به بعيني حيوان مذعور .

ما هذه الفراشة اللاصقة بالسقف ؟
لعلّها « الرقيب » الذي طالما قرّعه الشعراء في قصائدهم .
إحدى « العواذل » ، ما في ذلك ريب ...
بل هما فراشتان . وها هي الأخرى تطلع من الزاوية وتلاقي أختها ، وكأنها تدعوها إلى مهمّة ، فتلبّي ، وتنطلقان معاً دوراناً في جو الغرفة من حائط إلى حائط .
أي مهمّة عجِلة هي هذه ؟
إلى أين تقصدان ؟ وعن أيّ شيء تبحثان هبوطاً وصعوداً ، شمالاً ويميناً ، وتقلباً بعضاً على بعض .
أم هو ذَكَر يطارد أُنثاه ؟
وهي ترافقهما وترافق ظلالاً لهما تقفز إلى السقف وتنزلق على الحيطان . وإذا هما ترفرفان فوقها الآن، تحكّان بشعرها ، ثم تصكّان بالمصباح الأحمر .
أحمر هو المصباح ؟
كان أبيض لدى دخولها إلى الغرفة . كيف تغيّر ؟ أم هو مصباح آخر؟ بلى ، هو مصباح الحب . سبق لها أن قرأت عنه ورأته في الروايات السينمائية على خلوات المحبّين . وهو هنا على أريكة إلى جانب السرير .
متى انتقلت من الكنبة الى السرير ؟
ترى ؟ لماذا يكون للمرأة ــ وحدها بين مخلوقات الله ــ هذا الوضع في الوصال : ظهرها إلى الأرض ووجهها إلى السماء ؟ وضع أبله ، مزرٍ حقاً هذا الوضع ، ليس فيه شيء من الكرامة . وانتفضت تريد القيام . ولكن الرجل كان قد تمكّن من وضعه ، وألزمها وضعها ــ إيّاه ! ــ

وإذا ذراعه تنساب ، وإذا أصابعه تتلمّس تحت القميص مظانّها ، يتوقف هنا ، ويقفز من هنا إلى هناك فهنالك ، وإذا هو ينحدر ، يمرّغ في ربوة أُنوثتها وجهه ، يوسعها لثماً وشماً ونفخاً ، في نشوة سرت منها في أعضاء المرأة وتوزّعت في دمائها دفعات من حمّى ، فأحسّت أنها محمولة على عربة عجيبة تمخر في بحر ، ولها خيل من أمواجه الهائجة الهادرة ، خفقات قلبها من وقع حوافرها ، ولهاثها من لهاث خيلها الراكضة اللاهثة . وقد ردّ الغطاء عليه وعليها ، فنظرت حواليها فخُيّل إليها أنها وحيدة في هذه الغرفة . وحيدة في هذه الدنيا . وهمّت بأن ترفع الغطاء ولكن يديها لم تطاوعاها . يداها ليستا منها . وإذا هو يرفع الغطاء من تلقائه وما كاد حتى علتها موجة عاتية غطّت على تلك الأمواج . وترتعد فرائصها برداً . تعرف من أين هي آتية هذه الموجة الرهيبة .

من بحار الجليد .

من المهديّه !

والسرير في ساحة المهديّه ، وتميمه نصّور على هذا السرير في ساحة المهديّه والعيون عليها من كل صوب . فهبّت كالمجنونة تريد الهرب ، ولكن رمزي رعد كان قد انتصب على قدميه دونها ، وإذا هو بادي الذكورة قاحمها ، فتداركته باليدين وأغمضت عينيها واقعة على السرير العريض الواطئ ، كل ما تذكر أنها صرخت صرخة الذبيح :

– لا ! لا ! لا !

٩

لم تعد الى المهديّه إلا مع ظهر اليوم التالي .

آمنه لا تصدّق أن تامر مهرّب ،

أن جابر لن يصير محامياً .

أما أين قضت تميمه ليلتها...

ـ عند ماري أبو خليل .

فصدّقتها الأم .

وتمادت تميمه في الكذب فقالت إن ماري وعدتها بالمبلغ لهذا الصباح ، لذلك اضطُرت إلى النوم في بيروت . وفي الصباح أبلغتها أن أمين الصندوق لم يشأ أن يسلّفها أيّ مبلغ على راتبها بحجّة أن نظام المستشفى يمنع ذلك ... فلامتها أمها على التوجّه إلى الناس بطلب المال ، وأدارت ظهرها تبتهل إلى السماء من أجل تامر . تامر مهرّب ؟!

ـ الله أكبر ! الله أكبر ! إن الله مع الصابرين إذا صبروا .

وراحت صوب المطبخ .

حينما عادت وجدت تميمه تبكي . لم ترَها مرّة تبكي هكذا . كانت تختلج بكل أعضائها وتغطّي وجهها بكفّيها وتشهق .

ـ أكلّ هذا من أجل القسط ؟ قومي . قومي انزلي إلى المدرسة وادفعيه .

وقدّمت يدها بالمبلغ .

كانت تميمه تعلم أن أُمها قد جنّبت ورقات من ذوات العشر ووضعتها تحت بلاطة في المطبخ بعيداً عن ظنّ جابر ـ « خبزها كفاف يومها وسِترها أمام الناس » . فما كادت تميمه ترى ذلك حتى ازداد شهيقها . فانحنت عليها الأم تواسيها وتسألها . فارتمت الابنة في حضنها تدفن وجهها وتردد والدموع تخنقها :

ـ لا ! لا ! لا !

هي لا تبكي من أجل هذا . ولا من أجل المدرسة . لا تريد أن تعود إلى المدرسة . ولا من أجل أبيها . ولا من أجل جابر . تبكي لأنها تريد أن تبكي .

ولم تستطع آمنه أن تهدّئ من روع تميمه إلا بعد جهد جهيد .
وقامت الأم عن ابنتها فجمعت لها ثيابها وكتبها :
– مدرستك غداً يا ابنتي . والشهادة على الأبواب .

في اللقاء الثاني الذي كان لها مع رمزي – « أحد آخر قضته عند صديقتها في بيروت » – أخبرها الصحافي أن « الصباح » تنشر في عددها المقبل رسالة من كوناكري عن قضية تتعلق بتهريب الألماس ، تحقيقاً هاماً يكشف النقاب عن تجارة من أكبر تجارات أفريقيا السرية ، وعن شبكاتها الممتدة في سواد القارة من أقصاها إلى أقصاها ، وعن الوسائل العجيبة التي يلجأ إليها المهرّبون في إخفاء الألماس ونقله عبر الحدود وتصريفه . عصابات ترتدي ، قال ، جاه المناصب الرفيعة في دول الزنوج ، ووقار الأعمال الكبيرة في أوساط المهاجرين . وإنه خيّل إليه وهو يقرأ الأسماء أن بينها اسم...
– تامر نصّور . أبي .
ولكن رمزي استدرك أن القضية ما تزال قيد النظر . ولن تظهر الأسماء في الجريدة على كل حال إلا بالأحرف الأولى بانتظار نتائج التحقيق وهو يتناول عدداً من كبار الموظفين في غينيا ومن المهاجرين العرب فيها وفي بلدان أفريقية أُخرى .
ثم ضحك بسخرية وأردف :
– سأمثل أنا أيضاً أمام المحكمة هنا ، في الوقت الذي يكون فيه أبوك ماثلاً أمام المحكمة هناك . أنا متّهم مثله بالتهريب . أُهرّب أشياء إذا لم تكن أثمن من الألماس في عيون الحاكمين فهي أخطر من الحشيشة : أفكاري .
وقال إن مذكرة جلب صدرت بحقّه على أثر مقاله بعنوان « لا » والمقالات التي أتبعها به داعياً إلى الثورة ، وإنه اقتيد الى الاستنطاق مرّتين

بتهمة التحريض على الإخلال بالأمن والنيل من هيبة السلطات .

ـ السجن أشتريه بكل ما أملك لو كنت أملك غير هذا القلم . ثلاثة أشهر على الأقل، وستة على الأكثر . لا فرق . السجن هو ، من هيكلهم، القسم الذي لم أتعرّف عليه بعد . أشكرهم على بطاقة الدعوة .

ونزع نظّارتيه . قد توقّدت عيناه بالحقد .

وتهدّلت شفته السفلى بالاحتقار .

كانت الأيام تتعاقب في المدرسة . مملّة . ثقيلة . مع أرق في الليل واضطراب بانتظار الأحد من كل أُسبوع ، موعد اللقاء مع رمزي . تقضي نهارها ذاك في بيروت ولا تطلع إلى المهديّه . واتّصل خبر غيباتها بالأم : « ماذا تعملين كل أحد في بيروت ؟ » فتتذرّع تميمه بماري أبو خليل تارة ، وبالبحث عن وظيفة تارة أُخرى . ثم تدير ظهرها .

وأهملت دروسها ، فهي ساهمة في المدرسة منعزلة . تنظر إلى كتبها ودفاترها فيُخيّل إليها أنها بقايا من الماضي ، كهذه الخرائب التي يأتي السيّاح لمشاهدتها في صيدا . حتى كان ذات يوم فإذا الحسودة اللدودة ـ إيّاها ـ تحتلّ في إحدى المباريات الأدبية المرتبة الأولى مزحزحة تميمه نصّور لأول مرّة عن المكان الذي تحتلّه صفاً بعد صف منذ سنين ، ففعل فيها الأمر فعل السوط . ولمّا جاء الموسم المنتظر ـ الامتحانات ـ فازت تميمه بالبكالوريا ، وبعلامة « جيّد » لم تكن تنتظرها بعد أن كان منها ما كان .

قضت نهارها الكبير في بيروت مع الفائزات من صفّها يعلّقن على النتائج مزقزقات ، ويقمن بدور المعزّيات الخبيثات أمام اللواتي « خانهن الحظ » . نهار استعادت فيه جو المرح المدرسي وبراءته كأطيب ما عرفته . وبلغ بها انهماكها أن كانت قد ضربت لرمزي موعداً مشروطاً ـ تلقاه إذا نجحت ـ ولكنها لم تذهب إلى الموعد .

وتخلّفت كذلك عن موعدها يوم الأحد الذي تلا . اعتكفت في المهديّه تقلّب أمورها . عليها قبل كل شيء أن تجد عملاً يمكّنها من السكن في بيروت ودخول الجامعة . وما همّها أخوها ولا أيّ مخلوق في الدنيا .

وجاءتها رسالة أُولى من رمزي – يهنّئها بفوزها – ثم ثانية يخبرها فيها بسقوطه هو في بكالوريا محكمة الجزاء . فقد مثل أمام القضاة الناظرين في دعاوى المطبوعات فامتحنوه شفهياً طول ساعتين ، بعد الخطّي في الاستنطاق ، فكانت النتيجة شهر حبس مع وقف التنفيذ . أي صفر أو ما يشبه الصفر . فإلى الدورة المقبلة .

لم تعجبها النكتة . عمره رمزي رعد لم يعرف الابتسام...

وجابر عن سَمْته لا يحيد . قصد إلى جميل الموالي ، فمدّه المهاجر العائد بألف ليرة إكراماً للصداقة بين العائلتين ووفاء للمعروف كما قال ، فهو لا ينسى استقبال تامر نصّور في غينيا والعون الذي بذله له في أول عهده بالعمل . وزاد فلم يقبل من جابر سنداً بالمبلغ ، فاستراح البيت من مشاكل جابر أياماً . ولكنها لم تطل . وإذا بجابر يدخل على أُمه ذات يوم ، يوقظها من نومها في الليل ويقول :

– أُريد أن أسافر إلى غينيا .

١٠

على أن الحدث العظيم الذي غطّى كل شيء ، وطغت أخباره على كل خبر في المهديّه وجوارها ، كان من نوع آخر .

كانت المهديّه منذ شهرين مسرحاً لأعمال ومآثر بطلها جميل الموالي . بدأ بتعبيد درب الضيعة وتزفيته على حسابه الخاص ، ودرجت على الدرب منذ أول الصيف سيارته «البويك» الخضراء ، وعلت أصوات المطارق

والأزاميل تنحت الحجارة للبيت الجديد الذي اعتزم أن يقيمه مكان بيته القديم . قصر على ما يتوقّع الناظرون ويتحدّث المتحدّثون في المهديّه . وهو يأتي كل يوم ، كل يومين على الأكثر ، من أُوتيله في بيروت فيشرف بنفسه على البناء ، بقبعة فرنجية يتنقل بها بين الفعلة مصدراً أوامره وموزّعاً سيكاراته .

ولم يكتفِ بذلك بل شرع على نفقته أيضاً بجرّ المياه على مسافة أكثر من ألفي متر إلى المهديّه . وأعلن في الجرائد عن تبرّعه لإنشاء مدرسة وتجهيزها بما يلزم . فلهجت الألسن بالمواطن الكريم والمُحسن الكبير . عدا ما يؤكّده البعض أنه قدّم إلى الفدائيين في اليوم الثاني لتخييمهم في ضاحية المهديّه شيكاً بالمبلغ المرقوم . اختلفوا على تحديد المبلغ . ولكن حسين القموعي يُقسم أنه رآه بعينيه الاثنتين : خمسة آلاف ليرة .

كانت آمنه تنظر إلى كل ذلك بغيرة كاوية .

تفكّر بتامر نصّور وتقابل بينه وبين جميل الموالي ، الولد الحافي ، أبي القميص المرقّع ، ابن نوّاف الموالي العتّال في سوق النورية في بيروت بسلّه المشدود إلى ظهره من الصباح إلى المساء . جميل الموالي يرجع من أفريقيا بعد عشر سنين بهذه الثروة وهذا العز ، وتامر نصّور ، المتعلم ، الشاعر ، ابن البيت الذي لم يعرف سلال العتالة في زمانه ، ينتهي في سجن العبيد السود بتهمة التهريب !

على أن آمنه تعود إلى تبريد غيرتها إذ تذكر لجميل الموالي أخلاقه ومواقفه . لا لأنه سلّف جابر بشهامة ما سلّف وحسب ، بل خصوصاً لأنه ، مثلها ، لا يصدّق أن تامر نصّور مهرّب .

ـ لا . لا . أنا أعرف تامر نصّور . كلّنا في غينيا نعرف . تامر نصّور شريف وأنا واثق من براءته . كلّه حسد بين أولاد العرب ووشايات .

أكّد لها ذلك .

وهي تمرّ مرّة في الأسبوع على الأقل أمام الورشة ، تحيّيه وتكرر

عليه أسئلتها فيكرر أقواله ويعلن أمام الرائح والغادي أن تامر نصّور سيخرج من السجن مرفوع الرأس .

في المرّة الأخيرة عرض خدماته ـ كثّر الله خيره ـ قال :

ـ أيّ مبلغ تحتاجينه يا ست أُم جابر للعائلة . تامر أعز من أخ كبير .
أجابت شاكرة بأن لديها من خير الله ما يكفيها مما سبق لتامر أن بعث . « وقد بعث الكثير » وخنقتها الدموع .

ماذا ؟ جميل الموالي ! جميل الموالي يطلبها للزواج ؟

وتستعيد في ذهنها حديث أُمها ونصائح جابر ـ جابر صار عنده نصائح يوزّعها على أهل البيت ـ جاءت أُم جميل الموالي وأُخته في زيارتين حتى اليوم . شاهدتهما تميمه في الأولى ترمقانها بنظرات وتوجّهان إليها كلمات . ولكنها لم تُلقِ بالاً . حملت ذلك على الملاطفة المجرّدة ، وحملت الزيارة من حيث هي على أنها ردّ لزيارة أُمها لبيت الموالي تهنئة برجوع ابنهم من غينيا . وها هما في الزيارة الثانية ـ كانت هي غائبة في بيروت ـ تطلبان يدها .

أين رآها جميل الموالي ؟

ماذا يعرف عنها جميل الموالي ؟

ماذا تعرف عنه ؟

ربّما رآها تمر أمام ورشته . هي لمحته لمحات . لم توجّه إليه كلمة . كل ما تعرفه عن جميل الموالي قبعته ذات الرفاريف ، ولون وجهه الأسود ـ أسود أسود ـ كأنه يحمل أفريقيا على وجهه .

مشاريعه في المهديّه ـ عظيم ! عظيم ! يستحقّ عليها وساماً .

لا تريد أن تكون هذا الوسام .

إلا إذا كان بيت الموالي وبيت نصّور يريدان أن يعقدا عليها صفقة من صفقات الزمان الذي كان . جابر ينوي بيعها ، ما في ذلك شك .

باعها — بالتقسيط . ألف ليرة قسطاً أول . وألف آخر يعتزم التقدم بطلبه . والحبل على الجرار .

أمها ! مسكينة أمها ! لم تقل شيئاً . كل ما قالته إن جميل الموالي آدمي — آدمي ابن أوادم — لم تذكر حتى غناه أو تشير إلى جاهه . بلى ، قالت أيضاً إنه ينبغي أن يكون في الأربعين من عمره : «كبير على تميمه» .

فصرخ جابر :

— كبير في كل شيء . بنتك لازم لها كبير ليكسر رأسها .

ورفع يده على أخته .

أدارت تميمه ظهرها ومشت إلى الوادي .

١١

كانت الشمس تميل إلى المغيب فجلست على صخر هناك تألفه منذ الطفولة . كانت تتردد إلى ذلك المكان لا لخضرة فيه أو ظل ، فقد كان تراباً أغبر لولا شجرتان وبضع نبتات بريّة ، وكثيباً موحشاً لولا إطلاله على البحر . ولكنها كانت تجد نفسها فيه وتلملم أفكارها وذكرياتها في منجى من نقّ أمها ودجاجاتها .

كان في يدها كتاب «أرباب وعبيد» ، حملته معها لا لتقرأ فيه بل لتقلّب مرّة أخرى رسائل رمزي إليها وكانت تضعها بين دفّتيه . وبدون وعي ضمّت إليها رسالة هاني الراعي ، رسالة تلقّتها اليوم من دير المطلّ . وفجأة تنبهت للأمر فتناولتها ودسّتها في عبّها . وفتحت الرسائل الأخرى :

«عندما ضممتك لأول مرّة خُيّل إلي أنني لم أضم في حياتي امرأة قط . كنت واثقاً أنك ستسبقينني إلى تلك الزاوية . هل اتفقنا عليها وعلى الساعة والدقيقة ؟

ذلك أنك لست ـ كغيرك من النساء ـ صدى الصوت الصارخ في البرّية ، بل الصوت الآخر الصارخ فيها . حوار نلتقي عليه ذراعين بذراعين وفماً بفم . وتموت بيننا براري الأرض . »

« الحب هو كل شيء .

سلي أطيار السماء مَن علّمها الحب . سلي غزلان الفلوات . وسلي الزهرة ترشق أترابها بالطّلْع . يميناً ويساراً ترشقه ، يقع حيث يقع ، ويعقد حيث يعلق .

أمّا ما في الحب من بشاعات فمن صنع الشرائع والتقاليد التي قيّدته باسم المحافظة على قدسيته .

قدسيته الوحيدة : الحرية . »

« هل تعلمين ما عنوان كتابي الجديد ؟

ليس في الكون حلال وحرام . ليس في ناموس الطبيعة ، سمائها وأرضها ، كواكبها وحشراتها . أزهارها وأشواكها ، عواصفها وأنسامها ، تحليل ولا تحريم .

الثورة المقبلة في العالم هي ثورة الإنسان على الأكاذيب والأوهام والطلاسم التي جعلت منه مِسخاً . ليمزّقها كلّها . ليستوي عارياً في الكون العاري وحراً في الكون الحر .

لذلك سيكون عنوان كتابي الجديد : « الحرية هي أنا » ... »

أطبقت الكتاب على هذه الأوراق وأرسلت أنظارها في الأفق .

كانت الدنيا قد أدغشت ، فلمحت عن بعد شخصين يسلكان قافزين بين مزارع التبغ التي تغطّي تلك الناحية فما تزيدها إلا كآبة . إثنان من الفدائيين . بل هو حسين القمّوعي مع واحد منهم ، بانتظار أن يتمنطق

هو الآخر بالكليشنكوف ويرتدي البذلة المرقّطة . أما يملأ الضيعة بالخطابات عن الفدائيين وبطولاتهم وينعت المختار بالخائن لأنـــه طلب إلى قائدهم الابتعاد بهم عن الأمكنة الآهلة ؟

حتى أم حسين ! لمّت الضيعة على صراخها إذ أنزل حسين صديقاً له منهم في البيت . ولكنها لم تلبث أن غيّرت رأيها . وها هي منهمكة نهارها وليلها بشؤونهم والسلّة لا تفارق كوعها . تقول إنها تجلب لهم من أسواق صور ما لا يجدونه في المهديّه . لا أحد في المهديّه يصدّق . كلّهم يعرفون أُم حسين ويراهنون على سلّتها — فارغة !

ولكن ، ماذا جاء الفدائيون يعملون هنا والمهديّه تبعد عن إسرائيل عشرين كيلومتراً ؟

وتنبّهت تميمه فإذا حسين فجأة بوجهها ، قد ترك صاحبه يتابع سبيله وارتدّ إليها متذرعاً بالسؤال عن جابر أين هو فهو لم يرَه منذ مدة .

— تعرف أحسن مني أين جابر .

ووضعت رأسها في الكتاب . فسألها عن رأيها في الفدائيين فأجابت أن ليس لها رأي . فعاد إلى سيرة جابر . جابر لديه مشروعان عظيمان ، قال ، أحدهما الانخراط في صفوف الفدائيين ، والآخر لم يبح به ... »

— قلت لك أنت أعرف مني بجابر ومشاريعه .

وتهيّأت للقيام . فإذا هو يدنو منها دِنوة وبذراعيه الاثنتين يطبق عليها ويغصبها على فمها قبلة ، مع بَخَر له وفحيح ، فوضعت كوعها في صدره وقذفته ، وبكل أثقال مقتها أهوت عليه بصفعة مدوّية .

لم ينبس حسين القمّوعي بحرف . إنتصب إزاءها وقهقه عالياً ثم أدار ظهره . وما كاد حتى انفجرت بالبكاء .

غرّد عصفور على مقربة منها
هنا ، في البطمة ، أبو الحنّ يكرّ بألحانه كرّة ويسكت

كأنه في سكوته ينتظر
يعود إلى كرّة أخرى ويسكت
وثالثة يمدّ بها صوته مدّاً بعيداً، متواصلاً، ملهوفاً
عمّن يسأل؟ أيّ شيء أضاع؟
وهو يلحّ في وجه السماء - السماء خرساء
والأرض قفر
فينقضّ في الوادي...

- ترى، من يحكي سرّ العصافير؟ من يقول أعراسها ومآسيها؟!..

١٢

عيل صبر جابر. أوشك الصيف أن ينقضي بعد الربيع. فصلان لم يصل خلالهما شيء من أبيه. لا بدّ من السفر، لا بدّ. ولكن كيف؟ طرق كل الأبواب لتدبير ثمن التذكرة على الأقل فعاد بالخيبة. حتى جميل الموالي اعتذر بعد أن كان ما كان من رفض تميمه. ولم يكتفِ حتى طالب جابر بسلفة الألف ليرة بحجّة الحاجة لما هو فيه من ورشة البناء.

- أكتبي لأبيك يا تميمه واسأليه.

تقولها الأم لابنتها للمرّة العاشرة. «كتب جابر». الأمر يعني جابر. ولا من مجيب. ألم يقل جماعة أفريقيا إن السجناء في قضية التهريب ممنوعون أن يتّصلوا بأحد أو يتّصل بهم أحد حتى بالمراسلة؟

أغلقت باب غرفتها وأخذت ورقة وقلماً وكتبت:

«السيد هاني

تأخّرت عليك في الجواب.

أنا أيضاً لا يمكن أن أنسى . كيف أشكر لك تهنئتك بنجاحي في البكالوريا ؟ كيف أشكر لك خصوصاً ما فعلته معي من قبل ؟ كل ما أستطيع قوله إنك عاملتني كأخت كما أعلنت أنت . ولكن الأخت لا يختارها أحد . تفرض نفسها كما يفرض الأخوة أنفسهم . ولم أُعاملك أنا بما ينبغي للأخت أن تفعل .

ولكن لا . لست أخي . أبعد من ذلك أنت وأقرب .

منذ يوم الحجر توالت عليّ أحداث كثيرة . أحجار كثيرة أصابتني . ألمها مختلف جداً ، وما همّني الألم ، وإنما أثرها هو الذي يهمّني .

لا يسعني أن افصح لك أكثر من هذا . ولا تُلحّ . عِدني بأنك لن تُلحّ إذا التقينا .

كيف كانت رحلتك إلى ليبيا ؟ وصلتني بطاقتك منها . لماذا اخترتها تمثل المرأة الليبية وراء هذا الحجاب الذي يكمّ فمها ؟ صدّقني . المرأة عندنا — في بعض مناطقنا على الأقل — حتى بعد نزع الحجاب عن عينيها ليست أحسن حالاً . الحجاب السميك هو على روحها .

ما أزال في المهديّه أعدّ الأيام للنزول إلى بيروت والالتحاق بالجامعة اللبنانية ، دار المعلمين والمعلمات .

هل من الممكن أن أراك قبل تشرين ؟ إنني أختنق في الضيعة .

حاشية : حسيب الدرويش بن أحمد الملقّب بالمبيّض ، من النبطية ؟

لا . لا أعرفه . ولكني أتمنى لك التوفيق في مسعاك من كل قلبي . »

تميمه نصّور

لم يعتّم جابر أن وجد لنفسه المخرج بالرغم من معارضة أُمه — تميمه سكتت — في جيبه التوكيل العام من أبيه ، فرهن البيت بما دفع به أجرة السفر وسافر...

وبعد ظهر ذلك اليوم — السادس والعشرين من أيلول ١٩٦٨ — انقلبت

الأم إلى غرفة جابر في بيت روز خوري تضبّ على أمتعته لنقلها إلى المهديّه وتشمّ رائحة ابنها حيث كان ينام ويقوم ، ورافقتها تميمه .

وامتدّ حديث الست روز فشمل الجميع : تامر نصّور – حسناً فعل جابر بالسفر ليكون إلى جانب أبيه . رمزي رعد – دخل السجن في الأسبوع الماضي .

– عفوا عنه المرّة الأولى . ما كل مرّة تسلم الجرّة . عاد يسبّ الحكومة أكثر وأكثر . تصوّري أن الأستاذ أكرم الجردي ، أكبر محام في البلد ، تطوّع للدفاع عنه فرفض . يريد أن يدافع عن نفسه بنفسه ، قال . الجرائد والقصائد لا تنفع في المحاكم .

سكتت تميمه .

– زوّاره كلّهم حكّام وعظماء . والهدايا لا تنقطع .

ثم :

– وأنت يا مدموزيل تميمه ؟

أجفلت تميمه للسؤال . ولكن الست روز بادرت إلى الإيضاح . تريد أن تعرف ما مشاريع المدموزيل تميمه بعد سفر جابر – « من غير شر » – وحصولها – « اسم الله » – على البكالوريا .

أجابت تميمه أنها ستنتقل إلى بيروت لدخول الجامعة . ولكن عليها من أجل ذلك أن تدبّر وظيفة إلى جانب دروسها بانتظار الفرج من أفريقيا .

فهتفت الست روز :

– غرفة جابر على اسمك منذ اليوم . والوظيفة عليّ .

الحلقة الثانية

«في دمي رقصة القالس
وفي عظامي عويل كربلاء»

محمد الماغوط

١

صيف روز خوري كان منحوساً هذه السنة .

فاتتها أفواج أثرياء العرب ، وكانت تعلّق عليهم آمالها في هذا الموسم لاستكمال ما هي في حاجة إليه لرفع عمارتها – ليلة واحدهم بألف ليرة – ذلك أن الصيف ما كاد يبدأ وتظهر طلائعهم حتى أطل شرطة الآداب وشنّوا على الحمرا حملة أدّت إلى إقفال عدّة بيوت . وكبسوا بيتها مرّة ثم مرّة أُخرى . طبعاً عادوا مكسوفين . فروز ليست حديثة عهد بالكار ولها بين الجماعة أصدقاء وحماة ، هم الذين نبّهوها . « التعليمات مشدّدة ، قالوا ، والمفتّشون وجوه مقيتة » .

وجلال الكرش يطلع كل يوم ويعرض عروضه . الكرش لا يفكّر إلا بنفسه . منشار يأكل طالعاً نازلاً منها ومن البنات ومن الزبائن ، فضلاً عمّا يحطّ في جيبه من أثمان الطعام والشراب في الليالي العامرة .

على أيّ شيء يخاف الكرش ؟ أمّا هي فغير مستعدة للمجازفة بسمعة بيتها . ستنتظر إلى أن تهدأ الحال . كلّما جاء وزير جديد دقّ طبل الفضيلة – « عند تغيّر الدول احفظ رأسك » – وتقتل وقتها بالتي هي أحسن إلى أن يمنّ الله بالفرج .

كانت تخرج يوماً أو يومين في الأسبوع في تكسي من تكسياتها لنزهة إلى الجبال أو على شاطئ البحر صوب صيدا أو صوب طرابلس ، وزنّوب

إلى جانبها . وفيما عدا ذلك تبقى في البيت تنقّل أزرار الراديو ، وفي المساء تأنس إلى التلفزيون .

وربّما عاودتها في وحشتها أفكار لها وعزائم . تتخيّل نفسها ، بعد البناية الجديدة ، وقد صارت إلى ريَع نظامي يكفل لها عيشاً هنيئاً مع سيارة خصوصية – « الفاروميو » – تقف على الباب... فما لها بعد ذلك ، بل منذ اليوم إذا شاءت ، وهذه المشاكل كلّها !

سيدة محترمة ستقضي بقية عمرها .

بل امرأة بسيطة . بسيطة كما كانت أمها الخورية .

وتسترضي أباها الخوري في قبره ، فتعود إلى حضور القداس كل أحد وكل عيد وتضع إحسانها في صينيّة الكنيسة خمس ليرات تكفيراً عن ماضيها .

أكثر من ذلك . ستتبنّى زنّوب .

ليس لها هي من الأهل إلا ابن عم في أميركا .

وستكون زنّوب موضوع حبّها وحنانها . ستجعلها في غرفة خاصة بالقرب من غرفتها وتأتي لها بمعلّم يدرّسها في البيت . ستجعل منها عكّازها في الشيخوخة ووارثتها بعد عمر طويل .

وتغمر السعادة روز لساعات وتبكي بكاءً حلواً .

على أنها ما تلبث أن تستفيق من أحلامها إذ تفكّر بأن البناية ما زال يلزمها الكثير . فتعطي نفسها مهلة أُخرى . سنة ، سنتين على الأكثر . تتناول حبّة من حبوبها ثم تمسح دمعها وتقوم...

إلى أن كان اليوم الذي أطلّت فيه تميمه نصّور بحقائبها .

٢

لم تجد تميمه لزوماً لسؤال رمزي في سكنها ، فقد كان ذلك أمراً مفهوماً . ثم إنها كانت تحذر التردد على السجن . ذهبت يوماً فتفتّحت عليها العيون وسمعت في ظهرها تهامساً .

على أنها لم تتمالك نفسها طويلاً . بعد بضعة أيام قامت بالزيارة الثانية . فأصغى إليها بشيء من الذهول . قال :

– متى نكون تحت سقف واحد ؟

وأضاءت في عينيه تلك الشرارات . لحظة ثم خبَت . كان خائر القوى وقد مالت صفرته إلى بياض مريب .

وهمّت باستشارته بما يشغل بالها : البحث عن وظيفة . ثم لم تقل شيئاً . وخرجت .

انصرفت إلى تتبّع الإعلانات في الجرائد وقصدت إلى أكثر من واحدة من هذه المؤسسات التي تطلب « آنسة تحسن كذا وكذا » فلم تجد ضالّتها . ثم خطر لها خاطر فوضعت بدورها في جريدة « الصباح » إعلاناً عن استعدادها لإعطاء دروس خصوصية في البيوت بالعربية والانكليزية .

وكتبت إلى دير المطلّ تخبر هاني الراعي بانتقالها إلى بيروت ، ولم تنسَ أن تسأله عن مصير ابن النبطية حسيب بن أحمد درويش الملقّب بالمبيِّض .

لم تتناول الرسالة التي وجّهها هاني الراعي إلى تميمه نصّور على أثر فوزها بالبكالوريا إلا طرفاً من حدَث عظيم كان يقيم دير المطلّ ويقعدها شاقاً أهاليها إلى حزبين ، هاني الراعي على رأس أحدهما ، والمختار على رأس الآخر .

« مسلم يربّي أولادنا ! » – تلك كانت صرخة المعارضين – ومبيِّض فوق المسلم ، « شهادته شرواله المعلّق بالسنديانة ! »

والمسلم المبيِّض حسيب بن أحمد درويش هو المعلّم الآخر الذي عيّنته وزارة التربية الوطنية لمدرسة دير المطلّ الرسمية بعد أن لاقت في السنة المنصرمة الإقبال الذي لاقته ، فمسَّت الحاجة فيها إلى معلّمَين اثنين في الموسم الدراسي الآتي بدلاً من معلّم واحد .

كانت دير المطلّ في الواقع للموارنة منذ قديم الزمان ، لم تعرف المحمّديين إلا في عهد الأتراك ، وهي تحفظ عنهم ذكريات ما تزال أصداؤها تتردّد في نفوس المعمّرين . ويروح المختار ، وهو من هذه البقية الباقية ، يُعيد على الأسماع أخبار الأهوال التي تعرّضت لها دير المطلّ في ذلك العهد ، فيجمع أنصاره في دكانه كل مساء وينبشون الماضي .

يرجع ذلك إلى سنة ١٩١٤ عندما دخلت الجيوش التركية جبل لبنان خارقة امتيازاته . فقد نزلت شرذمة منها في دير المطلّ وعاث أفرادها في البيوت نهباً وغصباً ، وداسوا حرمة الدير فجعلوا من الكنيسة اسطبلاً لخيولهم . وجاء رئيس الدير القسّ شعيا الجزّيني محتجاً ، طالباً من ضابطهم حكمت بك إخلاء الكنيسة من الحيوانات ، فاستهزأ به . فرجا أن يأمر جنوده على الأقل بنزع صورة العذراء من فوق المذبح وتسليمها إليه ، فأجابه الضابط : « إنتظر ! » ومشى على مرأى منه إلى المذبح فاعتلاه وسلّ سيفه فطعن العذراء ناعتاً إياها بكل ما في القاموس التركي العسكري من نعوت ، وانثنى إلى جنوده فأمرهم فجرجروا الكاهن في ساحة الكنيسة وبصقوا في لحيته . وصاح به حكمت بك :

– رُح وخبّر .

لملم القسّ شعيا نفسه وراح ، ولم يخبّر أحداً .

ولكن الأتراك أفاقوا صباح اليوم التالي على ضابطهم حكمت بك قتيلاً عـلى درج منزله بأربع رصاصات من مارتينة... وقامت القيامة

تحرّياً عن القاتل وانصبّ غضب العسكر على الرهبان وأهالي دير المطلّ اضطهاداً وتفظيعاً . إختفى الجزيني أبو الطاقيّة . بلعته الأرض . كانوا يلقّبون القسّ شعيا بالجزّيني أبي الطاقيّة لأن أصله من جزين ولأنه كان يعتمر طاقيّته منحنية فوق أذنه متأنّقاً في ذلك تأنّق القبضايات في حني الطربوش .

أربع سنين لم يظهر له أثر .

فلمّا انتهت الحرب وغادر الأتراك البلاد فتح أهالي دير المطلّ عيونهم فإذا الجزيني أبي الطاقيّة في ديره ! وعاش بقية حياته على سرد مغامرته للناس .

ويترحّم المختار ألف مرّة على الجزيني أبي الطاقيّة . أين منه رئيس الدير الحالي الأب أندره – «أبو الشورت المزدوج في اسمه ولحيته» – لاعناً هذه الأيام التي يسوق فيها الكهنة السيارات ويكتبون في الجرائد . فقد كان الأب أندره من أنصار هاني الداعين علناً الى التأهيل بالمعلّم الجديد . ويشبر المختار على ذقنه ويحلف بمريم العذراء أن هذا لن يصير والسماء زرقاء .

– سأكسر رأس هذا الولد الأرعن هاني بن طنوس ابن راعي الغنم وأنتف لحية صاحبه وألحِّق حسبو بأبيه المبيِّض في قبره !

وكان حسيب المبيِّض معروفاً بحسبو . وأبوه ، أبو حسبو ، لم تنسَه نساء دير المطلّ وجوارها – المسألة لم ينقضِ عليها عشر سنين – فقد كنّ ينتظرنه من موسم إلى موسم ، يجمعن له الطناجر والصواني لتبييضها ، ولا يدخل دير المطلّ من المبيّضين إلا أبو حسبو ، ينزل في ساحة الدير مع ابنه – إياه – فيجعل من السنديانة مأواه ، حصيرة في حضنها لنومه مع حسبو وأُخرى ينصبها باباً . وكان حسبو في الحادية أو الثانية عشرة من عمره ، لم ينسَ هاني ، هو أيضاً ، كيف كان يؤلّب رفاقه حول السنديانة ليتفرّجوا على حسبو وهو يفتل بشرواله مبيّضاً الآنية التي يعهد بها إليه

أبوه ، فيما يبيّض أبو حسبو الدسوت الكبيرة والحلاقين .

وما كادت الحكومة تستجيب لطلب الأهالي بتعيين معلّم ثانٍ للمدرسة حتى فوجئ هاني في عرزاله ، صبيحة يوم من هذا الشهر — أيلول — وهو يقضيه كل صيف في الكرم ، بشاب ظريف الهندام يُقبل إليه من صوب الضيعة ويستأذنه في الكلام . لم يعرفه لأول وهلة ، فذكّره الزائر بحكاية طنجرة صغيرة حملها صبيّ قبل عشر سنين إلى صبيّ ابن مبيِّض ، هنا في دير المطلّ تحت سنديانة الدير ، وطلب منه أن يبيِّضها فخوراً بأنها طنجرته وبأنها ، بين جميع الطناجر ، وحدها تحمل اسمه محفوراً مع تاريخ ولادته . وقلّبها مشيراً بإصبعه : « هاني ١٩٤٥ » . ولكن الآخر لم يكن يعرف القراءة .

— حسبو ! (هتف هاني) .

وسأله حسبو هل تقبل به دير المطلّ معلّماً في مدرستها .

كيف تعلّم حسبو ؟

أين درس حسبو حتى صار معلّماً ؟

أسطورة ينبغي سماعها منه .

وهاني يُنزله ضيفاً عليه ريثما تنقضي العطلة ، يصحبه بقية الصيف متردداً بين البيت والعرزال ، ويدور به في الضيعة على جماعته وقد أصبحوا الأكثرية بعد أن قال رئيس الدير كلمته .

على أن الأب أندره ، في تسامحه المسيحي إزاء المعلّم المسلم ، وفي تعصّبه السياسي ضد المختار ، فضلاً عن خلافه معه على أملاك الدير ، لم يلبث أن لجأ إلى وسيلة فذّة : ألقى عظة في أخوية قلب يسوع « طالب فيها بتأليف وفد من أعضاء الأخوية لشكر الحكومة على قرارها » . — زادها المحترم ، قال الحياديون . واغتنمها المختار فرصة لمحاربة الكاهن بسلاحه فألّف وفداً برفع إهانة قلب يسوع إلى رئيس الرهبنة ! ولكن الأب أندره كان قد سبقه فاستأذن الرئيس العام في إقامة الدعوى على آكل

أملاك الدير عن طريق التزوير في دفاتر المخترة... فيما كان الطائفون بالعرائض، مع المعلّم وضد المعلّم، يجمعون تواقيع المؤيدين والمعارضين، ووصلوا بها إلى «القندول» و «المرج» وإلى القرى البعيدة. أمّا القندول، وكلّها من الدروز، فحرصوا على الحياد بناء على دعوة عقّالهم لم يشذّ منهم إلا أربعة من أهل الطيش معروفون بانتمائهم إلى حزب ممنوع، وأمّا أهالي المرج، وهم روم أرثوذكس مع عائلتين بروتستانت، فصبّوا كلّهم مع هاني...

وكان الأمر إلى هذا الحد هيناً والزحام في نظر هاني شائقاً لو لم يزر دير المطلّ نائب المنطقة بدعوة من المختار، وفي اليوم التالي للزيارة يتصدّى مجهول للمعلّم على درب الكروم ويشجّ رأسه بالعصا طالباً منه أن يعود من حيث أتى، إلى النبطية. يبيّض النحاس – «مؤامرة» لم تخفَ على هاني ولا على حليفه الأب أندره. «يولعون النار لحمل الحكومة على سحب المعلّم وتعيين سواه.» ولكنهما تلقّياها بالستر والدهاء: كمّ هاني فم حسيب المبيّض عن ذكر أي شيء مما وقع له، ونقله الأبونا إلى ديره وأسكنه بين رهبانه.

٣

كانت الست روز تنظر إلى انهماك تميمه بالبحث عن وظيفة بلهفة الكارهة لأي وظيفة تأتي على غير يدها. البك – كانت تؤكد لها وتكرر – الأستاذ الكبير أكرم بك الجردي هو الذي سيجد لها ما تريده. وهي تنتظر عودته من البقاع – «طوّل الغيبة هذه المرّة!» – لتجمعها به. وتتلفن كل يوم إلى مكتبه.

ذات صباح دخلت على تميمه في غرفتها متهلّلة.

– السبت يتعشّى البك عندي ، وتكونين معنا .

انقضى نهار السبت في إعداد المأدبة . رأت روز أن تقام في غرفة الضيافة ذات الرياش الثمين فانصرفت إلى ترتيبها للمناسبة . أمرت بنقل الطاولة من الدار إلى الغرفة وفرشت عليها غطاء مخرّماً – شغل اللعازرية كلّفها المبلغ المرقوم – وصفّت الكراسي الثلاثة وأواني الطعام والشراب . وأبت على تميمه أن تمدّ يدها إلى أي عمل من كل ذلك . ولكنها تقبل منها بطيبة خاطر المعاونة في تحضير التبّولة ، وأخذت بذراعها إلى المطبخ وتبعتهما زنّوب ، فيما كان الكرش يغدو ويروح ، يشتري المقدّدات والمملّحات وأصناف المقبّلات من السوق . وروز لا تبيع فرحتها لأحد :

– البك وطني مخلص لا يشرب إلا العرق الزحلاوي !

تأخّر .

والمراسم المتخذة لمجيئه تتوالى . تلفون للست روز ، وآخر لجلال الكرش ، مع إطلالات من الخادمة على الطريق لاحظت تميمه أن زنّوب ذات مران فيها ، فساورتها الهواجس .

سبق لها أن شاهدت الرجل مرّة . خطفاً . يوم جاءت مع أُمها لنقل أمتعة جابر إلى المهديّه . كان في الدار يتناول القهوة فقدّمتها روز إليه وهي تهمّ بحبّة من حبوبها . وعضّت الحبّة ومضت في لعن الأطباء بما تخصّهم به من ألفاظ تطفر على لسانها من لغتها الشمالية القديمة . فضحك الأستاذ الكبير .

كانت له ضحكة كرّارة ، موقّعة توقيعاً – ضحكة المحامين – ومع الضحكة يرتقص خدّان له مترهّلان ، وتلمع عينان في وقبيهما احمرار ، خلف حاجبين كثيفين بشعر نافر . عمره؟ فوق الأربعين . ذو قيافة . تذكر تميمه جيداً قميصه الحريري الناصع وكرافته الكحلية المعقودة بأناقة .

بهذه الهيئة الحسنة دخل أكرم الجردي، مع نضرة في وجهه الحليق حديثاً ومرح ظاهر . وفور جلوسه إلى المائدة انصرف يهيّئ شرابه على طريقته .

كانت روز قد أحضرت له العدّة . تناول قنينة العرق وصبّ منها في إبريق من البلّور ثم صبّ فوق العرق ماء - بمقدار كان يزنه بعينيه ويرفع الإبريق ليرى إلى لون المزيج - ثم غرّق الإبريق في سطل الثلج وجعل يديره فيه بأطراف أصابعه ، وهو في أثناء ذلك يرمق تميمه وكأنه يدعوها إلى الإعجاب بما يصنع . على أنه لم ينتظرها فانطلق في شرح ما سمّاه « فن الشراب » ، وأدنى قدحاً صغيراً أشبه بالكشتبان فملأه وملأ « للآنسة تميمه » مثله . فاعتذرت . فألحّت روز ، وتشجيعاً ملأت لنفسها قدحاً .

كان أكرم الجردي يكرع كشتبانه دفعة واحدة ثم يضحك ضحكته . يُفرط في الشراب وفي الطعام على السواء ، ولا يني يتحدث . أدار الكلام في البداية على تميمه فسألها عن بعض شأنها ، ثم انقلب الى السياسة ، همّه الأكبر على ما بدا لتميمه .

علمت من الحديث أنه يطمح إلى النيابة .

قال إن له من الشباب المثقف في البقاع ومن أنصاره بين الفلاحين ما يأمل معه أن يتغلّب على الزعامة الإقطاعية التي تتحكم منذ أجيال بالمنطقة ، ولن ينثني حتى يحتلّ الكرسي الذي ورثه شوكت بك اليغموري عن أبيه ، عن عمّه ، عن الجدّ الذي كان عضواً في مجلس المبعوثان في العهد العثماني .

حلا الحديث لتميمه فاشتركت فيه وطارحت المحامي الرأي في الزعامات الإقطاعية المتخلّفة في بعض مناطق البلاد - منطقتها من الجملة - كانت تخاطبه بالأستاذ وتخاطبه روز بالبك المفخّمة . قال متضاحكاً :

- أنا ضد البكوات يا ست روز . تعرفين أني ضد البكوات . الأستاذ وبس . وأفضّل أكرم برفع الكلفة .

والتفت إلى تميمه .

فهتفت روز :

- بك ونص ! البكوات أحسن منك يا بك ؟!

وأثنى الأستاذ الجردي على أفكار تميمه، لولا أنه أكثر من طرح الأسئلة

على أثر سماعها – «كأنه في دعوى هو وكيل الخصم فيها» – ثم يقطع الأسئلة ليعود إلى اليغموريين ومشاكل له معهم قديمة وحديثة، يرصّع كل ذلك بنوادر يضحك لها ضحكته ويكرع كشتبانه.

طال العشاء.

قامت روز مراراً بحجّة أشياء وأشياء. تتلكّأ في العودة عن سابق تصوّر وتصميم ثم تدخل فترى كل شيء على حاله. بالعكس، لاحظت في المرّة الأخيرة أن تميمه أبعدت كرسيّها عن المائدة وجعلت بينها وبين البك مسافة لم تكن من قبل، وانقطع البك عن الضحك.

وما هي إلا أن أبدى رغبته في الانصراف، مؤكداً «على كل حال» أنه سيُعير الوظيفة اهتمامه.

ولكن تميمه بقيت محافظة على هدوئها. كل ما كان أن الرجل ألقى يده على كتفها في غياب روز، لم يلفظ كلمة نابية ولم يأتِ أمراً إدّاً. عيناه فقط برقتا بأبعد من الشراب، فحرصت على ردّ البريق. لذلك كانت هي التي قطعت الصمت فجعلت تعتذر عن إزعاجه بشأن ما طلبت، وكررت أن نوع الوظيفة لا يهمّ شرط أن تأذن لها بمتابعة تحصيلها الجامعي. فاستبقته روز بالجواب وطمّنت تميمه أن كل شيء سيكون على خاطرها. ومشت إلى الباب تشيّعه. وتميمه وراءها قد رأت جيداً إصبع روز يرتفع له بإشارة تؤجّل شيئاً ما إلى ما بعد.

٤

مكتبة انطوان – باب ادريس. وتميمه تقلّب في المجلات بانتظار هاني كان قد ضرب لها الموعد في جوابه. بادرها لدى وصوله:

– الحقّ على العطلة وعلى الطلاب. لم يتظاهروا منذ زمان ولا

ضرب أزعر بحجر .

فضحكت من قلبها . ما أشدّ ما كانت تحتاج إلى الضحك ! واستدارت حتى واجهته لترى ابتسامة عينيه . ثم مشت إلى الصندوق فألقت بثمن كدسة من المجلات وخرجت تعرض عليه نزهة على البحر . وإذ همّت بمناداة تكسي قال :

– بل تدشّنين سيارتي .

وضرب بيده إلى جيبه فأخرج مفتاحاً وسبقها بقامته المديدة إلى حيث كان قد أوقف سيارته :

– أتركبين مع هذا الرأسمالي ؟

وعقد حاجبيه مزهوّاً : « فيات ١٢٥ » هدية من أبيه ، قال ، جاءت على جناح البرق ، اتفق عليها مع أبيه في ليبيا – ليبيا لا تُطاق في الصيف لم يُقم فيها سوى شهر – آخر موديلات فيات . أما لونها فموصى عليه : نسخة طبق الأصل عن لون زيتون دير المطلّ في موسم القطاف .

ومفاجأة . لأنه كان ينتظرها في آخر السنة الدراسية بعد الفوز بالشهادة . هكذا كان وعد أبيه .

– صدق الوعد حتى الكذب . أليس عظيماً كذب الوعود بهذا الشكل ؟ بقي وعدي أنا : الشهادة . معلّقة بذَنَب الحالة في الجامعات هذه السنة . تقرأين الجرائد ؟ تهيّئنا لتشرين حافل . تشرين لبنان بعد أيار فرنسا .

إنطلقا في السيارة يقودها مداعباً المقود وهي إلى جانبه .

إلى أين ؟ – خلده ؟ – جونيه ؟

إلى حيث تريد ، بل إلى حيث يريد هو . كان النهار جميلاً . وما هي إلا لحظات حتى غمرت تميمه بهجة الحياة . أهي من فوح هذه السيارة الجديدة الحلوة ، أم من هذه الأنسام الخريفية العذبة التي تهبّ من صوب البحر ، أم من أنفاسه كلّما التفت إليها ؟ كانت تُحسّ قلبها يرفرف بين

أضلاعها كالعصفور خفيفاً ، طروباً ، حرّاً ، يطير مع الفيات الطائرة في سباق إلى أرض المجهول .

وهاني يتكلم عن كل شيء . عن السيارة . عن الجامعة . عن ثورة الطلاب في العالم . « جنون ؟ — طبعاً . أكثره جنون . ولكنّ وراء هذا الجنون انقلاباً عظيماً . إنه كفر بالقيم التي آمن بها الناس حتى اليوم وقدّسوها . تمرّد على كل سلطة . رفض لكل مبدأ . تحطيم لكل شيء ... في سبيل أي شيء؟ لا أحد يعلم... » وعن الحالة في لبنان والسياسة في العالم ، وعن حرب حزيران وما كشفت من عوراتنا نحن العرب ، ومن مهاوٍ بين ألسنتنا وأيدينا ، « بين مطارحنا على الأرض وركب التاريخ الصاعد إلى الكواكب » .

— إسرائيل هي الكابوس رقم ١ . التحدّي الأكبر . الآفة الجديدة من آفات التوراة الأسطورية .

في اليوم التالي قصدا إلى الريفييرا للاستحمام .

قالت إنها تحب البحر .

وقال انه يحب الجبل .

— في الجبل أستحم بعطر الأرض .

ثم عاد الى الثورة التي يدعون الطلاب إليها . الداعية الأكبر رمزي رعد . سمّاه . هي لم تتعرّض لذكر أحد . تصدّى لمقالاته في « العصور » وفي « الصباح » وإلى كتابه « أرباب وعبيد » . « فوضوي ، قال ، يزرع الشكوك . يُضرم النيران . يركب الحرية إلى الإباحية . » واغتبط بالعقوبة التي نزلت به .

بقيت تميمه ساكتة .

كلماته تلحق بها إلى مقصورتها ، تلفّها بجلباب من شوك . فتنتفض ، تخلع ثيابها . تعلّقها على المشبك وتعلّق معها ذلك الجلباب . ثم تخرج

بمايو – الأسود هو لونها المفضّل – يشدّ حقويها ويبرز صدرها وترتمي مرّة واحدة على الشاطئ إزاءه ، تسند ذقنها بكفّيها وتتحدّاه :

– هكذا !

كان شعره الأشقر يلتمع على الشمس ، وحبّات من النمش تنبت على كتفيه البيضاوين العريضتين ، وشفتان له تعكسان ابتسامة عينيه ، مع أنف روماني يشمخ بوجهها فلم تتمالك :

– منخراك ، أتدري ماذا ؟ الحزم والعزم .

– أحجاركِ ، هاتيها . عندي منها خبر الأول فقط .

– خلّنا مع الرمال .

وجعلت تكمش منها . تكرّها بين أناملها . تمرّغ بها خصائل شعرها . كانت رائعة .

تحدّثه عن المهديّه . عن صيدا . عن مطامحها . عن أفريقيا . ثم تتوقف غارسة أناملها في الرمال اللزجة حتى الألم .

– أحلم دائماً أنني تحت وابل من الأزهار ، لا الأحجار . أحلم أنني مدفونة بالأزهار . ليس هذا حلماً إلاّ بالنسبة إليّ . الناس كلّهم يُدفنون بالأزهار إذ يموتون . أنا مدفونة حيّة والأزهار تغطّيني . هذا موضوع الحلم في أزهاري ، أليس كذلك ؟

أوشك أن يجيبها : « أنت زهرة الحياة . » كان فوحها في وجهه . ولكنه أمسك ، ولبث يطوّف بها أنظاره . فمالت عنه :

– لماذا أقول لك هذه الأشياء ؟ أشعار ! أشعار بلهاء .

وهبّت واقفة ، فتبعها ، فانثنت تُخفي ما بها :

– قل لي الآن . أخبرني عنك نثراً . أنتم المهندسين لا تحبّون الشعر .

– لست أدري من الذي تنبأ بهذا . : « حينما تأخذ المرأة حريتها ستنتقل مملكة الشعر من الرجل إليها » . بانتظار ذلك أتعلمين ماذا أتمنى ؟

– أن تأخذ المرأة حريتها .

– طبعاً . طبعاً . هذا لا خلاف عليه . أريد أن أقول : أتمنى لو يصدر قرار بحذف الشعر والشعراء من برامج التعليم في طول البلدان العربية وعرضها .

قالها جادًّا وبشيء من الغضب كأن له ثأراً على الشعراء . فعارضت بأن الإنسان سيظل محتاجاً إلى الشعر احتياجه إلى الماء والهواء . وأضافت :

– شاء المهندسون أمثالك أم أبوا .

– القرار لا يسري على أشعاركِ التي رسمتها على الرمال... ولو كنتُ الحاكم لعيّنت على تطبيق القرار المذكور لجنة مكافحة ، لجيل أو جيلين وربّما لأكثر ، إلى أن يطلع جيل عربي جديد سليم من الميكروب . نحن مصابون بالشعر . بالإدمان على الشعر . الشعر كان لنا أسوأ من الحشيشة قبل حرب حزيران . الشعر منظوماً في القصائد الرنانة ، ومنثوراً في الخطب التي لا تقل عنها رنيناً وطنيناً... ولكن أنت لا تهتمّين بالسياسة .

– من قال لك ذلك ؟

– قلتِها أنتِ أمس في السيارة . مخطئة اذا كنت لا تهتمّين بالسياسة . يجب أن تعرفي أن السياسة تهتم على كل حال بك . وهي الماء والهواء والخبز الذي نأكل .

وأخذ بيدها إلى طاولة تحت السقف في زاوية .

كانت الريفييرا تعجّ بالخلق ، وملء الخيمة أحاديث وضحكات ، والظل طيّب في هذا النهار الحامي الذي يبهر .

سألته وهي تنهل من قنينة الكولا أن يحدّثها عن دير المطلّ .

قال :

– دير المطلّ أُخت المهديّه التي لا تعرفها . أدعوك لزيارتها في أي وقت . تحبّين الضيعة ؟

– أول شيء نختلف عليه . سجّل : لا أُحب الضيع .

– أعتقد أننا سنختلف على أمور كثيرة . أنا أحب دير المطلّ . لماذا

لا تحبّين المهديّه ؟

– حتى في مدينة كصيدا لا أعيش ولو عادت لعزّ الفينيقيين !... في المدرسة كنّا حزبين: الحزب العربي والحزب الفينيقي . الفينيقيات والعربيات . مرّة علا الصراخ بين العربيات والفينيقيات وتماسكن بالشعور . جاء المعلم وفصل بينهن بعد جهد جهيد .

– من أي حزب كنتِ ؟

– كان عمري اثنتي عشرة سنة . لمّا دخلنا الصف رفعت إصبعي : أُستاذ ، أقدر أن أسأل سؤالاً ؟ – تفضّلي – أُستاذ ، ما الفرق بين الفينيقي والعربي ؟ فأسكتني . وما أزال حتى اليوم أبحث عمّن يجيبني .

– لن تلقي مَن يجيبك .

– وأنت أبو السياسة ماذا تقول ؟

– أقول إنك تهتمّين بالسياسة قبلي . ترَين أنها في دمك منذ كنت صغيرة .

– والعربي والفينيقي ؟

– لبنانيان أحدهما أغنى من الآخر . ولكنك تعلمين أن السؤال كان له زمان . صرنا إلى زمان مختلف وعقائد سياسية لا عدّ لها بين يمين ويسار . هذه العقائد لا لزوم لها . يجب وضعها كلّها على الرف . سؤال واحد مطروح علينا في هذا الوقت . تطرحه اسرائيل : هل نكون أو لا نكون ؟ وتريدين أن لا تهتمّي بالسياسة ؟

– وما دخْل الطلاب في السياسة ؟ حدّثني عن دير المطلّ لماذا تحبّها إلى هذه الدرجة ؟ وما شأن ابن النبطيّة في دير المطلّ ؟

– سياسة . في حي لدير المطلّ كل السياسة ، وإلاّ لما كان له معنى . أمّا ابن النبطيّة في دير المطلّ فسياسة فوق سياساتنا كلّها . كما أن حكاية حسيب المبيّض فوق كل الحكايات . إسمعي .

ومضى في السرد ...

تميمه مأخوذة بما تسمع . كان هاني يتكلم بحرارة يرطّبها بين الحين والحين بنوادر دير المطلّ وطرائفها . عمرّها تميمه لم تسمع مثل هذا . وسرت من هاني إليها حرارته فهي تودّ أن تتعرف إلى المعلم حسيب، وإلى الأب أندره، وإلى مختار دير المطلّ، وإلى الدير وسنديانة الدير . أكثر من ذلك – وغرست عينيها مرّة أُخرى في عيني هاني – تودّ لو تثب إليه وتقطف ابتسامة عينيه بقبلة . ولكن هاني كان قد عطف بالحديث إلى طفولته فذكر لتميمه أنه تعلّم الألفباء تحت السنديانة نفسها . فهتفت تنفّس عمّا يجيش في صدرها بالضحك :

– خرّيج سنديانة دير المطلّ !

– في العلم وفي الحب . في عبّ السنديانة كنّا نختبئ أنا وليندا .

– مَن هي ليندا ؟

– كنت أحبها وأنا صغير وكانت تحبني . لم أكن صغيراً جداً كما تتوهّمين . كنت في الثامنة على الأقل وكانت من عمري .

أثارتها الحكاية بمثل الكيّ .

– وبعد ؟ قل لي .

– هذا كل شيء . كنّا نلعب معاً . من الجملة لعبة العريس والعروس في عبّ السنديانة .

– وبعد ؟

– إنتقلت إلى مدرسة « الفرير » في بيروت . ثم، كما ترين، إلى الجامعة اليسوعية . تعالي الآن نسبح .

وما كاد ينهض حتى أحسّ بيد تربّت على كتفه من الوراء فاستدار :

– أهلاً بالدقتور ! تعال أعرّفك .

ونظرت تميمه وهي تمدّ يدها إلى هذا الذي يرحّب به هاني، فهالتها ضخامة رأسه وعينان عظيمتان قاحمتان بالرجولة، إلى براءة تترقرق فيهما أقرب إلى الوحشية . وأبى هاني إلاّ أن يدعو صاحبه إلى الجلوس، على

انزعاج من تميمه أخفقت في كتمانه . ولكنها لم تلبث أن أنست بالدقتور بعد أن فرغ هاني من ديباجة التعريف : قاسم الهلال ، رفيق قديم في مدرسة الفرير ، حامل الشهادتين : ليسانس بالفيزياء من الجامعة الأميركية ، ودقتور بالقاف من قرنايل .

قال قاسم ضارباً على رأسه :

ـ مسقط هذا الكنفوش .

أردف هاني :

ـ أعندُ الكنافيش في حزب الأصحاب .

وسألت تميمه ناظرة إلى هاني ما حزب الأصحاب هذا ؟ فقال قاسم :

ـ يجب يا آنسة أن تعرفي قبل ذلك ما معنى الكنفوش . هذه كلمة يجب أن تدخل في القاموس .

ومضى مفسّراً :

ـ الكنفوش هو الرأس من رؤوس الصنوبر إذا كان يابساً ومفلّجاً وفارغاً . أما حزب الأصحاب فأترك شرحه لهاني .

ـ الآنسة لا تهتم بالسياسة كثيراً . لذلك لا داعي للعجلة . نشرح فيما بعد . قم اخلع ثيابك والحق بنا إلى البحر .

أحبّ هاني أن ينتظر الدقتور . فلمّا أقبل لم تتمالك تميمه من الدهشة للشعر الفاحم الكثّ الذي يكسو صدره فأدارت وجهها حياءً وتهيّباً ومشت إلى الأمواج . كانت تجيد السباحة فغابت منسابة إلى مسافة بعيدة . ثم طلعت تردّ شعرها وتهتف وقد خُيّل إليها أن هاني وراءها :

ـ قل لي . ليندا . أين ليندا الآن ؟

وتلفّتت حواليها :

ـ هاني ! هاني !

وتنبّهت إلى أنها تناديه باسمه مجرّداً لأول مرّة .

وراءها إذ جاءها الجواب من قاسم أنه « هو ـ أي قاسم ـ من حيوانات

البر » أما هاني – وأشار بيده إلى الأفق – فكان قد ابتعد شاقاً بذراعيه العباب . فوضعت رأسها واندفعت إليه .

٥

تعددت اللقاءات بينهما .

ذات ليلة أفاقت تميمه على نفسها تبكي .

وطال أرقها ، فقامت إلى طاولتها فتناولت جزدانها وأخرجت منه دفترها اليومي وكتبت :

« ٢٠ تشرين الأول – هل أُحب هـ... ؟ – ولكن لماذا أخاف أن أُسمّيه ؟ لقد ناديته باسمه على البحر . وسمعني البحر والأرض والسماء » .

وتوقّفت ، ثم أخذت تقلّب في الدفتر . مذكرات ! يا للكلمة الكبيرة ! لا . ليست هذه مذكرات للنشر . ليست لأحد . هي لها وحدها . ولذلك سمّت دفترها ، كتبت عليه : « دفتر الخرطوش » . إنما هي تخرطش . تخرطش . هكذا بلا معنى .

كانت ما تزال في السرير عندما دخلت عليها الست روز . قالت إنها انتظرتها أمس إلى ساعة متأخرة لتبشّرها :

– حضرت الوظيفة !

وأبلغتها أن البك يستقبلها في المكتب صباح اليوم ، الساعة الثامنة والنصف ، قبل أن يكثر المراجعون .

وأعطتها عنوان المكتب .

وصلت تميمه في الموعد فوجدت المراجعين سبقوها ، تدلّ قيافة أكثرهم على أنهم من البقاع ، وهم ينحنون للبك – « هم أيضاً يأبَون إلا أن يكون بكاً . العبيد في حاجة الى بك ولو غصباً عنه ! » – على

أن غضبها هدأ إذ نهض الأستاذ الجردي لمصافحتها ، وأشار إلى الجماعة ففسحوا لها . قال :

– إخواننا في المنطقة . يجب أن نهتم بمشاكلهم .

« أهي أعظم هذه المشاكل ؟ » كل الوجوه استدارت إليها . والأستاذ الجردي يرحّب بها ، ولا يكاد حتى يتناول من درجه بطاقة ويأخذ في الكتابة ، وهو مع ذلك لا ينقطع عن الحديث ، يعتذر لديها عن الوظيفة ، فالوظيفة في نقابة عمال المرفأ . ضاربة على الآلة الكاتبة في نقابة عمال المرفأ .

وخامر تميمه شعور من الضآلة وهي تغرق في المقعد الجلدي الثمين المواجه للمكتب .

– « السيد بهجت عمّار الأمين العام لنقابة عمال المرفأ » .

كتبها على غلاف البطاقة وهو يرفع بها صوته .

– رجل طيّب . حدّثته عنكِ . ثلاثمائة ليرة في الشهر . الشغل مريح . ساعتان أو ثلاث في النهار . ضرب على الآلة الكاتبة .

ولم يسألها رأيها . دفع إليها البطاقة وقام يشيّعها إلى الباب . كان بودّها أن تردّ له البطاقة ، أن تعترض على الوظيفة . ولكنه لم يدع لها مجالاً .

– آنسة تميمه !

فالتفتت إليه . قال :

– لا شيء . لا شيء .

ثم أردف خافضاً بصره :

– موفّقة يا آنسة تميمه .

أي توفيق هذا ؟ وما هذه الوظيفة الشريفة في جمعية عتّالة البور ؟ هاني لم يكن من رأيها .

– أما قلت لكِ سنختلف على أمور كثيرة ؟

وجعل يعدّد لها فوائد التحاقها بالمؤسسة المذكورة . إنها تجربة ثمينة . قال ، بما تحمل من التعرّف إلى حياة هذه الفئة الكادحة من الشعب ، وإلى شؤون النقابات في البلاد وقد شملت المهن كلّها وتعاظم نفوذها ، فضلاً عن أنها ستتيح لها الاطلاع على مطالب العمال وعلاقاتهم بأصحاب العمل ، وربّما كانت في النتيجة أجدى لها من أي وظيفة أُخرى وأدعى إلى شكر المحامي .

الشكر ؟ توجهت به تميمه إلى الأستاذ أكرم الجردي بعد أُسبوع من مباشرتها العمل . كلمة لم تشأ أن تكتبها إلاّ عن اقتناع . فبالرغم من قصر المدة تسنّى لها أن تتبيّن أي عالم تدخل فيه . ومنذ اليوم الثالث استحصلت من الأمين العام ، وقد كسبت ثقته على الفور ، على حقّ الاطلاع على ملفّات النقابة وراحت تقضي من مسائها ساعات مقلّبة في الأوراق ، واجدة فيها متعة لم تكن تخطر لها ببال .

كان هاني قد عاد إلى دير المطلّ لقضاء ما تبقّى من العطلة . أُسبوع . قال ، لوداع موسم الصيف والأصحاب الصغار . واكتفى من شرح حزبه أنه يضمّ أصحاباً كباراً وصغاراً .

– أكبر الصغار في دير المطلّ في الثانية عشرة : قيدوم . سأعرّفك عليه ، هو رئيسهم ، أمَا وعدتني بزيارة لدير المطلّ ؟

كانت هي أيضاً تحب الصغار . وأخبرته أنها بدأت ، في اليوم الذي سجّلت فيه اسمها في دار المعلمين والمعلمات ، بطرف من رسالتها مع زنّوب :

– زنّوب قيدومة هي الأخرى . رئيسة ينبغي أن تكون . لو ترى كيف تلتهم الحروف !

وكانت قد انعقدت بين تميمه وزنّوب ، على تفاوت السنّ ، علاقة من هذه العلاقات الحلوة التي لا تعرفها إلاّ البنات . فكانت زنّوب تجد أطيب السرور في تنظيف غرفة تميمه وترتيب سريرها ، وتميمه أطيبه في

الانحناء عليها وتعليمها مبادئ القراءة والكتابة .

أبت روز إلاّ أن تُقيم مأدبة أُخرى للبك :

ـ على شرف الوظيفة الجديدة . يا مدموازيل تميمه .

وحُدّد للعشاء يوم انقضى كأخيه بالاستعدادات . ولكن تميمه أمضت صباحها خارج البيت ولم ترجع إلا بعد الظهر . ولدى دخولها إلى المطبخ للمعاونة شاهدت رجلاً بكوفية قابعاً على كرسيّ في الزاوية ، ما وقف لسلام ولا تحرّك . مع هيئة زريّة وعصا بين فخذيه يغفو عليها . نقت روز برأسها تقول لتميمه :

ـ والد زنّوب .

كانت الخادمة تجلو الصحون . فسألتها تميمه منذ أي وقت لم ترَ والدها .

ـ سنة ! ـ أجابت عنها سيدتها . يأتي كل سنة مرّة لقبض « الثمن » : أُجرة السنة سلفاً . بدأنا بخمسمائة ليرة . صرنا بألف . وبعد الألف الله العليم .

وتناولت حبة من حبوبها وغمغمت :

ـ قلنا له تشرين الأول ، لم نقل له هذا اليوم وهذه الساعة والشغل فوق رأسنا !

وأحبّت أن تسرّي عن نفسها فعادت إلى حديث الوظيفة ، واستطردت منه إلى يدي تميمه الناعمتين . لماذا لا تزيّنهما بإسوارة ليزيد حلاهما ؟ فتجيب تميمه أنها غير مولعة بالحلي . تكتفي من الزينة ، اذا كانت هذه زينة ، بالساعة في معصمها ...

متى يقوم راعي المعزى ؟... وشخير أيضاً ؟ قبض . وأكل . وشرب . ماذا ينتظر ؟

ـ تصوّري . أنا أشتري لزنّوب كل شيء . لا يعطي بنته من الألف

ليرة قرشاً .

– صحيح ، يا زنّوب ؟

كان السؤال من تميمه . ولكن زنّوب لم تُجب . استدارت إلى أبيها فأيقظته وأفهمته أن الست مشغولة كثيراً اليوم . فتثاءب ونهض ، ومشت وراءه إلى الباب . ليس من عاداتهما الوداع . لعلّها تريد أن توصيه بشيء لأمها .

– ذكية الملعونة ! كان ينقصها العلم . جئتِ لها يا مدموازيل تميمه من الله . عندك صبر . أتسمّع عليك من الدار تعلّمينها الألفباء وأُراقبك تُمسكين يدها بالقلم .

وزنّوب لا تعود .

– ما هذا الوداع الطويل ؟ ومن أين لأين هذه العواطف ؟ يجيء ويروح لا يحسّ بها ولا تحسّ به . أنا علّمتها أن تبوس يده وتطلب رضاه . رضا الوالدين من رضا الرب . وصرختُ به : ما تبوس بنتك ! بالكلفة يمسح شواربه بخدّها .

واذا بصوت يزعق على الدرج . صوت زنّوب بالبكاء ! فهرولت روز وتبعتها تميمه .

كان الرجل ينهال على الصغيرة بعصاه وجلال الكرش يحاول ردّه فلا يرتدّ ، وقبل أن تصل روز وتميمه إليه كان قد رفسها بمداسه فراحت تتقلّب على الدرج حتى الطريق ، تنهض مضرجة بالدم ، تثب ، تلاقيه ، تصيح :

– اقتلني ! موّتني ! الموت أحلى لي .

بادرت تميمه تحضنها ، فيما كان الأب ينزل السلّم ملوّحاً بعصاه بوجه ابنته ، موصياً الست بأن لا تعاملها إلا بمثلها . وتميمه تحاول إيقاف زنّوب على رجليها ، تسألها ما الخبر ، تدعوها للطلوع لتضميد جرح كبير في رأسها وآخر في ركبتها ، وهي تأبى وتتمرّغ بأقدام المتعاونين عليها .

— قومي يا زنّوب !

— أنا زنّوب أنا؟ أنا عنزة ، عنزة أنا ! اتركوني . العنزة أحسن مني ألف مرة !

حتى خُيِّل إليهم أنها جنّت . والكرش يخبر أنه خرج من مكتبه على الصوت ، لم يفهم شيئاً . سمع الرجل يصرخ وهو يرفع عصاه على زنّوب : « أسوارة؟ أُسوارة؟! » وعيناه تطيران من وجهه . وعيل صبر روز فأمرت الكرش فحملها بالقوة إلى البيت وهي ما تنفكّ :

— عنزة ! أنا عنزة ! قولوا له يرجع ويذبحني على الدرج .

ولم تهدأ في النهاية إلاّ على يد تميمه بعد أن ضمّدت لها جراحها وأضجعتها على الصوفا عندها في الغرفة . حينئذٍ فقط وضح الأمر . لقد طلبت زنّوب من أبيها أن يشتري لها أُسوارةً — « أُسوارة صغيرة » — من أصل « ثمنها » الذي صار هذه السنة ألف ليرة . فطار عقله . « بثمن الأسوارة ، قال ، يشتري عنزة ! »

٦

تعكّر مزاج الست روز ذلك المساء . وانقضى العشاء بارداً — قلبها كان دليلها — فقد جلس أكرم الجردي إلى قنينته حسب العادة ، ولكنه لم يشرب إلاّ خمسة أو ستة كشتبانات ولم يضحك ضحكته إلا مرّتين أو ثلاثاً ، وبالغصب .

ولما ألحّت عليه روز بأن يُفصح عن همّه توجّه بالجواب إلى تميمه متأنقاً :

— « ولو كان همّ واحد لحملته... » .

قال إن جماعة شوكت بك اليغموري قتلوا أحد أبناء عائلة الجردي قبل

شهر ، وأُلقي القبض على القتلة بالجرم المشهود . وإذا خبر يصله اليوم أنهم هجموا على حارس السجن فكمّوا فاه وأجبروه على فتح الباب ثم ضربوه بالحديد على رأسه وتركوه بين الموت والحياة وأركنوا إلى الفرار .

وأعقبت تميمه بسرد الحادث الذي جرى لزنّوب فربطت بينه وبين جريمة اليغموريين المزدوجة ، وأفاضت في الكلام عن الأوضاع المتخلّفة في عكّار والجنوب على السواء .

الخلاصة انقضت السهرة في السياسة والمصائب . وجه راعي المعزى كان نحساً . هكذا كانت تقول روز لنفسها . وأكملت ابنته النحس فجلبت لها العنزة إلى البيت تتمرّغ على الدرج وتلمّ الجيران .

قبل أن تقوم تميمه إلى غرفتها طلبت الإذن لزنّوب أن تنام على الصوفا عندها هذه الليلة . فلم تجد روز مانعاً . وزادت فدخلت تطمئنّ على زنّوب وتحاسن تميمه مؤكدة لها أن البك سيكسر أكبر رأس في اليغموريين .

كان على تميمه أن تذهب من غد إلى المهديّه في زيارتها الأسبوعية لأمها كل أحد . ولكنها لن تترك زنّوب في هذه الحال . ستُبكر إلى كاراج صور وتبعث إلى أمها بخبر .

نامت زنّوب أسعد ليلة في حياتها .

نسيت جراحها والعصا والأسوارة فما تفكّر إلا بأنها نائمة مع تميمه في غرفة واحدة ، وبأن تميمه باقية إلى جانبها من غد طول نهارها . وبالرغم من أن اللحاف ظلّ يعلو ويهبط بجهشها فقد كانت لا تصدّق سعادتها .

فتحت أجفانها في الصباح ونظرت إلى سرير صديقتها فرأته فارغاً . متى خرجت تميمه؟ ولكنها لن تتأخر – هكذا قالت لها في الليل – وألقت اللحاف فوق رأسها لإغفاءة أُخرى تقتل بها الانتظار . وما كادت حتى نبّهتها جلبة في الطريق ، جلبة هذه الساعة من كل يوم ، تعرفها زنّوب

من صوت الزبّالين وهدير كميونهم .

ركعت على الصوفا وأطلّت من الشبّاك تنظر إلى أصناف ما يجمعون من صناديق موضوعة أمام الأبواب وأوراق ونفايات يكدّسونها ثم يقلبون كل ذلك على ظهر الكميون ، وقد وقف عليه كبيرهم وبيده قضيب ينكت به الأكداس ، لعلّ فيها متاعاً ما يزال يصلح ، أو حلية منسيّة ، أو محفظة ضائعة... زنّوب لم تخترع ذلك . فقبل يومين شال ديكهم هذا برأسه وتلفّت يميناً وشمالاً ليطمئنّ إلى أن أحداً لا يراه – رأته هي – ثم انحنى فالتقط شيئاً يلمع ودسّه في جيبه ثم ارتدّ يمسح شاربيه وينهر الآخرين بصوت عال ليُخفي لقطته .

ولكن ما باله اليوم يلعن هذا الصباح وكل بسينات الدنيا ؟

واستوت زنّوب متمسّكة بحديد الشبّاك ، فإذا واحد من الذين على الأرض يقذف إلى الكميون بعلبة من الكرتون فيها أربعة ، خمسة ، بل سبعة جراء ، تنوء بأصوات حادّة ، متململة ، وهي ترتدّ من بعض إلى بعض ، فيها الأسود والأبيض والأشقر وذو اللونين والثلاثة . ودّت زنّوب لو تمدّ يدها إلى واحد منها وتأخذه لها . بل لقد همّت بذلك وكادت تهتف أن « أعطوني هذا الأشقر ! » وتطعمه وتسقيه وتضجعه إلى جانبها . فإذا الرجل يرفع قدمه ويمعس العلبة بجزمته ويهيل عليها الزبالة . فعضّت شفتها تخنق صرخة . وأقبل الكرش رافعاً بيديه الاثنتين كيساً من الجنفيص فيه شيء يتخبّط :.

– لقطتُها الملعونة ! لحقّوها بأولادها !

فتناول عالي القوم الكيس وحطّه .

– ضبّ عليها ! ضبّ عليها ! (زعق الكرش) .

ولكنها كانت قد أفلتت ، وكالبرق نطّت من السيارة إلى الطرف الآخر من الطريق ناجية بجرو من جرائها – أشقر – أهو الذي كان في العلبة أم أخ له كان معها في الكيس ؟ وخفق قلبُ زنّوب بالغبطة ، تشمت

بمَن هم فوق ومَن هم تحت ومعهم جلال الكرش يركضون وراء البسينة ، يتعثّر هذا ، يصيح ذاك ، يلوّح الثالث بيديه . اختفت بصغيرها . بلعتها الأرض .

تُرى ، أين ذهبت به ؟

كيف يصنع ما تبقّى من الجراء حياً ؟ هل على الشاطئ حيث يرمون الزبالة مكان تأوي إليه البسينات الصغار ؟

كان الكميون قد انصرف بجماعته . فألقت زنّوب بنفسها على الصوفا... وفجأة فطنت إلى أن الدنيا نهار ، فقامت وحملت لحافها إلى مكانه المعهود في المطبخ فرصفته فوق الفراش — لم تحتج للفراش ليلتها — وفي عودتها لاح لها في مرآة المغسلة التي على جانب الحمّام رأسها الملفوف بالرباطات ، فطلع لها البكاء من جديد .

كانت الست روز تنام الضحى تاركة لخادمتها أن تقوم على التنظيف والترتيب . وفيما كانت زنّوب منصرفة إلى عملها فُتح الباب . ولكن فرحتها بعودة تميمه قد غلبها شيء لم يكن في الظن . فما كادت تميمه تجتاز العتبة حتى كانت قد سبقتها — منسلّة بين قدميها — البسينة ، إياها ، وفي فمها جروها الأشقر . ولاصت في الدار بين الفتاتين تنقّل عينيها الخضراوين هنا وهناك كأنها تسأل عن ملجأ... هادئة . لا تركض . لا تلهث . وزنّوب ترفع يدها إلى تميمه بالانتظار . فإذا البسينة تعتزم أمراً . تدير وجهها وتمشي بحملها الثمين من الدار إلى الممشى الضيّق إلى المطبخ ، وزنّوب وراءها ، حتى وصلت إلى الزاوية فدخلت بين الفراش واللحاف . فبادرت زنّوب إلى اقفال باب المطبخ وركضت إلى صديقتها تصفّق بيديها عالياً وتحكي لها الحكاية العجيبة .

بقي إقناع الست ، إذ تفيق ، بالحياة مع البسينات وجرائها تحت سقف واحد . كانت زنّوب تعرف كرهها لهذا الجنس ، ولعلّ جلال الكرش

لم يتطوّع لما تطوّع له من إبعاد البسينة وقطع نسلها – وكانت تحتضن صغارها في مكان ما خلف الدرج أو في القبو ما في ذلك شكّ – إلا عملاً بما يعرفه من مزاج ربّة البيت .

ولكن تميمه أعلنت أنها ستتولّى الأمر . « البسينة لها هي ، والجرو لأمه » . فأُعجبت زنّوب بالحل .

وانصرفتا معاً إلى تدبير مكان صالح للآجئة وصغيرها .

٧

بعد الظهر فوجئت روز خوري بدقّ الباب . كانت زنّوب في غرفة تميمه لأمثولتها اليومية . فرأت أن تتركها لألفبائها وذهبت إلى الباب تتساءل مَن الزائر الكريم في مثل هذه الساعة .

– أُوديت !

وانبرت ترحّب بـ « المفاجأة الحلوة » !

هذه الزيارة لا تعجبها . قالت أُوديت إنها طلعت لفنجان قهوة . وتقتحم الباب ، على وجهها خبر اجتهدت في إخفائه فتفضحه ، وهي تكرج من الممشى إلى الدار أمام روز . مشية لها تكاد تمزّق ثوبها الضيّق من غيظ . رأت ذلك روز ورأت بالون الشعر المستعار على رأس أُوديت يندفع صعوداً كأنه يتحدّى الأجواء . وعبثاً تقول أُوديت وتكثّر الشرح أنها كانت في سينما الحمرا وأن الرواية كانت كذا وكذا . روز ليست أمام الأولى من بنات جنسها وقد قلّبت أوديت وجهاً وقفا وتعرف رواياتها . لأمر ما تزور بدون علم ولا خبر .

وأحسّت أُوديت في عينَي روز حذراً ، فارتمت على المقعد متكلّفة الاطمئنان وشبكت ساقاً بساق – وَضْعها المفضّل لإبراز نحافتهما وانسكابهما –

وأخرجت من جزدانها منديلاً تمسح العرق عن نحرها وتتأفّف من الحر ، وهي خلال ذلك تجيل عينيها السوداوين المتجهّمتين في كل صوب – روز تعرف عن أي شيء تبحثان – وتُنذران بالشرّ .

ولبثت الاثنتان هكذا ، تتدارسان باللفتة خطفاً ، والحركة خلساً ، مع ابتسامات ومجاملات لم تشكّ كلتاهما أنها مراسم المباراة التي ستخوضانها .

كانت أُوديت هي التي أعطت الإشارة :

– عندك أخبار عن جابر نصّور ؟

جابر نصّور ! آخر هموم أُوديت . ليلة وانطوت صفحته . ومن أين لأين ؟ جابر نصّور الآن في دنيا ونحن في دنيا .

– لا أحد يعرف شيئاً عنه بعـد سفره ولا كيف تدبّرت القضية (وهزّت برأسها) المال دبّار كل شيء . رنّ الفلوس تحضر العروس . وتحضر البراءة لأكبر مجرم . وأيش عمل تامر نصّور ؟ هرّب ؟ تشرّفنا . المهمّ أن يعرف ابنه أين ينفع الرنين .

وتضاحكت روز . فتلقّتها أُوديت بوقار الوُعّاظ :

– لا تؤمنين إلا بالفلوس . في الدنيا أشياء أُخرى ترنّ .

– مثلاً ؟

فمالت أُوديت إلى عبث خبيث :

– مثلاً القلوب . أنا أسمع رنّاتها رنّة رنّة ، وأعرف الرنّة الصحيحة من الرنّة التي فيها خنّة .

فتأوّهت روز عالياً :

– كانت أيام . أتكلم طبعاً عني ، أنتِ في عزّك . ألله وكيلك أنا عائشة في الطرّش منذ وقت هذا .

وأشارت بعينيها إلى الصورة على الحائط فوق رأس أُوديت .

لم تلتفت أُوديت .

كانت تعرف القصة ، وهي ليست مستعدة لسماعها من جديد . فهذا

المعلّق بالحائط – بعين الرائح والغادي – هو آخر من أحبّته روز في سجلّ من أحبّتهم من الرجال . تركها ليتزوّج بنت عائلة من طرابلس ، وبمالها فتح صيدلية في طرابلس . – « العروس رنّت الفلوس هذه المرّة فحضر العريس » – هكذا صحّحت أُوديت في ذهنها مَثَل روز . روز دعتها يوماً إلى مرافقتها في تكسي من تكسياتها لنزهة إلى طرابلس ، ودخلت الصيدلية بحجة حبوبها . كل شهر مرّة على الأقل تذهب إلى طرابلس... لحبوبها ! ومع كل حبة تتناولها تعاودها ذكراه .

حتى في هذه اللحظة ، وهي تشير بعينيها إلى صورته ولا تجسر أن ترفعهما ، يطلع لها الدمع . لاحظت ذلك أُوديت وتساءلت : « أتبكي روز حقاً أم تغيّر الموضوع ؟ »

الواقع أن روز نفسها لا تعرف .

ولكن، سواء أكان الأمر صحيحاً أم تمثيلاً فأُوديت غير روز . إذا كان في يدها ما تكمشه فهي تكمشه ، وتخنقه ولا تفلته .

– والأستاذ رمزي ؟

الأستاذ رمزي أبعد وأبعد . « مجنون » تقول عنه أُوديت . ويوم الحكم عليه ملأ صوتها الدار : « لو كنت القاضي لحكمت عليه بالمؤبّد مع الأشغال الشاقّة . » لا تطيق صورة وجهه... أما الآن :

– وماذا عمل رمزي رعد ؟ قال الحقيقة . قلمه من ذهب . أكرم اتفق معه على سلسلة مقالات ضد اليغموريين . زاره في السجن وتمّ كل شيء . وعندما يطلع رمزي يطلع رأساً مع أكرم إلى البقاع ليرى بعينيه ويسمع بأذنيه ويكتب . الفكرة فكرتي .

وساد سكوت مزعج .

أُوديت :

– غرفة الأستاذ رمزي محفوظة على اسمه ؟

روز :

– محفوظة .

عيل صبر أُوديت . فوقفت عند هذا الحد من المداورة . كانت تسمع منذ دخولها حِساً في الغرفة المقابلة . صوت زنّوب وصوت أُنثى أُخرى – « هي بلا شكّ ! » – فأومأت برأسها إلى الباب ، واضعة روز أمام الأمر الواقع :

– المستأجرة الجديدة ، أُخت جابر ، أُحب أن أتعرّف عليها .

ثم :

– وقولي لزنّوب تجيء وتعمل لنا القهوة .

وتفرّست بروز بعينين ظافرتين ، فلم يكن بدّ من التسليم . فازت أُوديت في الشوط الأول . ولم يبقَ إلا أن تخبرها روز بما حدث لزنّوب مع أبيها ثم بتأثّر أُخت جابر الخ... بانتظار الشوط الثاني . وستعلن روز هذه المرّة بذءه .

ولكن من أين تتسرّب أخبار البيت إلى أُوديت ؟ من أين ؟ أُوديت تتصرّف تصرّف العارف بكل شيء .

وقامت إلى الغرفة فنادت زنّوب .

كانت تميمه مرتدية ثيابها وقد تهيّأت للخروج . فتولّت روز مراسم التعريف بينها وبين الست أُوديت ودعتها إلى الجلوس للقهوة بإلحاح ظاهر كِذبُه . على أي حال كانت تميمه مستعجلة فمشت صوب الباب ، وأُوديت تشيّعها بنظراتها ثم ترتدّ إلى روز وتهتف :

– ما شاء الله !

وانقطعت عن الكلام . لم تتناول من القهوة إلا جرعة أو جرعتين وقامت فودّعت وقد تحوّل بريق عينيها إلى خمود مخيف .

٨

بينما كانت تميمه تقلّب مجلة « العصور » وقع نظرها على عنوان مثير : « العنزة » بحرف كبير .

أخذت تقرأ .

الخبر ، أو بالأحرى المقال ، هو في الحادث بالذات الذي جرى لزنّوب مع أبيها . كل التفاصيل : أوصاف الرجل . العصا . الأسوارة . « ثمن » البنت . عكّار . ما عدا أسماء الأشخاص فلم يذكرها الكاتب . رمزي مئة في المئة ولو كان الإمضاء « عين » . الكلمات المحرقة كلماته . وسياق الخبر على ما روته هي لأكرم الجردي ، فعليه شيء من لهاثها . واضح أن أكرم الجردي هو الذي نقله إلى رمزي في سجنه .

أي شيء نقله إليه غير ذلك ؟

وقصدت من وقتها إلى السجن . فلم تكد تصل حتى بادرها رمزي من وراء قضبانه :

— إرجعي واحزمي أمتعتك واتركي بيت هذه القحبة اليوم .

وقذف بوجهها الموائد العامرة التي تقام في البيت احتفاء بها ، وإعجاب أكرم الجردي بالمستأجرة الجديدة . « ثقافتها طبعاً قبل كل شيء ! » أجل ، المحامي نفسه نقل إليه ذلك . وبلغ به الأمر أن سأله : « صحيح أنها مولعة بكتاباتك ؟ إلى أي درجة ؟ » كأنه يغبطه عليها ، أو يستأذنه فيها... وتميمه تحاول أن تعرف منه ما كان جوابه وتجتهد في تبرئة نفسها مما علق في ذهنه فيُردف :

— وتتركين الوظيفة من غد !

فثارت لظنّه فيها :

— لن أترك الوظيفة ولا البيت .

وانقلبت راجعة .

ذهبت الى الشغل . كان عليها أن تضرب تقريراً عن مكافحة الحشيشة في أوساط عمّال المرفأ دفعه إليها بهجت أفندي وكلّفها أن تصلح لغته قبل ضربه . أكثر من ذلك . طلب منها أن تضمّنه أفكارها وتصوغه من جديد على أن تتلوه عليه غداً قبل عرضه على مجلس النقابة . وقد ألهتها حادثة زنّوب فلم تستطع العمل في البيت ، وها أن رمزي يشوّش ذهنها .

كيف تترك الوظيفة ؟

وكيف تترك البيت ؟

وأحسّت بالجوع - كانت الساعة قد قاربت الثانية بعد الظهر - فدقّت جرسها للحاجب . فنزع أبو العزّ سمّاعة الترانزيستور من أُذنه وأقبل لتلقّي أوامر الآنسة . يعيش مع الترانزيستور . لا يعاشر غيره . بلى ، يطلب منها الجرائد بعد أن تكون قد قرأتها ويحطّ رأسه فيها طول النهار ، وفي المساء يحملها تحت إبطه إلى البيت .

- صحن فول يا عزيز .

كل يوم فول أو حمّص . كل يوم سندويش . بالثلاثمائة ليرة في الشهر ماذا تستطيع أن تذوق غير هذا ؟ أجل ، تردّ عليها الأمثولات الخصوصية التي تعطيها في البيوت منذ افتتاح الموسم الدراسي مبلغاً مقارباً ، ولكنه مورد غير ثابت . كان عليها أن تدخل مباراة دار المعلمين والمعلمات للحصول على منحة . فاتتها هذه السنة . عمرَها لم تفكر بالمنح . المنح للفقراء . هل خطر لها يوماً أنها ستصبح فقيرة ؟

يا ليت ! الفقر ليس عيباً . « مسكينة في عقلها أُمي ! » لا تصدّق أن زوجها قادر على عيب . من إيمانها به . من إيمانها بالله . تلاحقه بصلواتها وتطلب منه أن ينزل من سمائه السابعة إلى جهنم أفريقيا ويخلّص لها تامر ! كأنه هو الذي قال لتامر : « هرّب وحطّ سمعة بيت نصّور

في الوحل ، وانسل مع العبدات ، واترك لابنك أن ينشأ على تقاليدك ويمشي في صراطك ! » خُذ جابر الآن . بضاعتك رُدَّت إليك . احتفظ به . لقّنه ما يلزم . ينقصه التهريب . اطمئنّ ، سيُتقنه . أليس الابن سرّ أبيه ؟ وتعاونا معاً على تميمه ، وأوصياها ألاّ تنسى خبز أمها في المهديّه وزؤان دجاجاتها ! »

كانت تمضغ مراراتها مع لقمات صحن الفول وتستطرد : يوماً ما سيعرف هاني بفضيحة أبيها . « بنت المهرّب ! » .

ماذا لو عرف بعلاقتها مع رمزي؟ بفضيحتها هي فوق الفضيحة الأخرى .

واعترتها قُشَعْريرة .

هذه الغرفة ! هذا البيت ! روز خوري ! كان عليها أصلاً أن لا تطأ تلك العتبة .

في السهرة ، بينما كانت منصرفة في غرفتها الى تنقيح تقريرها للنقابة دقّت عليها روز الباب ودخلت ، على وجهها ابتسامة عريضة وفي يدها علبة مربوطة بشريط . ــ هدية ، قالت إنها جاءت باسمها وهي تريد أن تقدّمها لها يداً بيد .

فتحت تميمه العلبة فإذا فيها ساعة ذهبية مع بطاقة « أكرم الجردي المحامي بالاستئناف » فيما تهتف روز إعجاباً ، تتناول الساعة ، تقلّبها ، تتأملها ، وتأبى إلا أن تضعها في معصم تميمه . فأشارت إليها تميمه أن « هاتيها » ، وأعادتها إلى علبتها ووضعت العلبة على الطاولة .

ــ السبت سيشرّفنا على العشاء . وعدته بأن تكوني معنا . كريم أكرم بك . لم أعرف في حياتي أكرم منه . ولك عنده منزلة خاصة . أما أنا...

وارتمت على تميمه تحاول عناقها ، فأزاحت تميمه رأسها .

ــ بنتي أنت . مثل بنتي وأعز !

وقبّلتها بالقوة .

٩

مساء السبت جاء أكرم الجردي مع سلسلة الاحتياطات والاستعدادات ذاتها التي اتُّخذت لمجيئه في السابق . الفارق أن المائدة كانت هذه المرّة عامرة بأطايب من الطعام أُوصي عليها في أفخم مطاعم الحمرا مع باقة من الورد في الوسط منسّقة بشكل بديع .

وروز تروح وتجيء . متى تصل تميمه ؟ لم تعاون بشيء اليوم . خرجت قبل الغروب لحضور فِلم ، هكذا قالت ، وتأتي بعد الفِلم .

الساعة التاسعة والربع .

والنصف ...

ساورت روز الهواجس . والأستاذ الجردي يكرع كشتباناً بعد كشتبان . ساكت . ينتظر . الفكرة فكرة روز . هي التي قصدت الى السوق واشترت الساعة على ذوقها . وعاد المحامي إلى السؤال بالتفصيل عن وقع الهدية . متى ؟ كيف ؟ ماذا قالت ؟ فقاطعته روز وقد بدا عليها التبرّم :

– المهمّ قبلت الهدية . تساوي رأسها . سبعمائة ليرة .

تؤكّد له المبلغ . تبرّئ ذمتها . لم تقل طبعاً انها استطاعت أن تخفضه إلى ستمائة وتضع الفرق في جزدانها . أتعابها . حلال زلال .

وبلعت حبّة من حبوبها . والأستاذ الجردي يُدير في ذهنه ثم يُفصح :

– أعتقد أنها عاشقة .

– مَن ؟ رمزي رعد ؟ صاحبك الصحافي الحافي أحبت أشعاره الهوائية . ما يمنعها أن تحب فيك ساعات الذهب وجاهك الذي يساوي ذهب الدنيا ؟

الساعة العاشرة . وصلت تميمه .

كانت قد قضت وقتها عند ماري أبو خليل . ما أجمل هذه الشقّة

التي تعيش فيها ! دار وغرفتان ومطبخ في بناية طريفة نظيفة . وحرّة فيها مستقلة ... أخبرتها كل شيء : روز خوري ، الأستاذ الجردي ، الوظيفة ، الساعة ، والعشاء الذي ينتظرها . وعند هذا الحدّ توقّفت . بلى ، لم يسعها إلا أن تبوح لها بأنها عاشقة . عاشقة حتى الجنون . مَن ؟ لم تذكر لها الاسم . « فيما بعد . فيما بعد . وسأعرّفك عليه » .

ووافقتها ماري على قرارها . لم يبقَ إلا التنفيذ .

دخلت تميمه حاملة العلبة بيد ومحفظتها باليد الأخرى . وقبل أن يهبّ أكرم الجردي للسلام بادرته بالهدية فوضعتها على المائدة تعيدها شاكرة معتذرة . فوقفت روز مبهوتة تحاول أن تردّ إليها العلبة وتقول شيئاً ، ولكن تميمه كانت قد أدارت ظهرها ، فلحقتها الى الدار ، فانثنت تميمه تزأر :

— والوظيفة فوقها إذا لزم الأمر !

وهرولت لتخبر ماري بما جرى .

كان البك يسأل الست روز عن معنى هذا ، وكلاهما تحت الضربة ، فإذا بجرس الباب يرنّ ومع رنينه المتواصل طرق باليد عنيف متدارك : « أوديت ! » صاحت روز .

واستعاذت بالشيطان وهي تقوم .

وفكّر الجردي بالاختباء ، ثم آثر لكرامته أن لا ، واكتفى بالانتقال إلى الدار حيث جلس ، وذهبت روز تفتح الباب . وإذا بأُوديت تزيحها من الدرب وتقتحم الدار صائحة : « أين هي ؟ أين هي ؟ » والشرر يتطاير من عينيها . وتوّاً إلى غرفة تميمه تدفع بابها . لا أحد . ألعلّه يستضيفها في سريرها هي ؟ وانقلبت إلى غرفته — غرفتها ، ترمي اللحاف ، تفتح الخزانة . فإلى المطبخ ، إلى الحمام ، إلى غرفة روز فإلى الغرفة رقم ١ — وكانت روز قد أقفلتها — فهدّدت بكسر الباب ، باستدعاء الشرطة ! فأقبلت روز وفتحت . فما وقع نظر أُوديت على المائدة العامرة حتى جنّ

جنونها . وأسرعت روز إلى العلبة تريد إخفاءها فما كان من أُوديت إلا أن نترتها منها .

– ما هذا ؟

وفتحتها فإذا الساعة الذهبية والبطاقة ، فكادت تقع مغشياً عليها . ولكن كيدها كان أعظم . وثبت إلى الدار ، الساعة بيد والبطاقة بيد ، فوضعتهما بأنف عشيقها وصفعته ملء خدّه ، وتراجعت تبحث عن روز ، وإذ طلعت لها من صوب المطبخ هجمت عليها ، ومن أعماق غيظها قذفتها :

– تفوه !

وخرجت .

فيما كانت روز تمسح وجهها وتسجّل لأوديت الشوط الثاني...

ولكن من أين تتسرّب أخبار البيت ؟ من أين ؟

ومن هو الجاسوس ؟

امتدّ الحديث تلك الليلة في شقّة ماري أبو خليل . قالت تميمه إنها عازمة على ترك الوظيفة والبيت . فهدّأت صديقتها من روعها :

– الرجل لم يعمل شيئاً يستحق كل هذا . لا تعرفين الرجال . الساعة اتفقنا على إعادتها وأعدتِها . أما الوظيفة فسنرى . وأما البيت فهنا ، لك غرفة ولي غرفة .

وأضافت أن قد خطر لها أن تعرض ذلك على تميمه منذ نزولها إلى بيروت . وهمّت به مراراً ، لا تدري لأي سبب لم تفعل . وأخذت بيدها إلى المطبخ :

– لنبدأ بتحضير غدائنا لغد .

وفتحت البرّاد .

لمّا أدارت وجهها رأت تميمه تدمع ، فتعانقتا .

وضجّ المطبخ بالمشاريع ... .

لم تلحّ روز خوري على مستأجرتها بالبقاء . لم تجد حاجة لفتح هذه السيرة أصلاً . كان ترك تميمه للبيت متوقّعاً بعد الذي كان . وحمداً لله أن تميمه نجت بنفسها قبل وصول الذئبة .

وانقلبت تردد ما كانت تسمعه من جلال : « عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » . وتصرّ بأسنانها وتستنزل عليه اللعنات زفتاً وكبريتاً بانتظار الانتقام منه — أُوديت لها حسابها على حدة — فالفعلة فعلة الكرش النجس ، ما في ذلك شكّ . ودبّاره عندها .

ساعدت زنّوب صديقتها تميمه في الضبّ على الأمتعة واللوعة تخنقها على هذا الفراق المفاجئ وتخنق في صدرها ألف شيء وشيء تريد أن تقوله — هل تقوله الآن ؟ — ولمّا تناولت الإسكربينة ، آخر ما تبقّى في الخزانة ، رفعت عينيها إلى تميمه ، والإسكربينة في يديها ، ثم ضمّت الإسكربينة إلى صدرها ضمّة واحدة وانفجرت بالبكاء .

وحينما صعدت تميمه إلى التكسي وراء حقائبها انحنت على زنّوب تقبّلها وتُسرّ إليها بشيء . فبرقت عينا زنّوب ، ورفعت ذراعيها تلوّح بهما حتى توارت السيارة .

وصعدت السلّم ودخلت إلى الغرفة بحجة ترتيبها ، ولكنها لم تكن تفكّر بأي ترتيب . جلست على السرير حزينة . وأقبلت « أم عيون » ، وأقبل وراءها « نمرود » — وهما الاسمان اللذان اختيرا للبسينة وجروها ، الأول يعود فيه الفضل لتميمه ، والثاني جاء لزنّوب عفو الخاطر — فقفزا إلى جانبها في السرير .

١٠

كانت تميمه تواظب على دروسها في دار المعلمين والمعلمات وتجد في جو الجامعة غبطة عظيمة . وكان هاني الراعي هو الوحيد الذي تشاطره أفكار الطالبة وخوالجها ومطامحها . أمّا حياتها الأخرى ، تلك التي في السجن ، فكانت غريبة عنه ، وغريبة عنها هي نفسها إذا اجتمعت به . يلتقيان على شاطئ البحر أو يشاهدان فِلماً ، تختاره غالباً من هذه الأفلام العنيفة التي تصطكّ فيها بلاهة الحياة بعمى الأقدار ، تستمرئها تميمه ويمتعض منها هاني ، فتقول :

– أنا مع الفِلم وفيه بكل جوارحي ، أعيش حياة أبطاله بما فيهم المسوخ . ولكني إذ أخرج من السينما يخرجون مني وأعود أنا . رائع أن يعيش الانسان حياة أُخرى ولو ساعة .

وتحدّثه عن عملها في النقابة . عن عتّالة البور ورائحة البحر الممزوجة برائحة العرق والقذر . ومع ذلك ، تقول ، تحب تلك الفئة من صعاليك الأرض . تزور أحياءهم وتدخل مطاعمهم . الفول والحمّص وأُم الفلافل والحشيشة – خصوصاً الحشيشة . يدخّنون الحشيشة طول لياليهم . يأوون إلى مخابئ لهم في أزقّة المرفأ أو في مراكب راسية فيه ، بعيدين عن عيون الرقباء ، والنقابة تكافح الآفة عبثاً ، فيقول هاني :

– هم أيضاً يعيشون الحياة الأخرى .

أو يقصدان إلى محاضرة أو ندوة ، فيكون معهما لمثل هذه الدعوات قاسم الهلال ، وأصحاب آخرون كانت تميمه تتعرّف إليهم واحداً بعد واحد : أحمد عدنان ، أبو العافية يسمّيه هاني لطفاحها على وجهه . ولطفي الزحلاوي أبو الحماسة . وأحياناً لميا شارون . « لميا شارون تصحب أبا الحماسة وعينها عليك ! » هكذا، كانت تقول تميمه لهاني . فيشيل هاني

بحاجبيه ولا يقول شيئاً .

وما أحفل ما كان الموسم بالمحاضرات والمناظرات ، والحلقات والندوات !

قال قاسم :

– كالقِدر تغلي بيروت . والقدور على النار في عواصم العرب كلّها . المهمّ ما نطبخ .

وهتف أبو الحماسة :

– منذ حزيران ينحني العرب تحت وطأة الهزيمة . يتراجعون ويتنازلون . يتوسّلون حيناً وحيناً يتهددون . يتكلمون يتكلمون . ويتضاءلون يتضاءلون . وإسرائيل في سيناء ، على ضفّة الأردن ، على مرتفعات الجولان ، في قلب القدس . فوق الرؤوس صيحاتها . وقنابلها من طرف في البلدان العربية إلى طرف .

قال هاني :

– ولن توفّر لبنان .

وغرس بصره في الأرض .

– يُخيّل إليّ أن الفدائيين لا يضربون الصهيونيين بقدر ما يضربوننا نحن العرب في صميمنا . إنهم يوقظون ضمائرنا بالرصاص .

هكذا كان يقول . كانت تحب الاستماع اليه يتحدث في السياسة . تحب كذلك أن تستمع إليه يتلو أُمثولته في صفّه . تمنّت لو تحضر ذات يوم درساً في كلية الهندسة في الجامعة اليسوعية . ألا يؤذن لها بذلك ؟ أن تجلس إلى جانبه . أو لا ، بعيدة عنه ، في آخر القاعة . غريبة . لا تكلّمه . تكتفي بالنظر إليه . تكتب له ورقة ، تلفّها وترميه بها على غفلة . ماذا تكتب في هذه الورقة ؟ أي شيء . الأشياء التي تخرطشها على رمال الشاطئ . على دفتر الخرطوش... لا تكتب شيئاً . ترميه بالورقة على رأسه كما رماها الأزعر بحجره . وحينئذٍ يدير وجهه فترى عينيه ، فعيناه تبتسمان ، والدنيا جميلة ، والحياة رائعة...

– وأُستاذ اللغة العربية عندنا يلفظ الضاد دالاً . يجب أن تحضر معي الصف في دار المعلمين والمعلمات . يعلّمنا الأستاذ لغة الداد !

– لعلّها كانت كذلك في الماضي ثم تطورت وانفصلت عن الدال . أو لعلّه يختصر من الأبجدية الضاد . أو يخفف من سمنتها .

وتضحك ملء فيها . وتحدّثه عن رفيقاتها ورفاقها .

عن كتبها وعن كل الكتب .

عن الشمس والمطر .

عن أبي عزيز اليافاوي .

– لم أُخبرك بغرامي . أبو عزيز اليافاوي . « أبو شرشور » ، ينادونه على البور ، اليافاوي أبو شرشور .

وجعلت تقصّ عليه القصة .

– أبو شرشور اليافاوي عتّال كغيره من عتّالة البور ، وكلّهم أبو شرشور ، يعني السنارة الكبيرة المعلّقة برأس الحبل ، تلك التي بها يشكّون الأكياس لحملها على ظهورهم . لماذا يقولون له أبو شرشور دون الآخرين ؟ لا أحد يعلم . ربّما لأنه يلقي شرشوره على صدره ويلقيه الآخرون إلى الوراء . يفضّل هو أن يناديه الناس أبو عزيز . عزيز حاجب النقابة وساعيها وحارسها . أبوه يقول له أبو العز ، ونحن في النقابة أبو الهول . أنا أطلقت عليه اللقب . غير السلام وأمرك يا آنسة لا أسمع منه . وما عدا ذلك فهو وراء طاولته بباب المكتب ، مع الترانزيستور ، وعيناه شاخصتان الى الأفق . – عاشق يا أبا الهول ؟ سألته يوماً . فأدار إليّ وجهه الأسمر الهادئ وعينيه الحالمتين ، ولم يقل شيئاً .

ذات مساء جاء أبو شرشور إلى النقابة فوقف بالباب . قال إنه يجب أن يكلّمني .كان أبول الهول قد خرج في مهمّة ، وكنت وحدي في المكتب . يجب أن أعرّفك على أبي شرشور اليافاوي . مارد في قامته ،

وبشرشوره يشيل ما لا تشيله إلا الرافعات . كانت عيناه وحدهما تظهران في وجهه نقطتين حمراوين ، وسط كتلة كثّة يختلط فيها شعر الرأس بشعر اللحية بغبار الفحم . وثغرة إذا تكلم فهي فمه ، بسنّين بارزتين صفراوين . حافياً كان . هل انتعل في زمانه ، أو انتعل أحد من عتّالة البور ، غير ما حاكته السنون في أكفّ أقدامهم ؟ وشرشوره يلمع على صدره العريض العاري ـ قلادة ـ فدعوته أن يتقدم ويخبرني بما يريد .

خطا خطوة ثم ثانية ، فعبقت الرائحة في المكتب :

ـ أمّا وعدتني يا أبا عزيز بأنك لن تدخن حشيشة ؟

فعض الشرشور بسنّيه وجمجم :

ـ من أجل هذا جئت . جئت أُخبرك أنني لا أقدر . لا أقدر أن أترك الحشيشة .

قلت :

ـ يا عيب ! يتركها أصحابك ولا تتركها أنت ؟

ضحك بمرارة :

ـ تصدّقينهم ؟ نقلوا الغرزة من قبو الدكان لخلف العنابر . هذا كل ما عملوه ليداوروا الشرطة . يقولون إن النقابة عيّنت عليهم جواسيس، ما اكتفت بشرطة الحكومة . يتّهمونكِ أنك أنت صاحبة الفكرة . يقولون : من أين نزلت هذه المخلوقة على رؤوسنا ؟ يجب أن نتخلص منها ومن جواسيسها . لا يحبّونك . لا يحبّونك يا آنسة .

ـ وأنت يا أبا عزيز ؟

ـ أنا أحبّك . ولكني لا أقدر أن أترك الحشيشة .

ـ تقول لي قبل كل شيء لماذا تحبّني وبعد ذلك نرى في أمر الحشيشة . تعال اجلس على هذا الكرسي جنبي وقل لي لماذا تحبّني .

ـ أقول لك لماذا لا أقدر أن أترك الحشيشة . الشيء واحد . إمّا هي وإما الحشيشة . وهي لن تعود . لن تعود . تفهمين الآن ؟

ولمّا قلت له إنني لا أفهم شيئاً ، وإنني أُحب أن أعرف مَن هي هذه التي لن تعود ، اختنق صوته ، وهطلت دموعه تغسل وجهه ـ لعلّه لم يغسل وجهه قط بغير الدموع ـ وجلس على الكرسي وأخبرني .

أخبرني أن هذه التي لن تعود ، التي من أجلها لا يقدر أن يترك الحشيشة ، ابنته . قتلها اليهود نصب عينيه في يافا يوم الرعب من سنة ١٩٤٨ . دخلوا بيته ، قال ، في طرف المدينة بين بساتين البرتقال . مع الفجر دخلوا بعد ذهاب أُم عزيز إلى العين لتملأ جرّتها ومعها أبو العز وهو في الثانية من عمره :

ـ كبّلوني بالحديد ، بعد أن هدّدوني برشاشاتهم ، وحاولوا اغتصاب عدلا . كان اسمها عدلا . وكانت ابنة اليافاوي . لم يقدروا عليها . كانوا ثلاثة من عصابة الأرغون .

وتلعثم أبو شرشور في رواية المأساة واختلطت كلماته بالشهقات . علمت منه أنهم بعد أن كبّلوه بالحديد وربطوه إلى الباب اقتادوا عدلا خلف البيت . وكان يسمع صراخها ولغطهم . ثم علا اللغط ومعه شتيمة كبرى ورصاصة ! وبعدها انقطع صراخ عدلا وتلا ذلك قهقهات . وعاد اثنان من الجماعة ففكّا رباطه ودفعا به إلى حيث رأى عدلا مسجاة على الأرض وفوقها الجندي الثالث يريد أن ينال منها ميتة ما عجز عنه الثلاثة وهي حيّة . فاقتحمه يريد تمزيقه فتدخّل الآخران فقذفا برفيقهما إلى السيارة وراحوا .

ـ كانت في مثل سنّك ، قال لي ، وفي مثل قامتك وسمرتك . ولها رأس مرفوع كرأسك . أرى عدلا كلّما رأيتك ، ولذلك أُحبّك . ولذلك لا أقدر أن أترك الحشيشة .

كان أبو شرشور على حقّ في تحذيري . فبعد يومين ، بينما أنا خارجة من المكتب والدنيا بدأت تُظلم ، إذ لمحت عتّالين يتبعانني . غيّرت وجهة سيري فغابا عني وظننت أنني أتوهّم ، فإذا هما قد لاقياني من ناحية

أخرى وطلعا بوجهي . وما كادا حتى رأيت أبا شرشور ينقضّ عليهما ، وكأنه ينقضّ من السماء ، ويطرحهما أرضاً ولم يتركهما إلاّ بعد أن أشبعهما ضرباً ، مقسماً بالله العليّ العظيم أنه قاتلهما إذا تعرّضا لي بعد اليوم بسوء .

أين كان ؟ لا أعلم . كل ما أعلمه أن أبا شرشور يترك منذ ذلك اليوم عمله ويجلس القرفصاء على درج المكتب لا يفارقه ما دمت في عملي . فإذا خرجت قام ومشى ورائي حتى أصل الى محطة السرفيس وأركب السيارة . فيعود إلى حشيشته .

قال هاني :

ــ الحياة الأخرى ، قلت لك . الأفلام السينمائية والكتب الروائية التي تحبّينها . كلّها حشيشة . رائع أن يعيش الإنسان حياة أخرى ؟ الأروع أن يعيش حياته .

ثم :

ــ حتى الغرفة التي أسكنها في بيروت ، لأنها معارة فأنا أكرهها . مؤجّرة ، ليست لي ، ما هي مني ولا أنا منها .

ــ عدنا إلى دير المطلّ ؟ صحيح أنك مهندس ، وستبني لك بيتاً في بيروت . بانتظار ذلك أُحب أن أزورك في غرفتك هذه التي ليست منك ولست منها . تقبلني ؟

لم يجب .

أيّ شيء حملها على قول هذه البلاهة ؟ حاولت تغطيتها بضحكة ، ولكنه تجاهل ذلك أيضاً . مضى يقول :

ــ أحلم باليوم الذي يصير فيه كل الناس مهندسين في لبنان وفي العالم . ليس من الضروري أن يهندسوا البيوت والعمارات . الهندسة معاونة للخالق .

ــ حضرة معاون ربّنا !

أسعفها قوله على التغطية فضحكت هذه المرّة عالياً . وهو يتابع :

– هندسة النفس أولاً . ألا تعتقدين أن الإنسان مهندس نفسه وباني حياته ؟

قال ذلك وحدّق إليها . كانت تلك المرّة الأولى التي لا تبتسم فيها عيناه ابتسامتهما . ولم يدعها تقول شيئاً ، وما كانت قادرة على قول شيء . وفجأة :

– تريدين أن تزوريني في غرفتي ؟ سنؤسّس اتحاداً لرابطات الطلاب في جامعات بيروت الأربع ومعاهدها العليا . تدخلين رابطة دار المعلمين والمعلمات . وتأتين لزيارتي بعد انتخابك عضواً في مكتبها .

١١

حينما خرج رمزي رعد من السجن بعد أن أكمل مدته ، وعاد ذلك الصباح إلى غرفته في الحمرا ، بادرت روز إلى إخباره بأن البك دفع عنه إيجار الغرفة عن الأشهر الثلاثة . فلم يعلّق على ذلك بحرف ولم يجد سبباً للشكر .

كان المال عنده محتقَراً كسائر القيم التي تواضع عليها الناس .

وعلى الغداء الذي أقامه له أكرم الجردي على الشاطئ في اليوم نفسه نوقشت بين الرجلين تفاصيل الحملة على شوكت بك اليغموري ورُسمت لها الخطة : يذهب رمزي إلى البقاع فيقيم عند أكرم في كفر زروع أُسبوعاً يتجوّل خلاله في أنحاء المنطقة ويكتب بما يرى ويسمع . ويضع المحامي بين يدَي الصحافي سلسلة من الوثائق ويجمعه بطائفة من الشهود . على أن تبدأ الرحلة بعد أيام ، فقد أضرّ السجن في صحته وبدا تعباً على الغداء .

في المساء لاقته تميمه إلى المقهى المعتم في الحمرا . كانت قد زارته في سجنه في اليوم السابق لخروجه منه ، واتفقا على الموعد .

لبثت إزاءه، شأنها بالأمس، في المتّكأ ذاته. وهو يجرع الكأس من الوسكي إثر الأخرى بنهم المحروم. وطلب عشاء ولكنه لم يتناول منه إلا القليل. يعود إلى الشراب ويقول إنه افتقد في سجنه هذه القنينة. أمّا النساء؟ النساء! — ولم يذكرها هي على التعيين — فإنه يحتقرهنّ. ويحتقر نفسه. ولا يؤمن بالحب.

— إنسي ما كتبته إليك عن الحب. مزّقيه! أحرقيه!

وقال إنه تعرّف في السجن إلى أشياء. رأى أشياء وسمع أشياء.

— سأكتبها كلّها.

وسيقول رأيه في الحكومة، في الحكومات، في المحاكم، في السجون والمساجين، وفي حشرات الأرض وديدانها.

— صدّقيني. الإنسان أحقرها جميعاً.

كان في عينيه خلف النظّارتين غمامتان، مع رجفة في شفته السفلى ونقرة من أصابعه على الطاولة كأنّما هو يعالج آلة موسيقية ويشدّ أوتارها.

الغيرة، ما في ذلك شكّ. وها هو يحدّق إليها تحديقة ويقذفها بشراراته، تلك التي تحرق، كأنّما هو يدعوها إلى الإقرار. إلى التعرّي.

فأخبرته عن الوظيفة. أقسمت له أغلظ الأيمان أن علاقتها بأكرم الجردي لم تتعدّ نطاق الوظيفة سعياً إليها وشكراً عليها. وكانت قد عزمت أن تخفي عنه أمر الهدية فإذا هي تبوح به تأكيداً. وأفاضت في موضوع سكنها عند ماري أبو خليل وصحبتهما القديمة في المدرسة والصداقة التي تجمع بين العائلتين منذ زمان. ولكنها لم تذكر دار المعلمين والمعلمات ولا الجامعة ولا الدروس من حيث هي، فكأن كل ذلك عالم آخر لا يعنيه، ولا يعنيها إذا اجتمعت به، بكثير ولا قليل.

كانت تعدّد له ما تعدّد وهي تسمع لنفسها وكأنها تسمع لشخص آخر، عارفة أنها تتشاغل بكل ذلك عن الحدث الذي ينتظرها، عن الوصال

الذي تمشي إليه ، هنا خلف المقهى ، على بضع خطوات ، في تلك الغرفة . في ذلك السرير .

وعرتها رجفة ، فأغمضت أجفانها .

التينة خلف البيت في المهديّه ، وهي طفلة ابنة عشر سنين ، تتسلّق التينة لاحقة ببواكيرها ، تقطفها خطفاً وتلتهمها بلعاً . وقد سبق لأمها أن حذّرتها : إياك أن تطلعي إلى التينة ! عليها أن تغنم ما تغنمه قبل أن تبغتها أمها . تمضي في شأنها تصعيداً ، حافية ، وعلى مواطئ قدميها ندى الصباح البارد يتحلّب على الأغصان . تزلق قدم وهي تهمّ بغصن بعيد وتتبعها الأخرى على الأثر ، فإذا هي مدلاّة في الهواء ، وتحتها الوادي الكلسي الأبرش ، وهي تترجّح فوقه وتحاول أن تحطّ أيّاً من قدميها على أي من أغصان التينة فلا تستطيع ، وتخور قواها ، وتفغر لها الهاوية فاها...

تناديها الهاوية ...

سمعتها تناديها : « لو تُرخين يديك ! » وما هي إلاّ أن أرخت يداً — استجابة للنداء الرهيب أرخت يدها أم هي اليد على غفلة منها خانتها ؟ — واذا هي الآن معلّقة باليد الواحدة ، وإذا هي من رأسها في دوار الخُذروف ، لا تسمع إلاّ قلبها المتدافع ولهاثها المتدارك ، وعيناها في أشداق الوادي . — « أمي ! » صرخت . وتريد أن تغمض عينيها لئلا ترى ، فاذا عيناها تنفتحان بالرغم منها ، كبيرتين تنفتحان ، هائلتين تنفتحان ، وتبتلعان الهاوية .

لحظة الرعب هذه لكأنها تعيشها الآن .

أي شيء يبعثها ويملأ بها كيانها بعد أن نسيتها دهراً ولم تفكّر فيها إلاّ على سبيل التفكهة بما يحدث للأطفال ، والتندّر مع رفيقاتها بما لحقها بعد ذلك — وقد أدركتها أُمها على آخر جهد — من ضرب ونصح ، فضلاً عن شماتة أخيها ، على أن لا تعود إلى مثلها أبداً ، فالله قد لطف هذه المرّة .

وها هي تعود ...

كان رمزي يصغي إليها وكأنه هو الآخر في عالم بعيد .

سكت مثل سكوتها .

كان يفكّر بالساعة التي لا يتكلّمان فيها . لا يسمعان ولا يريان .

وبالرغم من أنها قد وطّنت نفسها ، قبل المجيء ، على التذرّع بعذر من أعذار النساء ـ كاذب ـ فقد قامت وراءه ومشت... إلى حيث يريد وتعلم .

دفتر الخرطوش .

في ٢٩ تشرين الثاني ـ أحسست اليوم للمرة الأولى بصقيع الموت . رأيت الحب ممدداً على السرير بلا روح . بشعٌ الحب بعد موته ، ككل الجثث ، وله رائحتها .

١٢

« طلاّب العالم كلّهم ثاروا . فمتى ثورتكم يا طلاّب لبنان ؟ »

هذا هو النداء الذي أطلقه رمزي رعد في « الصباح » بعد الإفراج عنه . وتردّد النداء في كثير من الصحف ولهجت به الأندية .

كانت الجامعة اللبنانية ، لحداثة عهدها وحاجتها لاستكمال مقوّماتها ، في طليعة المؤسسات التعليمية التي نشطت إلى الحركة . فتقدّم الملتحقون بها بمطالب لهم وأعلنوا الإضراب .

وكانت دار المعلمين والمعلمات مركزاً هاماً من مراكز التجمع وتداول الرأي ، تنعقد الحلقات في قاعاتها وساحاتها ، وتقوم فيها تميمه بدور بارز بعد انتخابها بالإجماع عضواً في الرابطة وتُطلع هاني على ما يدور فيها .

وكانت الحركة في دار المعلمين والمعلمات واعية رصينة، لبعدها عن الأغراض الحزبية والمماحكات العقائدية التي طغت أمواجها في أوساط عديدة من جامعات بيروت ومعاهدها. فالمطالب حيوية تبدأ بإلغاء قاعدة التوازن الطائفي في قبول الطلاب وتنتهي بتعميم الضمان الصحي، مروراً برفع مستوى الأساتذة وإشراك ممثلين للرابطة في مجلس الإدارة.

وبالرغم من عدالة هذه المطالب تردّدت السلطات في الاستجابة لها، فألحّ المضربون ودعا بعضهم إلى التظاهر وبعضهم إلى الاعتصام. ولم تلبث الحركة أن اتّسعت، وسمَت أهدافها عن شؤون الدراسة إلى شؤون الوطن وقضاياه الكبرى، ونظّم الطلاب سلسلة من المحاضرات دُعي لإلقائها نخبة من أساتذة الجامعة والمفكرين في موضوعات اجتماعية وثقافية وتاريخية، بينها واحدة عن «الطائفية في القديم والحديث» اقترحتها الرابطة بناء على طلب تميمه وحرص هاني على الاستماع إليها.

سألته:

– وأخبار الجامعة عندكم؟

– لم نرَ لزوماً للإضراب. كان هذا رأيي في كلية الهندسة. الأمر عندكم يختلف.

– يظهر أن الإضراب سيشمل الجامعات كلّها لسبب أو لآخر.

– نريد أن نعرف قبل أن نضرب لماذا نضرب. أنتم في دار المعلمين والمعلمات مطالبكم واضحة وكلّنا معكم.

بعد المحاضرة عن الطائفية انتظمت في مقهى الدار حلقة كان اسم الجامعة الأميركية يتردّد فيها. الطلاب يتزاحمون حول طاولة كبيرة بسط عليها أحدهم جريدة (*) وهو يتلو عليهم نتائج تحقيق قامت به مجلة «أوتلوك» في قسم الأبحاث من الجامعة المذكورة، فطرحت على الطلاب في كلياتها سؤالين.

ورفع القارئ صوته :

ـ السؤال الأول : هل أنت مع أو ضد الزواج بين أبناء الطوائف المختلفة ؟

ـ السؤال الثاني : هل أنت مع أو ضد الزواج المدني ؟

هدأت الجلبة وأرهف الجميع أسماعهم فالموضوع خطير . هاجس هو في النفوس منذ زمان ، ولكن هي المرّة الأولى يخرج فيها إلى العلن ، ويُدعى الجيل بنخبته المثقّفة إلى مواجهته في استفتاء علمي .

قالت تميمه لازّة بهاني :

ـ البحث عند الإخوان في الزواج وفي العواطف القافزة فوق الأسلاك الشائكة ألذّ بكثير من أبحاثنا نحن .

وكان بودّها أن تطرح عليه السؤالين : « وأنت ، ما رأيك » ، ولكن أحدهم كان قد اقتحم الحلقة وشقّ لنفسه بينها وبين هاني . فحدّجه هاني وفسحت تميمه في المجال متجاهلة الأمر . وألقى الثقيل بكوعَيه على الطاولة مسنداً عليهما رأسه ، ثم دفع فكّه الأسفل مقاطعاً القارئ :

ـ الأسماء . الأسماء . ألا تذكر الجريدة الأسماء ؟

فأسكته الآخرون مستهزئين واكتفى القارئ برفع عينين ملؤهما الرثاء . وعلت أصوات :

ـ أكمل . أكمل .

فاستأنف :

ـ يتبيّن من الأرقام المثبتة أعلاه ...

فعاد المتطفّل إلى المقاطعة :

ـ من فضلك أعد علينا هذه الأرقام .

فتابع القارئ كأنه لم يسمع :

ـ إن الأكثرية الساحقة من الطلاب ، ذكوراً وإناثاً ، يؤيدون الزواج بين أبناء الطوائف المختلفة ، والأكثرية الساحقة منهم يؤيدون كذلك

الزواج المدني . ولكن نسبة المؤيدين تختلف باختلاف الطوائف من جهة ، وباختلاف الجنس من جهة أُخرى في الطائفة الواحدة .

وهذه هي خلاصة التحقيق :

٧٨,٦٠ ٪ يؤيدون الزواج المدني مقابل ٢١,٨٥ ٪ يعارضون .

وتوقّف قليلاً يترك للسامعين استيعاب الأرقام النسبية . ثم استأنف القراءة :

– « وهذه الأجوبة مفيدة من حيث إنها تبيّن موقف النشء من الطائفية ومن الأوضاع الراهنة والتقاليد المتّبعة . وهي تعني أن تغيّراً كبيراً قد طرأ على الأفكار . وأهمية هذا التغيّر أنه صادر عن الأوساط الجامعية أي عن النخبة التي ستصنع المجتمع الجديد » .

ارتفعت الأيدي بالتصفيق من جانب ، وتبعتها أُخرى . واقترح فريق إجراء مثل هذا التحقيق في الجامعة اللبنانية وسائر الجامعات والمعاهد العليا في بيروت ، والخلوص من جملة التحقيقات إلى مطالب محدّدة تُرفع إلى السلطات لسنّ قوانين بهـا . فتصدّى المتحرّش ضارباً بجمع كفّه على الطاولة :

– كل هذا كلام فارغ !

– بل أرقام . الأرقام ليست كلاماً فارغاً .

– أرقام في الهواء !

– الأرقام لا يمكن أن تكون في الهواء . الأرقام حقيقة رياضية .

– الحقيقة هي الرؤوس . أريد أن أعرف الرؤوس التي تدور فيها مثل هذه الأفكار . أريد أن أرى الوجوه لا الأرقام .

– يعني !

– يعني !

وتعالت الأصوات تتحدّاه من كل صوب .

– يعني أتناول كل واحد من الطلاب والطالبات باسمه واسم أبيه

وأمه وعائلته وأسأله السؤال . حينئذٍ أُريد أن أرى جوابه .

وانتصب على قدميه . فتململت تميمه تريد الانصراف ، فإذا به يستدير ويشير إليها ، هي ، بإصبعه :

ــ أنتِ ، مثلاً ، تميمه نصّور الشيعية المسلمة من المهديّه ، هل تتزوجين هاني الراعي الماروني المسيحي من دير المطلّ ؟

وألقى يده على كتف هاني .

كان واضحاً أن المتنطّع يريد شرّاً . وكالغدير يُلقي فيه بحجر ماجت الجماعة حول المائدة واتجهت الأنظار إلى هاني وتميمه ، وقد همّت هي بالجواب ، فأشار عليها هاني بالهدوء .

ــ إرفع يدك عن كتفي !

قالها دون أن يلتفت . هادئاً . ولكن الآخر تلكّأ . فمدّ يده ونتر عن كتفه اليد المتطاولة وهبّ واقفاً .

وساد سكوت رهيب .

لم يكن بدّ من اتّقاء العاصفة فقال أحدهم :

ــ نحن في صدد بحث علمي لا علاقة له بالخصوصيات .

وأمّن آخرون . ورأى ظريف أن ينقذ الموقف .

ــ كان ينقصنا المستر أوتلوك ليجيء ويعمل لنا مشاكل .

وهاني يتفرّس بصاحبه ولا ينبس .

حينئذٍ قام القارئ عن كرسيّه وأقبل اثنان من رفاقه فتعاون الثلاثة على إبعاد أبي السؤال السمج عن الحلقة . ثم عادوا يذكرونه بالتقريع عالياً ويهزّون الرؤوس .

ولكن الحلقة كانت قد أخذت في الانفراط .

وقام هاني وقامت تميمه .

سألها :

ــ أتعرفينه ؟

– حسين القمّوعي .

وأخبرته بخبره . حجّته أنه ابن خالة أبيها ووكيل أخيها ، في غيابه ، عن شرف المهديّه !

كان الوقت قبيل الغروب . فعرض عليها نزهة بالسيارة .

١٣

إنطلقا في طريق طرابلس .

وما كادا يخرجان من إنطلياس حتى لاقتهما أنسام من البحر تدفّئها شمس باهرة . كانت السماء زرقاء بعد أيام تلاحقت بالمطر والعواصف ، ومن الأرض يطلع فوح عجيب ، وهدوء لا يقطّعه إلا هدير سيارات نادرة ، ثم تعود الأمواج المتكسّرة على الشاطئ بأنغامها المتوازنة .

سكت هاني عن الحادث فلم يعلّق عليه بكلمة . عاد إلى مظانّه : دير المطلّ وما يدور حول دير المطلّ . قال إن عليه أن يطلع إلى دير المطلّ بعد أُسبوع . فالأصحاب الصغار ينتظرونه لتنظيم منهاج الأعياد . وفي ثاني الميلاد يقدّم تلاميذ المدرسة مسرحية « فخر الدين وكيوان » :

– تأتين إذا وجّه إليك قيدوم دعوة ؟

كان بادياً عليه أنه غارق في تأملاته . سألها في زيارة دير المطلّ كأنه يسألها في شرب قنينة كولا ، لم يلتفت صوبها ولا أعار الأمر أي اهتمام .

كيف لا تلبي الدعوة من ... قيدومه ؟

وتابع وقد تكلّف الابتسام :

– معلّم المدرسة هو مؤلّف الرواية . حسيب المبيّض – إياه – المسلم الشيعي من النبطية الذي يعيش في الدير مع الرهبان . كان معه في الدير أيضاً أخوه الصغير محمود ، جاء به من النبطية ليكون تلميذه . سيأتيك

خبر حمدو الذي كان نسخة عن أخيه في عمره ... وقع الحادث قبل أسبوعين . نهار الأحد . أيّ نهار حزين !

وسكت هاني مُشيحاً بوجهه . ثم أشار بيده إلى رابية صوب الشرق عليها تمثال كبير يرتفع في السماء وقال :

– سيّدة لبنان . تعرفينها ؟ أو سيّدة حريصا . قلت للمعلم حسيب : الأحد المقبل نذهب بأصحابنا الصغار إلى حريصا لزيارة سيّدة لبنان . حملنا زادنا ومشينا نغنّي لا نعرف ما كان ينتظرنا في ذلك النهار الذي لن ننساه ما حيينا . لم يذهب معنا المعلم جان لشغل طرأ عليه . وبقينا نغنّي حتى وصلنا إلى قعر الوادي ، إلى نهر صغير يفصل بين المتن وكسروان ، وكان علينا أن نعبره ، فشكل المعلم حسيب ثيابه ووقف على صخر في النهر يمدّ بذراعيه إلى الصغار من التلاميذ ويتلقّاهم على التوالي ، فيما سبقت أنا على رأس كبارهم متابعين طريقنا . لم نبتعد إلا قليلاً حتى سمعنا وراءنا صراخاً أن حنا سليمان وقع في النهر والمعلم حسيب رمى نفسه في الماء لإنقاذه . فركضت وركض مَن كان معي فرأينا حنا إلى جانب من النهر كالدجاجة المبلولة وهو يبكي مشيراً إلى حيث هرعنا حول الصخور نتطلّع . فإذا المعلم حسيب يخرج من النهر وهو يحمل أخاه محمود ، ومحمود تلوّح ذراعاه ورجلاه في الهواء . فتعاونّا على رفعهما وبسطنا محمود على الأرض نحاول ردّ التنفّس إليه بوسائلنا ، وأرسلنا قيدوم إلى أقرب بيت يتلفن منه لطلب طبيب... ولكن محمود كان قد فارق الحياة ... لم يقل لي المعلم حسيب شيئاً . عرفتُ وعرفت ديرالمطلّ من الأولاد تفاصيل الحادث : أبى محمود وحنا – وكانا رفيقين متلازمين – إلا أن يجتازا النهر معاً ، فتماسكا بالأيدي وزلقت قدم أحدهما فسقطا معاً في فجوة من فجاج النهر الدافق . وبدلاً من أن يهرع المعلم حسيب لإنقاذ أخيه انتشل حنا أولاً ، ولمّا عاد الى محمود تبيّن أنه وصل متأخراً .

بدا التأثّر على تميمه ، فابتسم هاني ابتسامته ، تتردد هذه المرّة بين

الفرح والحزن :

– كنت أفضّل أن لا أحكي لك هذه الحكاية . ولكن صاحبك القمّوعي ...

وتفرّس هاني بتميمه :

– القمّوعي عندكم كالمختار عندنا بقية من حكمت بك . من الأتراك . من السنة الستين . يدعون الطلاب إلى الثورة ؟ هذه هي الثورة التي ينتظرنا لها لبنان . بعد عهد التصادم بين المسلمين والمسيحيين الذي استمرّ حتى في ظل الانتداب الفرنسي ، وبعد عهد التعايش السلمي والتوازن البهلواني منذ الاستقلال ، جاء اليوم دور الاندماج بين الطوائف . وشائج الدم التي طرحت مؤسسة أوتلوك مسألتها علينا . إنها مسألة لبنان .

وفجأة أوقف سيارته ، قال :

– ننزل .

وأخذ بيدها في ملاقاة البحر .

كانت الشمس قد غابت وسرى في الجو برد المساء . والهواء يهبّ على شاطئ طبرجا القفر حاملاً رذاذ الأمواج . وفي صدرها تتدفق أمواج كهذه الأمواج الهادرة وتلاقيها .

ثم صكّ الهدير أُذنيها ، وعصف الهواء يضرب وجهها ويعبث بشعرها . وهاني ما يفتأ آخذاً بها فتندفع صائحة بلا وعي .

وأسراب من النورس تحوم لائصة في كل صوب .

أمن خوف تصيح هكذا ؟

أم من تحدٍ ؟

أم من فرح يغمرها حتى الطفاح ؟

في فمها طعم البحر خمراً . سكرى هي ، طائرة مع هذه الطيور التي تعلو وتهبط بين الأرض والبحر والسماء ، ولها ألف جناح ، ومعه ستمضي هكذا إلى غير أين ...

ولكنه يُفلتها فجأة ويمضي وحده . قامته تشقّ جلباب المساء فارعة ، وخُطى له واسعة تتأثّرها على الرمال اللزجة ، وتناديه فلا يلتفت ، فتتوقف وتمدّ بصوتها في وجه الرياح والأمواج :

ـ هاني ! هاني !

فلا تسمع غير الأمواج تكرّ على الشاطئ ، والرياح تغنّي في قصباته .

وسرت في بدنها قشعريرة . خُيّل إليها فجأة أن الأمواج تنوح وأن القصبات ترقص تحت سياط الرياح رقصة فاجعة .

وهو يمضي... وماضية هي وراءه . ماضية . لم تشعر إلا وقد وقعت تعضّ الرمال .

حينئذٍ ارتدّ يلاقيها ، فلبثت مطرحها لم تحاول النهوض ولم تمدّ يداً . فانحنى وحملها بذراعيه أرادت أن تضحك فانفجرت بالبكاء .

كانت ترتجف بكل أعضائها . فلمّا حطّها في السيارة ارتمت تدفن وجهها في حضنه . وهو ساكت ، وهي ساكتة إلا جهشها .

حتى اذا أحسّت كفّه على شعرها انقلبت مرّة واحدة فطوّقته بذراعيها الاثنتين في قبلة عظيمة .

١٤

كانت الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم موعداً لاجتماع رابطة دار المعلمين والمعلمات للنظر في الإضراب ، وكان الاتجاه واضحاً لوقفه بعد أن استجابت السلطات لمعظم المطالب . وكذلك الشأن في سائر كليات الجامعة اللبنانية .

فليقف الإضراب إذا شاء ، أو فليستمرّ إذا طاب له ! إن تميمه لن تخرج يومها . ستبقى في سرير أحلامها واصلة الليل بالنهار . وستنتظر

ماري لتخبرها الخبر الذي وعدتها به .

وكانت ماري قد تلفنت لها منذ العشيّة بأنها ستضطر إلى النوم في المستشفى لعملية جراحية طارئة ، على أن تأتي في الصباح ، وها قد جاوزت الساعة الثامنة وهي لا تعرف أن تجيء .

ضربت تميمه بيدها إلى ديوان شعر . « أزهار الشرّ » . كانت تحفظ أكثر قصائد « بودلير » عن ظهر قلب . مهاويه السحيقة ، أجواؤه الحارّة العابقة ، سكاكينه القاطرة دماً وخمراً ، كانت تحبها ... وجعلت تقلّب . هـــذه القصيدة ؟ لا . ولا هذه ... ولا هذه ... بل أخرى . أخرى . مختلفة عن هذه كلّها . قصيدة يغنّي فيها . أي شيء يغنّي فيها ؟ يغنّي ، لا يصرخ ، لا يلعن . يغنّي للبراءة ، للفرح ، لشعاع الشمس الدافئ بعد العاصفة . يغنّي لزهرة بريّة . لعصفور أزرق حطّ على شبّاكه ... تقلّب، تقلّب ولا تعثر عليها .

أتكون قد قرأتها في ديوان آخر ؟ مَن هو الشاعر الذي يغنّي تلك الأغنية ؟ لعله « إليوت » . أجل هو إليوت . وهمّت بالقيام إلى رفّ في الدار تضع فيه صفاً من الكتب الجميلة . ثم تثاقلت مطرحها .

أطبقت أجفانها فجاءها بيت صلاح لبكي :

أطيبُ ما في الشعرِ أنشودةٌ   تبقى بلا وزنٍ ولا قافيَه

أفاقت على التلفون يرنّ مالئاً البيت . مَن هو المعكّر ؟ لن تجيب على أحد . تميمه نصّور ليست هنا . أفاهم ؟ ليست هنا ! ولا في بيروت ، ولا في صيدا ، ولا في المهديّه... والتلفون ينادي . لا يسكت . لا يتعب . بعناد عجيب يواصل رنينه .

وإذا كان هاني المتكلم ؟ تذكرت أنها أعطته رقم تلفونها . فوثبت إلى السماعة .

رمزي .

صعد الدم إلى أوداجها كأنها فوجئت في ريبة . يريد أن توافيه هذه

الليلة . سيكون بانتظارها ، قال ، وكرّر . بقيت خرساء . فأعاد يطلب منها تأكيداً ، فأقفلت التلفون ومضت ترتدي ثيابها . دقيقة . دقيقتان . ورنّ مرّة ثانية . هو بلا شكّ . لن تردّ .

وخرجت إلى اجتماع الرابطة .

على العشاء امتدّ الحديث بين تميمه وماري .

— الغرام حلو يا تميمه مع صاحبك لو لم يكن لك أخ كجابر ، ووكيل له في غيابه كحسين . إنزعي هاني الراعي من فكرك ، ومعه الآخر طبعاً . لا هذا ولا ذاك أُريده لك .

ويتكرر الحديث كل يوم بين الصديقتين ، ويشغل السهرات إلى ساعة متأخرة .

دفتر الخرطوش .

١٤ كانون الأول — أريد مكاني في الحياة قبل مكاني في المجتمع . هاني لا يوافقني على هذا . اختلفنا اليوم مرّة أُخرى . « لا حياة خارج المجتمع » قال .

كانت متوتّرة ذلك المساء . لا يزال في دير المطلّ . لم يتلفن . لم يسأل عنها .

ضربت بيدها إلى الطاولة جنب السرير وتناولت بطاقة من هذه البطاقات المكدّسة . دعوات إلى محاضرات وندوات . طواحين بيروت المجعجعة . « ولا أرى طحناً » .

على أن الدعوة إلى « وست هول » كانت مغرية : شاعر المراهقات يتحدث إلى المراهقات .

وصلت متأخرة بعض الشيء . كانت رئيسة اللجنة الداعية تلقي كلمتها باسم طالبات الجامعة الأمريكية مقدّمة الشاعر إلى الحضور . فوقفت تميمه بالباب تطوّف بأنظارها، ثم مشت مع الحائط تبحث في الصفوف عن محل

لها . لمحت ظهر رمزي في الصف الأمامي فارتعدت وارتدّت إلى الوراء . كانت المقاعد مشغولة كلّها ، والقاعة تغصّ بالطالبات مع سادة وسيدات من المجتمع وكتّاب وصحافيين وطائفـــة من الطلاب أقبلوا من مختلف الجامعات . واذا بأحدهم – قاسم الهلال – يقوم عارضاً كرسيّه مرحّباً . أرادت أن تعتذر ولكنه كان قد أخلى لها وألقى كتفه على الجدار . كان المكان في زاوية ، أصلح ما يكون لئلا يراها الآخر ...

وأطل الشاعر .

« ثوري ، أُحبك أن تثوري .
ثوري على شرق السبايا والتكايا والبخور .
ثوري على التاريخ وانتصري على الوهم الكبير – لا ترهبي أحداً –
ثوري على شرق يراك وليمة فوق السرير ...
نحن الرجال ، خلاصة الأنانية وشهوة التملّك والإقطاع ...
فلماذا تسكتنَ علينا أيتها النساء؟ لماذا ؟
أليس هناك واحدة منكنّ ، واحدة لوجه الله ، تستطيع أن تردّ لنا الصفعة صفعتين ؟
الحرية التي أطلبها للمرأة هي حرية الحب .
حرية أن تقول لرجل « أُحبك » دون أن تقوم القيامة عليها ، ودون أن يُرمى رأسها في تنكة الزبالة .
نريد أن نردّ جسد الأنثى إليها . فهو حتى الآن ملك التاريخ والأعراف والمؤسسات الدينية والدنيوية ... »

لم يكد الخطيب يصل إلى هذا الحد حتى سرت في القاعة غمغمة . ومع الغمغمة دقّ بالأقدام . وزعق زاعق :

– نحتجّ ! نحتجّ ! لا نقبل هذا الكلام .

فتلفّتت تميمه . زميل لحسين القمّوعي . القمّوعيون في كل مكان .

وإذا به ينتصب واقفاً ويجيل أنظاره في الحفل :

ــ ألا تسمعون ؟ أترضون بهذا الكلام ؟

فجذبه جار له من كمّه :

ــ أُقعد !

وارتفعت أصوات :

ــ أُقعد ! أُسكت !

وهو يمضي في الصياح :

ــ لن أسكت . لن أسكت . أعراضنا مقدسة ! أعراضنا مقدسة !

كانت الموكّلات بالنظام قد أقبلن من كل ناحية . واعتلت رئيسة اللجنة المنبر وأعلنت :

ــ ليس من مقدس هنا إلا الحرية . من لا يعجبه ذلك بإمكانه أن يخرج .

وأشارت إلى الخطيب ، فاستأنف كلامه :

« نريد ان نخلّص جسد المرأة من المزايدات الأخلاقية والعنتريات . فالرجل الشرقي يربط كل أخلاقياته بجسد المرأة لا بأخلاقياته هو . فهو يكذب ، ويسرق ، ويزوّر ، ويقتل ، ويشلّح على الطريق العام ، ويبقى أطهر من ماء السماء حتى يعثر في دِرْج ابنته أو أُخته على مكتوب غرام فيشدّها من ضفائرها ويذبحها كالدجاجة ويلقي قصيدة شعر أمام قاضي التحقيق .

... سيقول المترمّتون إنني أحرّض النساء على الحب .
إنني أُحرّضكنّ على أجمل ما فيكنّ ، وأنبل ما فيكنّ .
أُحرّضكنّ على الارتفاع إلى مستوى الإنسان . » (**)

أثار الحديث حماسة كبيرة . ولدى نزول الخطيب عن المنبر تزاحم الحضور لتهنئته . وشقّ قاسم طريقاً لنفسه بينهم ، فانتهزت تميمه الفرصة وانسلّت من القاعة .

١٥

المرّة الأولى يتكلم فيها أبو الهول متعدّياً السلام وأمرك يا آنسة . دنا من مكتب تميمه واستأذنها في الخروج قبل الوقت ، قال :

– تعذريني يا آنسة . صديق لعائلتنا من يافا ينتظرني الآن ويجب أن أراه .

ورجا منها أن تقفل المكتب وتترك له المفتاح تحت ممسحة الباب . ودفع لها بالمفتاح قبل أن تجيب .

كان في عينيه غير ما تعهد من غياب ، وفي كلامه ثقة لم تدع لها مجالاً لسؤال ، فاكتفت بتناول المفتاح واستأنفت الضرب على الآلة .

ثم أحسّت أنه ما يزال واقفاً إزاءها . فقالت دون أن ترفع وجهها :

– مع السلامة يا أبا العز .

– أبو الهول . كلّهم يعرفون أنك تقولين عنّي أبو الهول . لن أنسى يا آنسة تميمه ...

رفعت نظرها إليه . عمرَها لم تلحظ هذا الجبين الذي له . كان جبينه يضيء تحت غرّته الفاحمة .

– ولن أنسى يا آنسة تميمه أنك أنت لقّبتني به .

وأدار ظهره .

بعد ساعة كانت تميمه تضبّ على أوراقها متهيئة للانصراف . فإذا بالباب الأستاذ أكرم الجردي !

حيّا ودخل بحجّة شغل له مع الأمين العام . بهجت أفندي ليس في المكتب ؟– سينتظره . قال له سيأتي بعد قليل... فرصة لسؤال الآنسة تميمه هل هي راضية عن وظيفتها .

كان مرتبكاً . يعتذر عمّا جرى في بيت مدام خوري . يسألها عن

منزلها الجديد – عرف أنها تسكن مع الممرضة ماري أبو خليل في شقّة واحدة – عن دروسها في الجامعة . يقلّب في الأوراق على الطاولة . ثم بدون أي مقدّمات أُخرى ، يعرض عليها الزواج !

قال إنه قطع علاقته بتلك المرأة . ولم يسمّها . قال إنه يبحث عن شريكة حياة . عن ربّة بيت . عن ملهمة له ومعاونة في كفاحه السياسي . عن أُم صغيرة لابنته ، بل عن صديقة لزينه – «كل ذلك يريده في واحدة . هذا كثير ! » – قال إنها هي تجمع هذا الكثير وأكثر .

قال إنه لا يطلب منها جواباً الآن . سيغيب أُسبوعاً في البقاع لأمر يتعلق بمستقبل المنطقة . بمستقبله هو أيضاً . بالانتخابات النيابية ... سيقرأ الناس عما قريب ، قال ، بقلم رمزي رعد ، أشياء عن شوكت اليغموري وعن اليغموريين تشيّب الرؤوس . البقاع ، قال ، كعكّار ، كالجنوب ، مناطق فيها ما يضع أنف لبنان في التراب . قال : « علينا أن نعمل . أن نعمل » .

... ركضت تميمه إلى الشقّة تخبر ماري وتردد :

– علينا أن نعمل ! أن نعمل ! يعني أنا والأستاذ أكرم الجردي .

ودارت على عقبَيها تترنّم هزءاً ورثاء .

قالت ماري تردّها إلى الجد :

– أعطاك مهلة أُسبوع . فكّري .

– قلت له لا أحتاج لمهلة ولا لتفكير . ولمّا أمسك بيدي يريد تقبيلها قمت عن الطاولة . فراح في سبيله .

١٦

« مجنونة روز ! مجنونة !

بل أنا المجنون ! أنا المجنون لأنني سمعت منها . »

كيد نساء . إذا كان لا بدّ من الانتقام من أُوديت فهل من الضروري أن يكون بالزواج من غيرها ؟

لماذا قام بهذه الزيارة البلهاء ؟

لماذا لم يبقَ في مكتبه ؟ عليه أن يُنهي أشياء كثيرة قبل أن يطلع إلى البقاع . كان قد وعد نفسه بالعمل في الليل لاستكمال دفاعه عن مدير « بنك العمران » — حدّدت المحكمة موعد النظر في القضية الحادي والعشرين من الجاري أي اليوم الثاني لعودته من كفر زروع — وفي كفر زروع يجب أن يتفرغ لرمزي رعد واليغموريين .

العمران ! بنك العمران ! عاشت الأسماء !

هيكل آخر من الهياكل الكرتونية التي تنهار متلاحقة بعد انهيار الهيكل الأكبر ، « بنك إنترا » ، في تلك القرقعة الهائلة التي زعزعت الاقتصاد اللبناني وتردّدت أصداؤها في العالم ...

آلهة يسقطون إلى حضيض التزوير والاحتيال والسرقة .

أقنعة تتمزق فإذا خلفها وجوه مجرمين .

تميمه أمامها الحب والمستقبل والحياة . « في العشرين هي وأنا على أبواب الأربعين » . ومع زينه ، ابنة في البيت من امرأة أُخرى ...

جنون ! جنون !

مدير بنك العمران — ألفرد بك ... — كان مختبئاً بنظارتيه . رآه بدونهما لحظة إذ زاره في السجن هذا الصباح . لحظة ، ولكنها كانت كافية ليرى عينيه . لكأنه من كتاب « الحكايات المصورة » ، هذا الذي على مخدّة زينه . من حكاية « القبّوعة الحمراء والذئب » .

من رأى الذئب إذ تسقط النظارتان عن وجهه ؟ من رأى عينَي الذئب وجهاً لوجه ؟

كان أكرم الجردي يرفّه عن نفسه هكذا وهو في سيارته إلى البيت .

لا ! لن يعود إلى المكتب . وما همّه الدعاوى في تلك الساعة ولا البنوك .

ولا البقاع ولا اليغموريون . مجنون هو ، مرة أخرى ، وألف مجنون !

الانتقام من أوديت ؟

لماذا لا يكون الانتقام منها بالانفصال عنها بكل بساطة ؟

ألم يشبع منها ومن مطالبها ؟ ألا يكفي أنه جهّز لها محلاً طويلاً عريضاً للخياطة : — « هوت كوتير — أوديت » — ؟

وإذا كان لا بدّ من الزواج فكيف ذهب يعرض على فتاة أن تحمل اسمه وتكون عنوان شرفه وقد تواطأ مع روز قبل أيام على أن تبيعه هذه الفتاة اسمها وشرفها ؟ وكيف بتميمه الذكية ، المثقفة ، المرفوعة الرأس ؟

أتحب رمزي رعد ؟

أممكن أن تفضّل رمزي رعد وتأبى أن تكون زوجة أكرم الجردي ؟

وغمره شعور أبعد من الغيرة . أشد من النقمة . وأمضى من المرارة . شعور كئيب . كئيب .

تافه هو ! فاشل ! فاشل !

وهذه ابتسامة تميمه نصّور وهي تشيّعه على باب نقابة عمال المرفأ تلاحقه بالهزء والرثاء . أُخت المئات من الابتسامات التي غمره بها الأصدقاء حينما جاؤوا معزّين بعد اندحاره في الانتخابات الماضية .

أكثر من ذلك . لقد كان في ابتسامتها احتقار .

إنه رجل فاشل وحقير !

وتمتدّ كفّ أكرم الجردي إلى خدّه ... ربّما كان يستحق تلك الصفعة من أُوديت . ربّما كان قد خُلق ليتلقّى الصفعات !

أين يقضي سهرته ؟ يجب أن يخرج هذا المساء . لا بيته ، ولا بيت روز ، ولا أي قفص . يريد أن يخرج من نفسه . أن يهرب منها إلى أي مكان . استقبلته أُمه على الباب فبادرها :

— سأتعشّى خارجاً .

ودخل يغيّر ثيابه .

على أنه لم يلبث أن أغلق خزانة ثيابه . وأقبلت الأم فرأته في البيجاما . قال إنه عدل عن الخروج . فعرضت عليه تكراراً عشاء حضّرته له . رفض بنبرة ثم شفعها بنظرة استغفار — لم يكن يريد أن يجرح أُمه ، ما ذنبها ؟ وأحسّ أن ذلك لم يكن كافياً فابتسم سائلاً عن زينه .

— زيزي نامت . يجب أن تتزوج يا ابني . يجب أنِ تتزوج .

فرفع أكرم إلى أُمه وجه الخائب . ولكنها كانت قد توارت . تعرض عليه عرضها منذ الشهر السادس لمصرع زوجته ، وها هو في السنة الثانية ولا يتزحزح . تعبت من مناقشته في الموضوع ، وتخشى غضبه إذا فتحت له سيرة أُوديت — « يجب أن تتخلص من أُوديت . » — ولكنها لا تستطيع إلا أن تعود للازمتها كل يوم بعناد العجائز .

سنة وثلاثة أشهر بالضبط . تعاوده الرؤيا الفاجعة : السيارة المنقلبة والدم على الطريق ، والجثة الممدودة ... والصراخ الذي اخترق ضباب « ضهر البيدر » ذلك المساء . —كانوا راجعين من البقاع إلى بيروت — وما يزال يخترق سقف الغرفة الصغيرة كل مساء : ماما ! ماما !

ومشى إلى الغرفة الصغيرة .

١٧

كانت غرفة زينه مضاءة — تبقى مضاءة طول الليل بإشارة من الأطباء — فقد كانت زينه منذ الحادث فريسة لنوبات تعاودها ، خصوصاً في الظلام . يتراءى لها في الزوايا المعتمة ، وخلف الستائر إذا ارتعشت ، أشباح وأشباح ، فتهبّ منادية أُمها نداءات الذعر .

دنا الأب من السرير . ما وراء هاتين العينين المفتوحتين على السقف ؟

واعية يا زيزي ؟

لم تثب إلى عنقه لتردّ إليه قبلته . كان وجهها الأسمر الناعم شاحباً كغمامة شتائية على ضوء الغرفة الخافت ، وذقنها الدقيق المروّس مصوباً إليه ، وعيناها — عينا أُمها المعسّلتان الضاحكتان — شاخصتين إلى السقف .

— بماذا تفكّرين ؟

— ما شي .

وانحنى ثانية . قالت :

— بابا !

كان في لهجتها هذه المرّة أكثر من اللوعة . هدوء مريب . وتوقفت هنيهة . ثم :

— بابا ! لأيش الحياة ؟

سرت في دمائه موجة صقيع . سؤاله الآن لنفسه . أرهب سؤال يطرحه رئيس محكمة . سبق له أن سمع من طفلته سؤالاً من هذا النوع ، ولكن كم أقرب إلى طبيعة الأشياء — بعد موت أُمها — وكم أدلّ على براءة الطفولة . سألته حينذاك : « لأيش الموت ؟ » . ها هي تسأل لماذا يحيا الناس بعد أن سألت لماذا يموتون .

وإذا كان قد أسكتها عن ذاك السؤال بالجواب الجاهز الذي أجابتها به جدّتها ، وعزّتها به معلّماتها ، وحفظته عن ظهر قلب في التعليم المسيحي فاقتنعت ، أو بدا له أنها اقتنعت ، بأن الناس يموتون لكي يذهبوا إلى السماء حيث أُمها الآن ، فبماذا يجيبها عن سؤالها هذا ؟

للأطفال حقاً أسئلة محيّرة . مدمّرة . بكلمة يشوّشون اللعبة التي يلعبها حولهم الكبار . بكلمة ، بكلمة صغيرة يُطبقون على رؤوسهم المسرح . وإذا كانت زينه تواجه الدنيا ، وهي بعد في الثامنة من عمرها ، بمثل هذا ، فما يكون شأنها إذ تكبر ؟

ابتسم . هل تكلّف الابتسام ، أم طفح الحب من قلبه ؟

— الحياة معناها أنتِ وأنا يا زيزي . نعيش ليحب بعضنا البعض .
— والذين لا أحد يحبّهم ؟ أعرف كثيرين لا يحبّهم أحد .
حربة جديدة . من أين لها أن تعرف ؟ إنها قراءة « حكايات الأطفال المصورة » .
— مثلاً ؟
— الذين مات أبوهم وأُمهم وما عندهم في البيت مثل ستي ولا عندهم بيت .
— الحكومة تدبّر لهم أباً وأمّاً وتدبّر لهم بيتاً .
— مَن هي الحكومة ؟
هذه الصغيرة لا تطاق . ولكنه سؤال أهون على كل حال من الآخر . وتذكّر أكرم الجردي أنه اشتراكي . الحكومة ؟ كم خطاب ألقاه عن الحكومة . ما هي الحكومة . كيف ينبغي أن تكون الحكومة . ما هي واجبات الحكومة . سيلقي خطاباً على زينه ...
— لماذا لا تجيء الحكومة إلى باب المدرسة ؟
وأخبرته عن الساقَين المورّمتين تنزّان دماً وقيحاً على الرصيف ، مع اليد المقطوعة ، والأخرى التي تلاحق المارّة — « شحاد ، قال ، من الشحادين » . وعدها بأنه سيقول للحكومة — « يعني للبوليس » — أن يذهب إلى باب المدرسة ويأخذ الشحاد .
— إلى بيت فيه ناس سيحبّونه وسيحبّهم هو . نامي يا زيزي .
تركته يقبّلها . ولكنها نامت دون أن تقتنع .
في الصباح ركضت بقميصها حافية إلى غرفته :
— بابا ، القمر وين هو ؟
فرك عينيه وجذبها جذبة واحدة :
— في حضني .
فتفلّتت منه . أخبرته أن المعلمة قالت في الصف : « بعد عشر سنين

نسافر للقمر » . وتسأله عن أمها التي في السماء هل تسكن بعيداً عن القمر . ثم تعود وتقول إنها لا تقدر أن تنتظر عشر سنين ، ولذلك هي تريد أن تموت الآن لتطلع إلى السماء وترى أُمها الآن . الآن .

– هاتي سمّعيني أُمثولتك العربية .

على أن الأمثولة ، بدلاً من أن تقطع هذا الحديث ، عادت بالصغيرة إليه أو إلى أبعد منه . كانت الأمثولة لذلك اليوم قصيدة عنوانها « الأعمى » . يصف فيها ناظمها ولداً أعمى يجلس بباب بيته ويسأل : ما لون النهار ؟

ما شكل العصافير ؟

وما الشمس والقمر ؟

والبحر والسماء ؟...

تلتها زينه لم تخرم حرفاً .

– بابا ، قل لي : لماذا يخلق الله أولاداً عميان ؟

– في عمرك لا يسألون هذه الأسئلة .

وكانت الجدّة قد أقبلت تدعوها لارتداء ثيابها قبل أن يصل أوتوكار المدرسة . والأب يتابع لنفسه : « شرط أن تجدي ، يا ابنتي ، بعد أن تكبري ، من يجيبك ويقنعك لماذا يخلق الله الأولاد العميان . ولماذا يُحدث الزلزال والطوفان . ويأذن بالحروب والقتل . ويبعث الطاعون والأوبئة . ولماذا يبرئ النسمة من روحه ليخنقها بيديه الاثنتين ...

قبل أن تنصرف إلى مدرستها ناداها وأخبرها أنه طالع إلى كفر زروع . ثم رفعها بذراعيه مرّة ، اثنتين ، ثلاثاً ، وقبّلها على الخدين .

– نسيت شي ، يا بابا .

عدنا ! فتح عينيه بالسؤال عن هذا الشيء ما هو . كانت زينه تذكر له شحّادة أُخرى ، على صدرها طفل عارٍ ، وسخ ، يحوم عليه الذباب . تمرّ بالأوتوكار كل صباح وكل مساء وتراها وتسمع طفلها يبكي . هنا ، على المفرق ، تحت البيت . ولكن سرعان ما فكّرت برفيقتها سلمى .

طردوها من المدرسة لأنها لم تدفع القسط ـ هكذا قالت البنات كلّهن ـ وقالت البنات «أبوها فقير، دفع القسط الأول، والثاني ما قدر». وسلمى أبوها بوليس، زينه رأته مراراً على باب المدرسة.

«الحكومة ـ البوليس. البوليس ـ الحكومة...»

أبوها يعتقد أنها ما تزال صغيرة. ورفعت زينه عينيها تقولان له: تكذب! تكذب عليّ!

ـ ماذا تريدين يا زيزي أن أقول للحكومة؟

ـ ما شي. ما شي.

وهرولت إلى السلّم.

١٨

أعلنت «الصباح» عن التحقيق أياماً قبل الشروع به، ضاربة لقرائها موعداً مغرياً. وقدّم رمزي رعد بأن سياحته لن تكون على الطريقة الأميركية، كلاّ ولا من وحي التقارير الرسمية. «سيقوم بها، قال، خلال البيوت والضمائر. سيمشي. خلف خرائب بعلبك، في خرائب ما صنعه الظلم والجهل والفقر والمرض».

نزل في بيت الجردي، البيت الوحيد المبني بالحجر، على تلّة من أربع أو خمس تلال تطلع كالبثور في السهل الممتدّ عرض الأفق. وفكّر وهو يطلّ من السطيحة غداة اليوم الذي وصل فيه: لا شكّ أن اسم العائلة من هذا السهل الأجرد الموحش ـ «الوحشي».

والطبيعة هنا جافية، عداؤها للبشر صارخ بهذه الرياح المزمجرة بوجه الشمس كأنها تريد طردها.

وأكّد أكرم:

— الشمس هنا في الشتاء دخيلة . ملكها الصيف . تنتظر الصيف لتلفح . أما الشتاء فللثلج ، وهذه الرياح بشائره .

وصارخ عداؤها بهذه الأشجار السقيمة ، بهذه الحورات المجرّحة الملتاعة .

بهذه البيوت بل الأكواخ من الطين الأدكن الكئيب تجثم في العراء .

ونقط سود تتحرّك هي البقر الهزيل ، الهائم ، المفتّش على عشبة .

ودخان يطلع — علامة الحياة الوحيدة — من تلك الأكواخ المنبطحة...

كأنها في انبطاحها وفي ما تنفث من لهاثها حيوانات أُسطورية تقيل على بساط من قبل التاريخ .

كان بيت الجردي ذا طبقتين يسكن السفلى منهما فلاّح يقوم على مزرعة آل الجردي مع امرأة له وأولاد يعاونونه . فإذا جاءهم البك أقبلوا يدورون حوله لخدمته . قال أكرم وهو يقدّم أبا نجيب وعائلته :

— جردي . وكلّهم في هذه البقعة عن يمينك جرديون . الجرديون يزرعون القمح لخبز يومهم ، واللوبياء قديداً للشتاء ، والعدس الذي أبيعه لهم بعشرة قروش الكيلو إذا تحسّنت الأسعار . اليغموريون عن شمالك ، هنا في جوارنا ، « على أكتافنا » يقول أبو نجيب ، يزرعون أم الذهب : الحشيشة .

ستكون أُولى مقالاتي . أعطيتني العنوان يا أبا نجيب . قم معي نزور أراضي اليغموريين .

في اليوم التالي نشرت « الصباح » الحلقة الأولى من التحقيق ، بعنوان « أم الذهب » ، وصف فيها رمزي رعد زراعة الحشيشة ودلّ على مواقعها ونقل أحاديث الفلاّحين عن صناعتها والاتّجار بها بإشراف اليغموريين والعصابات التي تعمل بأمرهم في الداخل والخارج .

ومضت الحملة في موكبها ...

خلال وحل القرى وحفا الأطفال .
مع اللقمة المغمّسة بالدم وروث الدوابّ .
مع الرعب في الخناجر المسنونة والثارات .
مع العشيرة اليغمورية كابراً عن كابر والحكّام الذين كانوا لها حلفاء وأعواناً .
مع قَتَلة ابن الجردي وسلسلة الضحايا البريئة ...

وختم الصحافي حملته ، وقد استغرقت ستة أعداد من الجريدة ، بمقال عنوانه « مذكرة إحضار إلى الحكومة » طالب فيه بسوق أصحاب المعالي إلى المنطقة ليشهدوا بأعينهم كيف يعيش اللبنانيون في مجاهل جمهوريتهم السعيدة.

كانت تميمه تتابع قراءة هذه الفصول يوماً فيوماً . في اليوم السابع ، بعد فراغ الأستاذ رمزي رعد من مهمّته في البقاع ، تناولت الجريدة فطلع بوجهها بالحرف الكبير على عرض الصفحة :

« اعتداء أثيم على المحامي الأستاذ أكرم الجردي .
نقابة المحامين تعقد اجتماعاً فوق العادة .
« الصباح » تطلب اجتماع نقابة الصحافة » .

وخلاصة الخبر أن ثلاثة ملثّمين كمنوا للمحامي والصحافي في الطريق بين زحله وشتورا بعد أن علموا أنهما سيركبان سيارة الأستاذ الجردي عائدين معاً إلى بيروت . ولكن الاستاذ رعد كان قد نزل في زحله تلبية لدعوة صديق له على العشاء . فلمّا وصلت السيارة إلى منعطف في المنطقة المذكورة خرج الجماعة من الكروم وأطبقوا على صاحبها بالعصي والخناجر مهددين إياه بالقتل إن لم يدلّهم على المكان الذي ترك فيه رفيقه . وأوشكوا أن يخمدوا أنفاسه لو لم تفاجئهم دورية من الدرك فأركنوا إلى الفرار . وتعقّبهم الدرك فتمكنوا من القبض على أحدهم فتبيّن أنه من أنصار النائب شوكت اليغموري واعترف باسم شريكيه . ونُقل المعتدى عليه إلى المستشفى الأميركي مثخناً بجراحه ، وحالته خطرة ...

١٩

حلّ موسم الأعياد .

تلاحقت في ١٩٦٨ بين الفطر والميلاد ورأس السنة . وطغى في الأيام الأولى جو الأفراح والزينات في المعابد والبيوت والشوارع . وكان طلاب الجامعات وتلاميذ المدارس في عطلتهم الفصلية ، فقصدت تميمه إلى المهديّه لتقضي بجانب أُمها بعض الوقت ، وطلع هاني إلى دير المطلّ يحمل مفاجأته للأصحاب الصغار .

كان لديه ما يشغله حقاً . ففي العطل الفصلية ، بانتظار الصيف ، تنقلب الضيعة إلى عاصمة . يتقاطر إلى دير المطلّ أولاد القندول والمرج وسائر الضيع المجاورة للمباريات الرياضية والألعـــاب والاجتماعات ، ينظّمونها بإشراف هاني ، وإدارة المعلم حسيب ، وبركة « الأبونا الشيخ » — وهو لقب غلب على رئيس الدير بعد أن استضاف المعلم الشيعي المسلم بين رهبانه وأفرد له غرفة من غرفهم . أطلقه خبيث منهم وتهامسوا به فترة ثم شاع على الألسنة ، فأصبحت تناديه به على سبيل المداعبة ، فيجد لذلك غبطة وينكت لحيته .

انصرف هاني والمعلم لإعداد المناهج للأعياد . فكان الأولاد يجتمعون في المدرسة ، أي في أقبية الدير بانتظار إقامة بناء لها ، ويحوّلون تلك الأقبية العتيقة المعتمة إلى أعشاش سحرية بما يضفون عليها من مرحهم وصياحهم . يلوّنون جدرانها برسوم من فنونهم ، ويزيّنون في زواياها أشجاراً قطعوها للمناسبة من أحراج الدير ، حتى إذا حان موعد المباريات ، وفي الصباح منها واحدة وفي المساء أُخرى ، خرجوا إلى الساحة يلعبون ويضجّون .

وعلى الغداء يفتحون زوّاداتهم مشتركين في التهام ما حملوه من بيوتهم ، على أن يبدأ الطعام بواجب الدير نحو ضيوفه : دسوت من حساء العدس

أو الفاصوليا ، وينتهي بالواجب كذلك : صناديق من التفاح وصحاف من الحلوى لا يعرف أحجامها وأطايبها إلا من عاشر الرهبان في أديرتهم . ويطلّ عليهم الأبونا الشيخ بعثنونه الأشقر وابتسامته المشعّة فيهتفون له معيّشين ثلاثاً .

ويوم الأحد جلسات اللجان لمناقشة الأمور الجدّية . ومنها ضبط ميزانية الحزب . على أعضاء اللجنة المالية ، هذه السنة . وأعضاء لجنة التبرعات — وقد تألّفت منهما لجنة المدرسة المشتركة — أن يضاعفوا جهودهم لجمع ما لا بدّ من توفره خلال الربيع المقبل للشروع في البناء . أمّا الأرض فقدّمها الدير ، قطعة على الكتف الشرقية من الضيعة مشجّرة بالصنوبر ولها مشارف على البحر . رائعة ، فضلاً عن موقعها الوسط بالنسبة إلى القندول والمرج .

كان قيدوم هو صاحب الصوت الأعلى بين الأصحاب الصغار . لقب آخر كأبينا الشيخ ، كعشرات الألقاب التي يخلعها الأهالي بعضهم على بعض ويتداولها الآباء والأبناء على السواء . قيدوم من القندول ، يزاحمه شيبوب من دير المطلّ ، يزاحمهما الزيبق من المرج . على أن زعامة قيدوم واضحة لشجاعته ولمهارته في التأليف والتنكيت ، وإليه يرجع الفضل في فكرة يانصيب البابا نويل ، عرضها على هاني قبل العيد بأيام .

— كيف يا قيدوم ؟

فتناول الصبي جريدة من عبّه وبسطها . كانت الجريدة قد نظّمت رحلة من بيروت إلى قبرص يوم عيد الميلاد لسبعين ولداً بين الثامنة والرابعة عشرة هم الرابحون في يانصيب البابا نويل . والأوراق عبارة عن قسائم من أعداد الجريدة لأيام معينة قبل العيد . قال قيدوم :

— نشتري للحزب مئة عدد من الجريدة بخمس وعشرين ليرة . هذه هي ، هنا ، في جيبي . طبّقت اللجنة المالية . فإذا ربحت ورقة من ورقاتنا عملنا عليها اليانصيب بين أعضاء الحزب . دبّر لنا نسخ الجريدة

والباقي عليّ .

المفاجأة التي حملها هاني إلى الحزب هي بشرى فوزهم بواحدة من الجوائز السبعين . وتولى قيدوم الباقي الذي وعد به . فرضه على أولاد القندول ، وشيبوب على أولاد دير المطلّ ، والزيبق على أولاد المرج – على كل ولد ليرتين – ١٢٤ ليرة – عدد أعضاء الحزب في الضيع الثلاث . يعاد إلى اللجنة المالية قرضها ٢٥ ليرة . يبقى ١٩٩ ليرة ريع اليانصيب . قال قيدوم :

– نشتري بها الهدايا التي سيوزّعها البابا نويل .

كانت الجريدة قد قامت في بيروت باحتفال احتشد له في محلّة « الزيتونة » الألوف من الأولاد مع آبائهم وأُمهاتهم ، أقبلوا يشاهدون البابا نويل يهبط من السماء ، كما في الأساطير ، بطرطوره وسلّ الهدايا العظيم على ظهره . استعانت على ذلك بالجيش فأعارها هليكوبتراً أطلّ من بين الغيوم فحوّم فوق الساحة ثم أخذ في الهبوط وتدلّى منه البابا نويل وسط عاصفة من الهتاف والتصفيق ، وجو من البراءة والفرحة لم يعرف الميلاد مثيلاً له في تاريخ أعياده .

ليس في دير المطلّ ولا في المرج ولا القندول هليكوبتر – لا يملك الحزب طائرات ... بعد ! – ومع ذلك فان البابا نويل سيهبط من السماء ، كما شاهده قيدوم ورفاقه في التلفزيون .

الساعة الحادية عشرة قبل الظهر . كان الطقس صحواً منذ يومين . وإذا الجو يتلبّد ويأخذ الثلج في التساقط قطعاً من النفناف . قيدوم يعلن أن الثلج موصى عليه ! إلا أن البرد قارس والأكف تفرك الأكف ، وصيحات « الحو الحو » تتعالى من كل صوب يلحّنها الأولاد أنغاماً ما أنزل الله بها من سلطان . قد احتشدوا كلّهم داخل الأقبية حسب المنهاج المرسوم ، هكذا أمر قيدوم . والمعلم ينفّذ أوامره ، وهاني ينظر .

مزروبون كقطيع الغنم ، يتدافعون ، يتلاكزون ، يتصايحون ، والأبواب مقفلة ، وفي الأقبية شموع مضاءة حملوها بشمعداناتها من مذبح الكنيسة . ممنوع أن يطلّ أحد برأسه إلا عند الإشارة .

وفجأة يزعق من بعيد نفير الميلاد ، فتُفتح الأبواب على مصاريعها وتعجّ الساحة وترتفع الرؤوس . البابا نويل يهبط من أعلى السنديانة – بطرطوره أبي الذؤابة والكيس الملآن على ظهره – تماماً كما في التلفزيون، تماماً كما في بيروت ، وأعظم وأعظم وأعظم لأنه جاء تحت الثلج . بابا نويل بلا ثلج بائخ ولو طلع من ستّين هليكوبتر .

كانت اللعبة أبسط ما يكون . علّق قيدوم بكرة حبل في غصن السنديانة المنداح فوق الساحة وأمسك بطرف الحبل ، فيما كان شيبوب والزيبق المختبئان بالأغصان الخلفية يمسكان بالطرف الآخر ويُدليان به . عليم الله ! ما عرفه أحد حتى عندما ترجّل في الساحة وأخذ يوزّع أوراقه لولا أنه صاح ، وقد وقعت الجائزة على حمار صفّه ، فلم يضبط نفسه :

– عبث ! من قبرص يا بطرس جيت عالأربعة . راجع ليها طيران !

ونتر طرطوره ورمى به بطرس ملء وجهه .

٢٠

٢٦ كانون الأول ١٩٦٨ – تاريخ في حياة تميمه نصّور .

وصلت إلى دير المطلّ الساعة التاسعة صباحاً ومعها المس ماري . رأتا بعد التشاور أن تترافقا . إقتراح ماري وقد صفّقت له تميمه :

– أعرّفك على هاني .

في ساحة دير المطلّ سألت تميمه امرأة تقود طفلة من يدها عن بيت السيد هاني الراعي .

– الشبّ؟ بيتو بآخر الضيعة . أعلى بيت فوق الطريق على شمالك . قدّامو صنوبرة كبيرة .

التبس الأمر على الغريبتين فتبادلتا النظر . وأعادت تميمه :

– السيد هاني . السيد هاني الراعي .

– اي . اي . نحن منقول له «الشبّ» يا أختي . الضيعه كلّها بتعرف مين هو الشبّ .

ضحكت ماري :

– من أول وصولك شمعه على طولك . إمشي يا تميمه لنمشي إلى بيت الشبّ .

لم تشأ تميمه أن تصل بالسيارة إلى بيت هاني . أحبّت أن تأخذ فكرة عن دير المطلّ فجعلت تتطلع . بيوت قديمة في الغالب تجثم بين الحلول فوق الطريق وتنتثر تحته ، متكتلة هنا ، متباعدة هناك . وخمسة ، بل ستة ، بل سبعة دكاكين من تلك التي يجد فيها الأهالي شتى أصناف البضاعة بما فيها الأحذية تتدلّى من السقوف . وفي الطريق فتيان يروحون ويجيئون ، ورجال ونساء في ثياب العيد لحضور حفلة المدرسة ، والسماء صافية مع هبّة محيية من الهواء تطلع من الوادي .

– أعلى بيت في الضيعة !

ورفعت تميمه يدها تدلّ ماري على الصنوبرة الشامخة . ثم سلكتا في درب ترابي صاعد إلى بيت من حجر قد كسته السنون جلبابها الرمادي ، وواجهت البحر قناطر له ثلاث مع شرفة تحت القناطر ، ومصطبة أمام البيت قسم منها للعريشة وقسم لطنف من التوتياء تحته سيارة الفيات .

– هاني هنا .

عند هاني – بعد أن رحّبت عمّته بالزائرتين بصينية عليها أقراص العيد وعادت إلى مطبخها – هتفت تميمه باكتشافها الجديد : «الشبّ» ! . سرّ آخر كتمه عنها . فكرّ من حبّات السبحة :

– أبونا الشيخ ، قيدوم ، شيبوب ، الزيبق ، الآغاتي ، السبع ، الجيز ، الطوزا الخ. هواية عندنا . لكل واحد لقب على قدّه . لا أعرف من أطلق عليّ لقب « الشبّ » . لا الشاب بالفصيح . كان عمري خمس سنين حينما وعيت على أُمي تناديني به .

كان الشبّ يملأ عينَي تميمه ويرفع صدرها بالكبرياء فاستطرد هاني :

– وأبو كنفوش . خلعناه على قاسم الهلال ، تعرفينه ، هذا الصباح وهو لا يدري .

وتتأمل البيت : مقاعده العريقة المريحة ، سقفه الخشبي الدافئ ، شبابيكه المزيّنة بأحواض الزهر . فتسري إليها من هذه الأشياء كلّها دعوة إلى الألفة .

– نتناول العشاء هنا مع قاسم إذا قبلتما دعوتي . وبحضوركما أُبلغه قرار الضيعة .

على الحائط بإزائها صورة مكبّرة لأمه بالطرحة . من نقاء عينيها المتلألئ ابتسامة عينيه . وما عدا ذلك فبندقية قديمة مديدة أثارت اهتمام تميمه . ففسّر :

– إبراهيمية . نسمّيها إبراهيمية نسبة لإبراهيم باشا المصري . وهي ترجع إلى عهد مجيئه إلى لبنان . تذكار من جدّ جدّي الذي وقف في النهاية فيمن وقفوا من اللبنانيين بوجه الباشا بعد أن انقلب إلى شدّ الخناق على أهل البلاد وتجريدهم من السلاح . هذه من البنادق التي عصت .

تجسّ تميمه البندقية بكفّها . تداعب الحيطان . تودّ لو تطوف بالبيت . لو تدخل من المطبخ . لو تشاهد غرفته وسريره وتشم الخزانة التي يعلّق فيها ثيابه . لو تسأل عمّته الست جميله ، هذه ذات الوجه الطافح والكلام الحي ، ما تطبخ له ، ما يحب من الطعام .

الساعة العاشرة والربع وقد غصّ القبو الكبير الذي تحوّل إلى مسرح بالاهالي . وهاني يشرف على الاستقبال ويعرّف الزائرتين بأصحابه كباراً

وصغاراً . وأخذ بيدهما إلى الصف الأمامي فقدّمهما إلى جدّه أبي يوسف . شيخ فوق الخامسة والسبعين . صلب كأنه جذع سنديانة ، مع منخرين – إياهما – « الحزم والعزم » .

وتعجّبت تميمه لإحاطته بالشيوخ . كان حريصاً على توجيه كلمة إلى كل واحد منهم .

– أعضاء الشرف في الحزب . طواطم دير المطلّ والقندول والمرج .

– ماذا ؟ ألقاب أيضاً ؟!

– طواطم جمع طوطم . هذا اللقب ليس من عندنا . صاحبنا رمزي رعد صاحب فصل « أمقت أبي » في كتابه « أرباب وعبيد » يجب أن يعرف الحكاية . وسيتولى السيد قاسم الهلال الشرح .

كدّ العرق تميمه وهمّت – بماذا همّت لا تعرف – فاذا الدقّة الأولى إشارة برفع الستار . فالثانية . فالثالثة . كأنها تدقّ على يافوخها . وظهر الأستاذ حسيب المبيّض عرّيف الحفلة يرحّب بالحضور . يذكر فخر الدين وبني عثمان ... يتكلم عن الوحدة الوطنية التي تمّت على يد الأمير ... ماذا يقول ؟ ماذا يقول عن دير المطلّ ؟... يلفظ اسم هاني الراعي ويصفّق الناس لهاني الراعي . تجاريهم في التصفيق دون أن تعي . دون أن تنظر إليه ... يطلّ قاسم الهلال ويبدأ بالكلام . « لبنان بين جيلين » موضوعه . ماذا يقول عن الجيل الجديد ؟ بل هو يحكي الآن عن الجيل القديم . « الجيل العتيق » يقول هو ... وتبتسم عفواً للقاف . يبحث عنها حيث تقرقع ! ثم يفور دمها من جديد – أيدعوها هاني الراعي الى عقر داره ليرميها بأحجاره ؟

لا تميل إليه بطَرْف . تعلّق أنظارها بالخطيب محاولة أن تستعيد هدوءها . ولا تبالي بماري . لماذا تشدّ ماري على يدها هكذا ؟ بل هي التي تغرز أظافرها في ركبة ماري . يُخيّل إليها أنها تختنق في هذا القبو . هي في حاجة إلى الخروج ، إلى الهرب . لا تريد أن تحضر روايات ولا

أن تسمع خطابات... وإذا القاعة من حواليها تضجّ بالضحك . يضحك الأولاد عالياً ، والشيوخ يدقّون بعصيهم الأرض . وماري تميل عليها وترفرف استحساناً .

قالت تميمه :

– قلت لك إنه صاحب نكتة .

قالتها مجّاناً – لم تسمع النكتة – لكي تقول شيئاً . والخطيب يستطرد إلى نوادر أخرى عن الجيل العتيق ذاكراً فضائل الصلابة فيه ، وكلمة الشرف ، وحسن الظن بالحياة « في مرحها ووقارها على السواء » :

– طواطمنا ، صدّقوني أيها الأصحاب ، هم الذين صنعوا لنا هذا الوطن الحلو . ألا تعرفون ما الطوطم ؟ إله أسطوري . إله عجيب ومسكين . كانت القبيلة البدائية في العصور الخالية تتّخذ من الطوطم شعاراً لها . وفي دراسة قام بها العلماء – هكذا قرأت في مجلة « نيوزويك » الأميركية – تبين لهم أن الطوطم كان في الواقع رمزاً للأب أو للجد ، لكبير السنّ ، يجب أن نقول شيخ القبيلة . كانوا يعبدونه طوال السنة – لم يتوصل العلماء إلى معرفة سنة القبيلة البدائية ، والأرجح أنها كانت عمراً كاملاً – المهمّ أن الطوطم كان مقدّساً ، ومع أن مسّه محرّم فقد كانوا يحتفلون في آخر السنة بقتله رمياً بالحراب ، ثم يأكلونه مشوياً على النار... ثورة الجيل الجديد في العالم ، تلك التي ينادي بها البعض في لبنان ، هي ثورة الأبناء على الآباء كما يقولون . ضرورية الثورة . لا بدّ من الثورة . ولكني جئت لأقول لكم إننا نحن في « قرنايل » لن نشوي آباءنا وجدودنا ، ولن تأكلوهم عندكم بإذن الله .

ضحكت ماري ملء قلبها – بقيت تميمه ساكتة .

بعد الرواية قادهما هاني إلى ساحة المدرسة ، ساحة الدير ، وطاف بهما حول السنديانة الدهرية يشرح لهما مراحل عمرها ، ويشير إلى عبّها :

ـ هنا كان ينام المعلم حسيب وهو صغير مع أبيه المبيّض .
لم تتمالك تميمه فدنت منه ، وكاظمةً ما استطاعت قالت :
ـ وهنا أنت وليندا . ألم تكن مدعوّة إلى الحفلة ؟ أين الآنسة ليندا ؟
تتوقّع منه ضحكة هروب أو عبسة . فاستدار يميناً ، وبرأسه أومأ إلى مقبرة دير المطلّ ، خلف الساحة ، قال :
ـ هنا .
وحدّق إليها :
ـ منذ عشر سنين .
فارتدّت منكسرة .
كان قاسم قد انضمّ إليهم . فكرّر هاني دعوته إلى العشاء ، فقالت ماري :
ـ يجب أن أكون في المستشفى الساعة السادسة . دوري في السهر الليلة . شكراً . إلا إذا أحبّت تميمه ...
وتميمه تجتهد في قراءة أعماقه . تختلس النظر إلى عينيه . لماذا لا تبتسمان ؟ بلى إنهما تبتسمان . واهمة هي واهمة . ولكن ، ماذا لو يطمئنّ قلبها ؟ وهكذا ، عفواً ، بكل بلاهة ، سألته :
ـ أتوصلني إلى بيروت إذا بقيت ؟
لم يُحر جواباً . كان مشغولاً بالكلام مع قاسم . فبادرت ماري :
ـ تميمه تمزح . التكسي الذي جئنا به ينتظر .
وأخذتها من يدها وانطلقتا مودّعتين .
في العودة ألقت تميمه رأسها على صدر ماري تبكي . كيف عرضت عليه ذلك العرض ؟ لماذا وضعته أمام ذلك الامتحان الأحمق ؟ وماري تضحك من قصص العشق والعاشقين .
منهوكتَين وصلتا إلى الشقّة . وعلى الطعام الناشف الذي تناولتاه في المطبخ قالت ماري مواصلة مزاحها :

— الأستاذ أكرم الجردي نجحت عمليته وسمح له الأطباء باستقبال المهنئين . ما رأيك ؟ سأقول له إنني أسكن في شقّة واحدة مع فتاة اسمها...

فرفعت تميمه كفّها وأطبقت فم صديقتها . لم تردّ لها ضحكتها . راحت إلى السرير وشخصت بأبصارها إلى السقف ، تبحث عن النجمتين المتألقتين...:

٢١

كذبت ماري على تميمه .

لم تنتظر ماري موافقة تميمه لكي تخبر أكرم الجردي . ماري ، في الواقع ، لا تريد أن تخبر تميمه . فالمحامي نادم على ما فرط منه وزاد :

— تميمه نصّور ممتازة . ولكنها ليست لي ولا أنا لها .

وقطع الحديث .

تُرى ، لماذا قطع الحديث ؟ ممتازة ! ممتازة ! متى كان الرجال يقولون إذا أحبّوا « ممتازة » عن امرأة يحبّونها ؟

كانت ماري تفكّر في ذلك وهي في طريقها إلى المستشفى ، وقد مضى فيه على الأستاذ الجردي أكثر من أُسبوعين ولم يعد إلى الموضوع . ألأنه اطّلع ، يا تُرى ، على علاقة تميمه برمزي رعد ؟ — أتشمت ! — وغضبت ماري للخاطر اللئيم كيف خطر لها .

ولكن أتغضب حقاً ؟

إذن علامَ هذا السرور الذي يندسّ كاللصّ في صدرها ؟

« تميمه فتاة طيّبة . طيّبة . طيّبة » . قالتها عالياً — تعويضاً .

أم يكون الصحافي « المجنون » هو الذي باح للمحامي خلال خلواتهما في كفر زروع ؟ رمزي رعد ، كما عرفت من تميمه ، لا يتورّع عن شيء .

« الشرف يجب تحطيمه من جملة الأرباب الكاذبة » . هكذا علّم تميمه . وماري لا تستمرئه . رأته مرّتين يزور الأستاذ أكرم في المستشفى . يدخل لا يسلّم ، يجلس لا يفتح فاه . يروح كما جاء . يعيش وراء نظارتيه السوداوين في عالم آخر . الثورة ! الثورة ! الحقد وصرير الأسنان . كيف أحبّته تميمه ؟ تميمه عائشة في الخيال .

« الخيال . الشعر . الحب الخيالي . الغرام الشعري . الشعر الغرامي... كلّه واحد » — وأحسّت المس ماري من نفسها خفّة ، ومشت إلى غرفة الأستاذ أكرم كأنها ترقص .

كان قاعداً في سريره ، وفي الغرفة عتمة تلمع فيها عيناه . وحدهما تحت حاجبيه الفاحمتين كانتا تخرجان من الرباطات التي تلفّ رأسه ، وذراعه اليمنى معلّقة بعنقه .

سبقها بالتحية ، لاقاها بها منذ العتبة ، كان ينتظرها .

ولكنهم كلّهم ينتظرون .

— البارحة سألتني عنك زينه ، جاءت لزيارتي مع ستّها .

أيّ لعبة هذه الطفلة ! زيزي يناديها أبوها . أيّ سمرة دسمة في ذلك الوجه ! وهذا الذكاء مع الحياء في عينَيها . ورقصتها ! تتعلّم الباليه . « ارقصي لنا يا زيزي » . رقصت مرّة بناء على إلحاح أبيها . وفجأة توقّفت لتسأل المس ماري متى تنزع عن رأس أبيها الرباطات فيجيبها أبوها : « بوسي المس ماري . لا تشيلها عن رأسي إلاّ إذا بستها على الخدّين » .

كانت ماري تفكّر في ذلك وهي تفتح الشبّاك وتزيح الستائر ، فدفقت الشمس في الغرفة .

البارح كان موعد إجازتها الأسبوعية ، الأستاذ أكرم يعرف . وهو ينظر إليها منهمكة بشؤونه ويتنشّق عطراً لها يطغى على رائحة هذه الأزهار التي تعيدها إلى الغرفة مع الصباح ، تصفّها على الطاولة ، توزّعها في

الزوايا ، تحار أين تضع هذه السلّة الكبيرة من الزنبق الأحمر .

-- وصلت الساعة .

ونزعت البطاقة وناولتها للأستاذ أكرم .

وسلّة أُخرى يأتي بها الخادم إلى الباب . أزهار . أزهار . كل يوم باقات جميلة . وهي ماضية في ترتيبها . تبدي إعجابها . تهتف . تضحك . تغبطه على الصداقات العديدة التي له . تعود إليه وتأخذ ميزان الحرارة من فمه . فيرفع يسراه ويُمسك بمعصمها . يقول إنه لا يحب الأزهار في المستشفيات . لا يحب في هذا المستشفى إلا عطراً واحداً . تتفلّت منه وتتشاغل بتسجيل الحرارة على الدفتر .

كانت المس ماري أبو خليل هي الموكّلة ، فوق الممرضات الأخريات ، بالأستاذ أكرم الجردي . وقفت على تضميد جراحه وكانت بجانب الطبيب الذي أجرى له العملية في ذراعه – كسر عند الكتف – وسهرت عليه ليالي الألم الحادّ تحكي له ما تحكيه الممرضات . ولمّا قطع حديث تميمه نصّور – كان ذلك في اليوم الثاني للعملية – حارت بما تحدّثه . ظنّت أنها خير التسليات . علّمتها تجاربها أن التسليات العاطفية هي أطيب بلسم وأنجع دواء ، فضلاً عن الصداقة بينها وبين تميمه وما هي جديرة أن تُضفي على الحديث من إثارة .

ولكن الأستاذ أكرم طوى الصفحة . بدا أن الحديث أزعجه . طلب منها أن تكلّمه عن نفسها .

ويكلّمها هو عن نفسه . يقضي السهرات وهي على الكرسي أزاءه يسرد عليها سيرته . بدأ بالسياسة انطلاقاً من حادث الاعتداء عليه . « اليغموريون هم آفة البقاع » ، هكذا يقول عنهم ، وما كتبه عنهم رمزي رعد نقطة من بحر . أرادوا قتله؟ حتى ولو نجحوا فلن ينجحوا إلاّ في زيادة النقمة عليهم وتعجيل المصير الذي ينتظرهم .

ثم يعطف إلى حياته الخاصة : زوجته التي أودى بها ذلك الحادث

المشؤوم . أحبّها ؟ كانت له وكان لها منذ الصغر . إبنة عمّه . وعود الأهل بعضهم لبعض . تقاليد ذلك الزمان . الحنان كان يجمعهما .

ما يشغل باله خصوصاً الوضع الذي هو فيه : أُمّه . إبنته .

ويحكي عن طفولته وشبابه . ذكريات كفر زروع . والمدرسة في زحله . والجامعة في بيروت . وباريس حيث حصّل الدكتوراه في الحقوق وركض وراء النساء . في الكلية . وعلى الأرصفة . وفي الحانات... اعترف لها بكل شيء .

وذات مساء ذكر لها أُوديت وعلّق وشرح . أخبرها أنها حاولت زيارته في المستشفى على أثر الحادث، فأوفد إليها من أبلغها قراره النهائي: قطع علاقته بها ولن يرى لها وجهاً بعد اليوم . ثم أردف متنهداً :

ـ كم يوزّع الإنسان قلبه !

هكذا قال الأستاذ أكرم . واستلقى على مخدته وأغمض عينيه . فتركته المس ماري ، لم تقل شيئاً ولم يطلب إليها أن تبقى ...

خلف أجفانه المطبقة عادت إليه صورة زينه . وكفر زروع . وسطيحة البيت في البقاع . وذلك الصباح الخريفي .

كانت الدنيا قد أمطرت في الليل . خرج مبكراً إلى السطيحة ليرى الأرض بعد حمّامها . فواجهه رذاذ خفيف ناعم يتهادى في الهواء .

وزينه على السطيحة ـ كانت في الخامسة من العمر ـ قد سبقته . متى أفاقت ؟ وشمسيّتها بيدها ، وباليد الأخرى كأس تلتقط فيه المطر !

تنقّل قدميها على السطيحة . تكرج كالعصفور . تمدّ كأسها . تُدنيه . تَقْلبه على شفتيها . تهزّ رأسها خائبة .

تحاول مرّة أُخرى . تمدّ يدها بالكأس بعيداً . يميناً . شمالاً .

لا شيء .

تخطو خطوتين . ثلاثاً . تقف على الحافة . تضع الشمسيّة والكأس

على الأرض ثم ترفع رأسها .
وبتكشيرة وُسْعَ فمها تشرب قطر السماء .

٢٢

المقهى المعتم مرّة أُخرى .

وهي هنا في زاويتها ، تنظر إلى زبائن المقهى الموزَّعين أزواجاً ، ذكراً وأُنثى يتهامسان ، يتضاحكان ، يتعانقان على مرأى ومسمع . ولكن كأن لا عيون ترى ولا آذان تسمع . المقاعد ذات حواجز عالية فكل واحد منها عالم مستقل . أعشاش للحب . وضوء خافت على موسيقى ناعمة . أو بالعكس – صحّحت تميمه – موسيقى ناعمة على ضوء خافت . وهي تُجيل أبصارها في المكان . تتأمل المصابيح في السقف والصور على الجدران كمَن يقلّب في كتاب قرأه في السابق مستعيداً بعض فصوله ، متوقّفاً عند بعض فقراته . المصابيح ترتعش بأسطواناتها الورقية المزوّقة حمراء ، زرقاء ، صفراء ، خضراء . الورق تمزّق عن أحدها ، هذا الذي بإزائها ، ومن المزقة تطلع اللمبة كالعورة المنكشفة ، كالعين الغادرة .

وهذا هو التلفون على الطاولة لِصْقَ الحائط . لكل مقعد تلفونه . تذكّرت أن اسم المقهى « شاي وتلفون » . كانت تمشي في الحمرا ، في زيارتها الأولى للحمرا ، فاستوقفها الاسم : « شاي وتلفون » . يبيعونك هنا فنجاناً من الشاي وموعداً على التلفون ... كهذه الفتاة التي لا يهمّها من البضاعة ، على ما يبدو ، إلا الشقّ الثاني . فقد جاءها الخادم بالشاي منذ ربع ساعة . برد الشاي ، وهي آخذة بالتلفون ، تصغي ، تقهقه ، تهمس . تمرّغ التلفون بخدّها ، تشدّه بين ذقنها ونحرها ، تقبّله تقبّله تقبّله ! ثم تخطف جزدانها وتثب إلى الباب .

أو تلك . ذات الشعر المرسل الذي يغطّي عينيها ، هناك في الزاوية . مسكين تلفونها لا يحظى منها بشيء مما حظي الآخر من صاحبته . لا مداعبة ، لا همسة ، وبدل القبل صيحات وغضبات . وهي تنتره من يد إلى يد ، من أُذن إلى أُذن . يتعثّر بخصائل شعرها . تضرب خصائل شعرها ! تضربه ، تمسكه باليدَين الاثنتين ، تهزّه بعنف كما يهزّ المعلم تلميذاً مذنباً من كتفيه . فريسة تلفونها وقعت بين براثن ذئب . تقلّبه ، تهشّم عظامه ، تفترسه ... وفجأة . — ما الحكاية ؟ — هدأت هدوءاً عجيباً . نزعت التلفون عن أُذنها ، أبقته في الهواء ، نظرت إليه طويلاً . ثم تركته يقع مرّة واحدة — مات تلفونها — وتنهمر وحدها بالبكاء .

الضحكات تملأ المقهى . الموسيقى الناعمة على الضوء الخافت — أو بالعكس — والمصباح أبو العين البلقاء .

نظرت تميمه إلى تلفونها . نائم على وجهه . « زعلان » — قالت تلهي نفسها — « بل تعبان . تعبان » . بالجهد دنا منهـــا — كأنه هو الذي دنا ولم تُدنِه ! — وبالجهد لامس أُذنها . وكأنه أُدير على رقم الوقت قال : الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة عشرة . لم تقل هي شيئاً . فأعاد : الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة عشرة .

الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة عشرة وصل رمزي .

فقامت ومشت وراءه .

صرير المفتاح في باب الغرفة .

دخل رمزي ودخلت وراءه .

ألقى نظارتيه وقهقه عالياً . لماذا يقهقه هكذا ؟ لم تسأله .

كانت تسأل نفسها : تُرى ، لماذا يقفل العشاق — بمَن فيهم الأزواج ولو لم يكونوا عشاقاً — الأبواب والنوافذ ؟ لتكون لهم الحرية . تكلم الشاعر ذلك المساء في وست هولّ عن الحرية ، حرية الحب . عن الكرامة ،

كرامة الحب . حرية الإنسان في الحب وكرامة الإنسان في الحب . ولكن ما معنى أن يخلع الإنسان ثيابه – بلا حرية وبلا أي كرامة – ثم يخلع وجهه هذا الذي يحمله بين الناس ويرصفه فوقها ؟

الوجه الآخر – الحياة الأخرى . بل الحيوات الأخرى المتعددة الوجوه . المتناكرة الوجوه .

المهديّه وأُمها – الجامعة ودروسها – هاني والبحر – هذه الغرفة والنظارتان . كأنه اذ يخلع نظارتيه قد تعرّى . يتعرّى بخلع نظارتيه .

ويعود إلى الضحك عالياً .

– تعرفين الخبر الأخير عن الفيتنام ؟ الحرب فظيعة في الفيتنام ! الأميركيون غاضبون على حرب الفيتنام . الإنكليز ، الفرنسيون ، الألمان ، العرب ، التتر ، كلّهم غاضبون على حرب الفيتنام ، يحتجّون على حرب الفيتنام . بالاضرابات والتظاهرات ، والكتابات والمؤتمرات يحتجّون . الخبر الأخير عن الفيتنام جاء اليوم من أمستردام . « جون لينون » كبير البتلز ، الخنفس رقم ١ ، معبود الملايين ، الذي تزوج من الحسناء اليابانية « يوكو »...

يقهقه مرّة أُخرى . أسكران هو ؟ يمد يده ليساعدها على نزع ثيابها .

– تذكّرتُ حينما أغلقت الباب... جون ويوكو وصلا إلى امستردام لقضاء شهر العسل . تعالي يا يوكو ! (وجذبها من ساقَيها العاريتين) . وفي اليوم الأول لوصولهما دَعَوا إلى مؤتمر صحافي فصرّحا أنهما سعيدان جداً لقضاء شهر العسل في أمستردام ، مدينة السلام ، وأنهما يرجوان أن « يعملا » فيها ولداً ، ويسرّهما جداً أن يعلنا بواسطة مندوبي الصحافة والإذاعة والتلفزيون أنهما سيتركان باب غرفتهما في الفندق مفتوحاً على مصراعَيه ليأتي من يشاء ويتفرّج عليهما يمارسان الحب . طريقتهما – قال جون وأكّدت يوكو – في الاحتجاج على حرب الفيتنام . فظيعة حرب الفيتنام ! فظيعة !

كان رمزي قد قلب تميمه على السرير . يرتمي عليها . ينهش نهدَيها .

يطوّف بساقَيها . يتلمّس بشفتَيه أطراف أصابع قدميها ...

وتغمض هي عينَيها .

رياح . رياح على الشاطئ . رياح . رياح .

ومحمولة هي بوجه الرياح في الليل الأزرق على ذراعَين رفعتاها مرّة أُولى دون أن تعي . وتلك الثانية . وهذه — دون أن تعي الذراعان — الثالثة .

وفي السيارة ذات فوح الجديد ، ملء الحضن الآخر ، وبدل هذا الضوء الأحمر ، الذي يسرّح طيوفه المريبة في الزوايا والسقف والحيطان ، العينان اللتان تبتسمان وتلك القبلة .

هناك هي ، هناك ، على الشاطئ .

على الضفّة الأخرى من البحر . ولها جناحان كأطيار البحر . ومع أطيار البحر ترفرف بين البحر والأرض والسماء ...

لم تنتبه الا وقد أضيء المصباح الأبيض . وهي واقفة وسط الغرفة . وفي المرآة جسد عارٍ .

هي .

ويد تمسك بالحميم من الثياب قد همّت بارتدائه .

وبعده الفستان الملقى هنا على الكرسي .

« الثياب بكارة جديدة » !

وبعد الثياب الوجه الآخر . المستعار .

لا ! فلينتظر الثوب الحميم . والفستان ليسترح على كرسيّه !

إنها تريد أن تواجه هذه المرأة . تتأمل بهذا الجسد العاري . تصعد بأبصارها فيه وتهبط من أُمّ الرأس إلى أخمص القدمَين .

بهذا الشعر المُسبل على الصدغَين . خصلة منه ملتاعة تحجب عيناً ، والعين الأخرى فارغة إلا من الجسد العاري بنهدَيه الناجين .

بالصرَّة الخافقة زورقاً يتهادى على الموج . صِلاً ينطوي في كثيب .
بالردفَين المكوّرين .
بالساقَين الملساوين البارقتين .
بالغابة الصغيرة الكثّة ــ حيث يرود الشرف وحشاً مفترساً وتنام الفضيلة في مغاور السباع !...

نفضت خصلة الشعر عن عينها وأسرعت لتستر عريها بعيداً عن المرآة . عن نفسها . وبعد أن ارتدت ثيابها استدارت إلى المرآة ووضعت الوجه الآخر . فردّت لها الأخرى ابتسامة ــ ما معنى هذه الابتسامة ؟ ولمن ؟

« للدنيا » ــ أجابت نفسها ــ ثم سبقته ، حسب العادة ، في الخروج .
توقّفت على الباب كمن نسي شيئاً . هنيهة . ثم سلكت في السلّم .

كانت تنزل السلّم وكأنها تعدّ درجاته ، توقّع خطواتها الواحدة بعد الأخرى ، والحيطان تتجاوب بأصدائها في قفص السلّم المعتم ، تغور في قعره وتذهب في أعاليه . حتى وصلت إلى الباب الرئيسي ، فصفقها الهواء من الخارج فثنت معطفها على العنق ومشت .

كان عليها أن تمشي إلى الشارع الكبير . لا تكسيات في هذا الطريق الفرعي وأضواؤه خافتة . وهي تمشي ببطء . تجرجر قدمَيها .
لكأنها تمشي في موكب ــ ووحدها هي مع الليل .
أنغام الموكب في أذنَيها . له أنغام الصمت .
والموكب وراءها . أمامها . وفي وسط الموكب هي تمشي .
صامتة . والموكب صامت .
أخرس وخرساء إلا من أنغام الصمت .
وهي في الموكب ، مُطرقة ، تمشي في جنازة الحرف الذي مات ...

وإذا صوت يرعد باسمها ومع الصوت خيال يشقّ الليل منقضّاً وشيء حاد يشخط خدّها . فترفع صوتها وكفّيها فاذا الضربة الثانية مع شتائم تجرّح الليل :

- المرّة الثانية ذَبَحْتُكِ يا قحبة !
ويركن الخيال الضخم إلى الفرار .
وتقترب من المصباح على المفرق : الدم يملأ كفّيها . يلمع على الضوء أحمر ، حارًّا ، رطباً .
وتتحلّب منه إلى فمها قطرات .
قد ذاقتها . لها طعم مرّ حلو .
طعم الحياة والموت .

٢٣

لم يخطئ حسين القمّوعي هدفه .
الضربة الأولى كانت مُحكمة شطب بها وجه تميمه نصّور من اليسار ، تحت العين ، شطبة عمودية مع انحراف صوب الأذن . وضاعت الضربة الثانية في كمّها إذ اتّقتها باليد فلم تصبها إلا بجرح طفيف عند المعصم .
لماذا لم يكمل المعتدي مهمّته فيذبحها ؟ وعد بذلك في المرّة التالية .
« ثوري ! أحبك أن تثوري » . هكذا كان الشاعر يصرخ بها وبأخواتها .
كيف ؟ بالتظاهرات واللافتات !
أين ؟ في الشوارع والساحات !
ثارت . هذه نتيجة الثورة .
جاءت تواً إلى الشقّة . ومن الشقّة تلفنت للمستشفى ، فهرولت المس ماري مع الطبيب بالإسعافات اللازمة . أمّا المستشفى ، وهو يعجّ بالخلق ، فلم يكن من الحكمة أن تطأه تميمه إلا اذا كان في الأمر ما يوجب ، وها إن الطبيب قد طمّن والحمد لله .
وأضافت ماري :

– وأثر الجرح سيزول . لن يبقى أي أثر . صدّقيني ، أخو جرح التظاهرة .

وابتسمت لها عن كل نبلها وحنانها ، فوقعت تميمه في حضنها تبكي وتعترف لها بكل شيء .

في الصباح جاء الطبيب فغيّر للجرح ، فأصرّت على مشاهدته مكشوفاً في المرآة . وما كادت حتى انقلبت بعينَين يملأهما فراغ هائل .

وساد صمت . قالت ماري تقطعه بمرحها :

– ماذا تطبخين لعشائنا ؟ أترك لك الغداء لأني مشغولة عند الظهر وسأتغدّى في المستشفى . طبّاخة على حسابي ، يا دكتور ، من اليوم إلى... خمسة عشر يوماً على الأكثر . خمسة عشر يوماً محكوم على ماري المسكينة أن تأكل طبخاً محروقاً . الآنسة ، يا دكتور ، ماهرة في طبخ الأشعار .

وأسعف الطبيب فرمق تميمه مبتسماً :

– صحيح ، يا مدموزيل ؟ قالت لي المس ماري إنك طول الليل تكتبين . الليلة يجب أن تستريحي .

لم تجب تميمه .

كان قد تمّ الاتفاق أن لا تغادر المنزل من الآن إلى أن يشفى الجرح ويزول أثره . أي زوال هذا الذي يمنّيانها به ؟ بعد أن خرجا قامت مرّة أُخرى إلى المرآة وودّت لو تنزع هذه الضمادة لتتأمّله من جديد . ولكنها ليست عمياء . تكذب ماري . ويكذب الطبيب . إنه جرح عميق . ثلم كبير . ومعه حتماً تقلّص الجلد وانثناؤه .

أأثر وشَوْهة ؟ وارتمت تميمه على السرير .

إذن لقد وُسمت . وستحمل وسمها – علامتها الفارقة – هنا على وجهها عند عينها ، بوجوه الناس وعلى عيونهم . في دار المعلمين والمعلمات . في الجامعة وخارجها . في المجالس والشوارع .. وستُصوَّب إليها الأنظار ويُشار إليها بالأصابع : هذه العاهرة ! وهذا برهانها !

وستكون بين تلك الأيدي يد هاني ، وبين تلك العيون عيناه . لكأن القمّوعي لم يطعنها هي بل طعن ابتسامة تينك العينين ، وأخمد شعاعهما إلى الأبد .

إلى الأبد لن تشعّ لها ابتسامة عينيه . إلى الأبد ؟!

مرّة أُخرى ، لماذا لم يتمّ المعتدي ما بدأه فيذبحها من الوريد إلى الوريد ؟ واحدة تلحق بأخواتها — عشرات — يُذبحن كل يوم على العتبات ، في الأسرّة ، في عرض الطرقات ، ويُطرحن في تنكات الزبالة .

لكن ما أجّله حسين القمّوعي ستعجّله هي .

كيف ؟ ألف طريقة : الموس . السمّ . الروشه . هذا البلكون ... أيّ شيء !

ولمع في ذهنها شيء . ماري وضعت الإسعافات في الصيدلية الصغيرة المعلّقة في المطبخ . بين تلك الإسعافات قنينة فيها الشفاء الصحيح .

ومشت إلى المطبخ ...

حينما عادت الممرضة في المساء ، وقد عادت مبكرة قصداً ، استغربت كيف لم تبادر تميمه للقائها . فنادت فلم تجبها . فأسرعت إلى غرفتها . مقفلة من الداخل ! فدقّت مرّة . مرّتين . نادت بأعلى صوتها . لا أحد .

هل تكون ...؟

وتراجعت ماري . وبكل قواها دفعت الباب ملء كتفها فخلعته . ونظرت .

فإذا تميمه ممدّدة على سريرها بلا حراك وإلى جانبها قنينة اليود .

فوثبت إلى التلفون تطلب المستشفى .

الحلقة الثالثة

« ولكن لماذا أنا أُناديك يا ربّ
وهل أنت إلا غريب آخر؟... »

أنسي الحاج

١

تميمه مُسجاة على فراشها وصديقتها الممرضة ساهرة عليها الليل ، مع هذه الحبوب من الدواء التي وصفها الطبيب ، وهذا الماء الذي تفتح له فاها لتتقيّأه على الأثر .

على شفتيها يلتقي الموت والحياة ويتواجهان ، كما التقيا وتواجها ذات يوم ، ذات لحظة ، على شفير التينة في المهديّه .

دفتر الخرطوش .

٢٨ كانون الأول ١٩٦٨ – « لقد أردت أن أتقيّأ الحياة ، وها هم يجبرونني على تقيّؤ الموت الذي شربته . لماذا عادت ماري أمس مبكرة من عملها ؟ أمَا كان في استطاعتها أن تؤخر مجيئها قليلاً ؟ بل لماذا انهزمت الهاوية أمام ذراعَي الأم ؟ لماذا ؟

الموجة التي تريد أن تعانق نهايتها على رمال الشاطئ البعيد ، مكفّنة بأشعّة الفجر ، أيّ قدر عنيد يعيدها إلى العباب لتكرّ في المرّة الثانية على حائط المرفأ القذر وتعانق نفايات المدينة ؟ »

وتغشاها رقدة – « نشوة الحمى » قالت لنفسها . وبين الصاحية والغافية تتعاقب في ذهنها مشاهد متنافرة متداخلة : المهديّه ، المدرسة في صيدا ، حيّ الحمرا ، الست روز . أحيّ الحمرا هذا ؟ أم باب إدريس ؟ أم الروشه ؟ وتسمع أصواتاً تناديها :

– يا زهرة الحقل الحلوة ! تعالي يا زهرة الحقل الحلوة .

تجتهد أن تتبيّن المكان الذي هي فيه فلا تقدر على فتح أجفانها كأن أجفانها صفائح رصاص . ولكنها ترى روز جيداً . روز أمامها وروز عن يمينها وروز عن شمالها . روزات يحاصرنها بالعشرات ويتوددن إليها بالكلمات والإشارات ، على جباههن مصابيح حمراء ، وفي المصابيح شموع تنتحر ، وفي أعناقهن عقود من الجرذان تبرق عيونها ماساً وياقوتاً ، فيروزاً وعقيقاً .

– تعالي يا زهرة الحقل الحلوة . إقتربي لنطوّقك .

وتنزع إحداهن عقدها لتطوّقها به .

– أكاد أختنق ! أكاد أختنق !

كانت تميمه قد ضربت اللحاف بيدَيها الاثنتين فسوّته لها ماري :

– نامي . نامي . يجب أن تنامي .

رأت نفسها تغادر المرفأ... ولكنها لم تذهب اليوم إلى المكتب – تذكر جيداً أنها لم تذهب اليوم إلى المكتب – فكيف جاءت إلى المرفأ ؟ تمشي في شوارع المرفأ وجرذان المرفأ السمينة تطلع من الأقبية ، تخرج من شقوق الحيطان ، تقفز من المراكب إلى البر وتنتظم صفوفاً .

الجرذان تمشي معها . تنعطف ، اذا انعطفت ، من شارع إلى شارع . تحتمي بالقناطر – في سوق المعرض هي هذه المرّة ، ما في ذلك شكّ ، وإلا فمن أين هذه القناطر ؟ – وتحت القناطر طفل يتململ في خرقة فتندسّ الجرذان في خرقته .

وعتّالة يشخرون منبطحين على البلاط فتركب على شواربهم .

وشيخ في الزاوية يبصق رئتيه سعالاً فتلعق بصاقه .

وصبيّ يركض ناجياً بنفسه من لوطيّ . يدعس الصبي على الجرذان فتصوي صواء منكراً ، واللوطيّ يلاحقه . فتحاول صدّه فاذا به يهجم عليها فتلوي هاربة .

والجرذان تتبعها ... تسبقها ...
ترتقي الجرذان أدراج السرايات – بوقار ترتقي أدراج السرايات .
تتعرّش على أبواب المصارف وتشبك أذنابها بقضبان الحديد متأرجحة .
ها هي تتسلّق قبب الكنائس ومآذن الجوامع . حيّا على الفلاح ! حيّا على الفلاح ! والأجراس تقرع ملهوفة وتمزّق السماء .

وتفتح تميمه عينيها . أين ماري ؟ العرق يتصبّب من جبينها فترفع يدها من تحت اللحاف لتمسحه . تمرّ يدها بصدرها فتعلو عليه وتهبط . تثبّت يدها على صدرها .

أخفقات قلبها ؟

أم طرقات على الباب ؟

أم دقّات الساعة ؟

وتنظر إلى الساعة المعلّقة بالحائط إزاءها . هديتها إلى ماري يوم نزلت عليها في الشقّة : «ألا تعرفين قصة ميخائيل نعيمه «ساعة الكوكو» ؟ كنت أقرأ هذه القصة فأعجبتني ، وفكّرت بهدية فاشتريت لك ساعة كوكو . تعلن الوقت بصياح ديكها :

– كوكو ! كوكو !

الضربات لا تنقطع ، تصدع الجدران ، تثقب السقف ، وتهوي على رأسها .

– أغلِقوا الشبابيك ! أغلِقوا الشبابيك !

كانت ماري في المطبخ فهرعت تستطلع الخبر . مسحت جبهة تميمه وتميمه تحملق في السقف وتصرخ صراخها :

– الشبابيك الشبابيك ! أغلِقوها ! وسدّوا هذا السقف ! الغربان ! الغربان !

– أنت تهذين يا تميمه . نامي ، قلت لكِ يجب أن تنامي .

وربّتت على كتفها .

ولكن الغربان تصفق الشبابيك بأجنحتها السوداء وتضرب الزجاج بمناقيرها . «ألا ترون مناقيرها الشوهاء؟ تقع عليكم من السقف وقوائمها تتدلّى فوق رؤوسكم . ألا ترون قوائمها الزرقاء تتدلّى فوق رؤوسكم؟»

وفجأة تقتحم الغربان البيت .

من أين دخلت؟

تحوّم فوق السرير ثم تهوي . على وجهها ستهوي ! على نحرها ستهوي ! واذا هي تنزلق من السرير انزلاقاً ، تمرق تحت الغربان وترمي بنفسها من الشبّاك سابحة في الفضاء ...

حطّت في ساحة الشهداء . وأبو شرشور اليافاوي خلفها يلوّح بحبله ، وللحبل ظلّ يسبقها متراقصاً في الجو ، يطرد سرباً من الغربان يلحق بها ...

واذا بالجو يخلو فجأة ، فأرادت أن تتنفّس الصعداء فقادتها خطاها إلى النصب التذكاري . الجرذان حول النصب تزحف إلى المنصّة ، تملأ الحديقة ، تغطّي ساحة الشهداء . والساحة أقفرت ، لا ناس ولا سيارات ، لا زمامير ولا صفارات .

ليس إلا ضوء القمر الأبله .

والجرذان تمرح في ضوء القمر ، تتنادى متدفقة من الجبال ، تطلّ بنواجذها من صوب البحر ، تقبل من الشمال ، من الجنوب ، تسرح على أقدام الشهداء ، تدبّ بين سيقانهم ، على أكتافهم ، على رؤوسهم ، تلتفّ حول أعناقهم وتنقّر في عيونهم تنقيراً .

والساحة ، من جهاتها الأربع ، تمور بالرقص .

— «ساحتنا !» كان يهتف الجرذان بصوائهم .

ويتخاصرون ويقفزون
على أعقابهم يدورون
على الظهور ينقلبون وعلى البطون
يرفعون أذنابهم إلى السماء

يدقّون رؤوسهم بالأرض
يتهاوى بعضهم فوق بعض
يضحكون يبكون
وعلى جثث موتاهم يتضاجعون وينسلون...

واحد منهم ، زعيم ، على قمّة النصب ، يحدّجها بعينَيه الجوّالتين ، وينثني انثناءة ، وما يكاد حتى يكشّر عن نيوبه وينقضّ . ولكن اليافاوي كان قد رفع ذراعه الجبّارة وتلقاه بشرشوره .

ونظرت تميمه . فإذا الحبل يلفّ الشهداء وقد رسم ظلّه في الأفق قوس قزح عجيباً .

كوكو ! كوكو ! كوكو !
وطلع الصباح...

متجهّماً طلع الصباح ، ملطّخاً بالحادث الجلل – إعتداء اسرائيل على مطار بيروت الدولي – قد هبط جنودها من الجو تحميهم الطائرات الحربية، فأشعلوا النار في ثلاث عشرة طائرة مدنية جاثمة على الأرض ردّاً ، كما ادّعت إسرائيل ، لاعتداء على طائرة من طائراتها قام به في أثينا قبل أيام فدائيان انطلقا من لبنان . تمّ الغارة في الساعات الأولى من الليل فلا يتعرّض لها أحد ، ولا تنطلق في وجه أصحابها نأمة .

٢

عظم الأمر في نفوس الطلاب، فهبّوا غاضبين لكرامة وطنهم وأعلنوا الإضراب في الجامعات وشاركهم فيه تلاميذ المدارس في العاصمة والمدن حتى القرى الصغيرة النائية ، ورفعوا مطالب إلى السلطات في مقدمتها التحقيق في فضيحة المطار وإقرار التجنيد الإجباري . ولم تلبث الحركة

أن تطورت من الإضراب عن الدروس إلى الاعتصام في المعاهد والصيام والتظاهر . واستقالت الحكومة وقامت حكومة أُخرى فطوّقت الطلاب بواسطة الجيش تمنع عليهم الخروج ، فتحوّلت بيوت العلم ضمن جدرانها إلى قُفُر نحل .

كان الوقت يزحف بأثقاله وتميمه حبيسة في الشقّة .

أما ما نالها من محاولة الانتحار فقد زال بعد أيام . وأما الجرح فقد شفي بعد أُسبوعين كما قالت ماري ، بل قبل انقضاء الأسبوعين . ولكن أثره كان همّها . فعدّت له أُسبوعاً ثالثاً ، وتنظر إليه في مرآتها كل ساعة .

صحّ ما توقّعته . الأثر باقٍ . يسطع . يدلّ على نفسه . عليها !

— أُغطّيه لكِ بضمادة . تقولين بثرة طلعت بوجهك ، إلى أن يمّحي . سيمّحي ، أقول لك ، مع الوقت . تفهمين بالحب ، سلّمنا ، اتركي لي الطبّ .

كانت ماري ترعاها بمحبة وحنان مع مرح لا يفارقها . وزارت آمنه ابنتها في أثنـــاء ذلك فزعمت لها الزعم الذي لُقّنته فجاز على الأم . وسمّاعة التلفون معلّقة طول غياب صديقتها في المستشفى ، تقطع بذلك السبيل على مَن يتصدّى للاتصال بها من الخارج . فإذا كانت ماري في الشقّة ردّت على السائل : الآنسة تميمه في المهديّه ولن تعود إلا بعد أن تفتح الجامعات أبوابها .

وتميمه تتحرّق في سجنها وتقضم جرائدها آناء الليل وأطراف النهار قد أوصت على دزينة من كل الألوان : جرائد بالعربية . بالفرنسية بالإنكليزية . جرائد صباحية وأُخرى مسائية . تتابع فيها الأحداث وتذهب بخيالها متتبعة حركة الطلاب ونشاط الرابطات ، وتعيش مع هاني في مظانّه .

وفجأة ينتصب الجدار . كيف تقابله بما تحمل ؟ كيف تخفي عنه فعلة حسين القمّوعي ؟ وإذا أخبرته بها فهل تدّعي أنها نتيجة المحاورة في

تحقيق «أوتلوك» !

العياذ بالله !

وسترت وجهها بكفّيها الاثنتين . مستحيل ! مستحيل أن تنحطّ إلى هذا الدرك . إنها إذن تطعنه بدورها وبأحقر من السكين الذي طعنها به الآخر . أكثر من ذلك . لن يعلم هاني شيئاً مما كان . بعيداً بعيداً يجب أن يبقى هاني . هي لعنتها ، ويجب أن تتكفّل وحدها بلعنتها .

ولكن كيف ؟ كيف واللعنة تصرخ على وجهها بوجهه ووجوه الناس أجمعين ؟

وحطّ اليأس على صدرها مرّة أُخرى وضاقت بها دنياها .

ذات صباح قالت لماري إنها ذاهبة إلى المهديّه لتستريح بضعة أيام ، فسوّت لها ماري ضمادتها على شكل ارتضته . فودّعتها تميمه وخرجت .

كان عليها أن تعرّج على مكتب النقابة ، قبل أن تطلع إلى المهديّه ، لأوراق شخصية أقفلت عليها الخزانة . ستأخذ أوراقها وتسلّم مفتاح الخزانة لبهجت أفندي . لقد منحتها النقابة إجازة شهر لمرض ادّعته ، ولكن الإجازة ربّما امتدّت إلى أجل غير مسمّى واحتاج المكتب إلى سكرتيرة أُخرى واحتاجت السكرتيرة إلى الخزانة وفيها الكثير من الملفّات .

شدّ ما كانت دهشتها إذ وجدت المكتب مقفلاً . إنها الساعة العاشرة ، وعزيز يفتحه قبل الثامنة كل يوم . أين أبو العز ؟ أين أبو الهول ؟

وارتدّت إلى المكتب المجاور تريد أن تتلفن لأمين السر في منزله ، فإذا ببهجت أفندي يُقبل ليفتح بنفسه .

قال :

– في اليوم الثاني لضرب المطار ترك لي أبو الهول ورقة في المكتب يقول فيها إنه ذاهب ولا يعرف متى يعود إذا عاد . وسألت أباه عنه فقال : أبو العز راح يأخذ بثأر أخته . التحق بالفدائيين .

٣

كان هاني الراعي منكبّاً على قضية الساعة ، يطوف في نخبـة من زملائه . أعضاء رابطة كلية الهندسة ، بسائر كليات الجامعة ويتنقّل بين الجامعات الأخرى . الإضراب شامل ، مع لجـان وبيانات ، وخطب وإذاعات . وكتابات على الجدران وحلقات تُعقَد في كل مكان . تمتزج خلال ذلك كلّه الحماسة بالنقمة ، بالمرارة ، بنزق الشباب وبراءته ، ترفدها التيّارات المتدفّقة من أربع جامعات ببرامج متباينة ، ولغات متعددة ، وطوائف وجنسيات مختلفة . ولم تمضِ أيام حتى فقدت الحركة صفاءها الأول . تعكّرت بضروب من الرواسب طفت أوحالاً ، وانهمرت فيها مع كل ريح أبخرة من معامل التعصّب وغبار الشوارع الغوغائي . والزعماء التقليديون وتجّار النفوذ قد اندسّوا في صفوف الطلاب يحرّكونهم لمآربهم الحزبية وشهواتهم الخاصة ويغمسون رؤوسهم في أجران الأصبغة العقائدية من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين .

تعدّدت الاجتماعات والمشاورات بين هاني وأصحابه . في قطاع الطلاب وحـده كان ضمير الأمّة يختلج ويتخبّط . ولكن ما عساهم يفعلون والأكثرية الساحقة منهم ما تزال ، بالرغم من مظاهر الثقافة ، مرتبطة بالمدرسة العتيقة ، يرفعون شعاراتها ، ويخدمون أغراضها غافلين . والحكام عاجزون لا يقدّمون إلا حلولاً اتّكالية وصوراً باهتة لمستقبل يكتنفه القلق والشكّ . قد اغتبطوا — على الصعيد الخارجي — وصفقوا لقرار مجلس الأمن الإجماعي بإدانة إسرائيل على اعتدائها الغاشم . ولوّحوا — على الصعيد الداخلي — باستجابة بعض المطالب، فوعدوا بمشروع قانون للتجنيد الإجباري وصرّحوا أنهم يمنحون الفدائيين تأييدهم الكامل وبركتهم . أما بقية المطالب ...

قال هاني :

ـ بقية المطالب لا يمكن ارتجال تحقيقها . يجب أن نحدّدها قبل كل شيء . أن نعرف ما هي وأن نتّفق عليها . إنها ليست من عمل الحكومات . ليست من عمل هذه الحكومات المتعاقبة ، في كل حال .

كانت قد بُذلت محاولات يائسة لتصعيد الحركة . وخصوصاً في الجامعة العربية والجامعة الأميركية ، فانقطع فريق من الطلاب عن الطعام معتصمين بقاعات الدرس هنا وهناك ، وانهار منهم بضعة عشر تحت تأثير الجوع فنُقلوا إلى المستشفيات ، ما سأل عنهم إلا أهلهم الأقربون ، فيما انطرح الآخرون في قاعاتهم يصمد منهم مَن يصمد ، ويضبّ منهم مَن يضبّ على فراشه في اليوم الثاني أو الثالث ، والعسكر بأسلحتهم الكاملة يحيطون بالجامعات سوراً منيعاً ، وإطفائيّو السياسة يتلقّون شرارات تطايرت في الجو بقصد إلهاب العمال لينضموا إلى الطلاب في زحف ثوري ، فأخمدوها ، وبقي العمال وسائر فئات الشعب بعيدين عن الساحة يقرأون أخبار الطلاب كما يقرأون برامج السينما .

إن الحركة تختنق .

وطُرح السؤال : هل نعود إلى دروسنا ؟

اختلف الرأي بين الجامعات ، واختلف بين الطلاب في كل جامعة ، واحتدم الجدال داخل الجامعات وخارجها .

في ذلك المساء قصد هاني إلى « نادي الحوار » لاجتماع دعت إليه ـ كما جاء في البطاقة ـ « عصبة الطلاب الأحرار » لمناقشة الموضوع .

كان النادي واحداً من عشرات الأندية التي تعجّ بها بيروت ، والحوار كلمة على كل لسان وقلم في تلك الفترة ، يدعو إليه ويلتقي عليه الساسة والمفكرون والطلاب والفنانون والعمال . حتى أصبح شعاراً وطنياً مرفوعاً فوق الرؤوس ، وعملة رائجة .

دخل هاني ومعه قاسم الهلال وأحمد عدنان ولطفي الزحلاوي . وما إن أجال بصره في الحضور – نحو من خمسمائة شخص – حتى تبيّن له أنهم خليط من الطلاب من مختلف الجامعات وبينهم عدد كبير من تلاميذ المدارس بعضهم دون الخامسة عشرة ، مع هدير يملأ المكان ورؤوس كان واضحاً أنهم من المشاغبين أو المتفرّجين . جو يعرفه هاني من أمثال هذه الاجتماعات . فاتخذ لنفسه كرسياً ولزّ أصحابه حواليه .

على المنصّة طاولة سوداء ، مستطيلة ، خلفها ثلاثة كراسي ، وجرس في وسط الطاولة مع أبريق وثلاثة أكواب . ومجيء وذهاب بين الصف الأمامي وسلّم المنصّة . وما هي حتى خرج من الكواليس شاب يقع عليه نظر هاني وجماعته لأول مرّة – أطالب هو ؟ – قصير ، عريض ، يدلف بسمنته وعلى وجهه المربّع ابتسامة مصنوعة . ودوّى النادي بتحيته والهتاف للعصبة والطلاب الأحرار ، وهو يرفع ذراعيه الاثنتين ويشبكهما في الهواء عهداً وميثاقاً ، ثم ينحني بالشكر حتى لامس رأسه الطاولة ، ثم نتق به فرحّب بالحضور ودعا إلى انتخاب رئيس للاجتماع . وما كاد حتى كان أحدهم قد اعتلى كرسياً في طرف القاعة فأعلن بصوت جهوري :

– كلّنا هنا إخوان . ونعرف كلّنا مَن يستحق هذا الشرف بيننا . إنه رائد حركتنا الوثّابة ، وحامل لوائها الخفّاق ، وزعيمنا دون منازع ، عنيت رئيس عصبة الطلاب الأحرار ، وبالإجماع أقترح ...

فارتفعت أصوات :

– موافقون ! موافقون !

وصحبتها أيدٍ بالتصفيق ، فيما ارتفعت أيدٍ وصيحات بطلب التصويت ، واحتجّ أحدهم :

– ليس بيننا زعماء . لا نتعرّف إلى زعيم !

فتولّى إطفائيو النادي إسكات المتجاسر وإخراس المعترضين ، واستوى الرئيس في رئاسته .

وبالطريقة ذاتها تمّ تعيين أمينين للسرّ . مع هذا الفارق أن الرئيس كان قد تسلّم صلاحياته بدءاً بقرع الجرس الذي أعان الاطفائيين على أداء مهمتهم . فنهض من الصف الأمامي اثنان ، فلاقاهما مصافحاً بالتهنئة . ثم توجّه إلى الحضور وقال إن العصبة تلقّت عدّة رسائل وبرقيات من مختلف الأنحاء – وطلب من أمين سرّ يمينه أن يتلوها – من طرابلس ، من صيدا ، من زحله وبعلبك ، من صور والنبطية . حتى من دمشق والقاهرة ، وكلّها تدعو إلى مواصلة الإضراب . إلى الأمام حتى النصر .

– حتى النصر ! حتى النصر !

– إلى الأمام ! إلى الأمام حتى النصر !

فأشار الرئيس بالهدوء وسوّى جلسته وشرع في خطاب الرئاسة :

– نجتمع هنا لا كأولاد يخرجون من الماضي بل كرجال يدخلون إلى المستقبل (تصفيق) . إن أبواب المستقبل موصدة بوجوهنا . ولقد أعلنّا إضرابنا العام الشامل ، نحن طليعة الجيل الجديد لتحطيم الأقفال (أصوات : سنحطّمها ! سنحطّمها !) وتعاهدنا على مواصلة النضال ولن نرجع مهما كلّفنا الأمر .

ومضى على هذا النحو عشرين دقيقة فأثار خطابه موجات عارمة من الحماسة . فلمّا فرغ أعطى الكلام لمقرّر لجنة الدراسات في العصبة . فأقبل طويل ، نحيل ، في وجه عصفور ، عليه نظارتان ، مع كدسة من الأوراق ، فجعل يسرد على السامعين من أوراقه :

– أربع جامعات : جامعة بيروت الأميركية التي تأسست سنة ١٨٦٦ ، وجامعة القديس يوسف التي تأسست سنة ١٨٧٥ ، والجامعة اللبنانية التي بدأ تأسيسها سنة ١٩٥٣ بمعهد المعلمين العالي ، والجامعة العربية التي تأسست سنة ١٩٦٠ . يُضاف إلى جامعة القديس يوسف مركز الدراسات الشرقية ومدرسة الآداب العليا وقد أُنشئتا سنة ١٩٥٤ .

وراح المقرّر يستعرض البرامج المختلفة ويقابل بينها . ومنها إلى اللغات

المتعدّدة التي تُعطى بها الدروس ، ومنها خاص في الاحصاءات : ٤٥ فقط من طلاب الجامعة الأميركية لبنانيون و ٥٥ ٪ أجانب — ٨٢ ٪ لبنانيون في جامعة القديس يوسف و ١٨ ٪ أجانب — ٢٠ ٪ لبنانيون في الجامعة العربيــة و ٨٠ ٪ أجانب — ٦٧ ٪ لبنانيون في الجامعة اللبنانية و ٣٣ ٪ أجانب ... غير أن التوزيع الطائفي (أصوات : فلتسقط الطائفية ! فلتسقط الطائفية ! نرفض الأرقام الطائفية !) .

وعلت في الوقت نفسه ضوضاء من نوع آخر :

— مَن هم الأجانب ؟

— مَن تعني بالأجانب ؟ العرب !

— نرفض هذه النعوت !

فقرع الرئيس جرسه فاستأنف المقرّر :

— غير أن التوزيع الطائفي يطرح مشكلات أكثر خطورة . إن نسبة الطلاب المسلمين في الجامعة اللبنانية — مثلاً — ٥٠ ٪ من المجموع العام . بينما تنعدم نسبة الطلاب المسيحيين في جامعة بيروت العربية .

ولكن السامعين عادوا إلى الاحتجاج . وتثاءب فريق بداعي أن الاجتماع ليس للمعلومات الإحصائية وبالإمكان العثور عليها في أي كرّاس . فاضطُر المقرّر إلى طي أوراقه والنزول عن المنصّة قبل أن ينتهي إلى استنتاجه .

— مؤسف ، قال هاني ، إنه ضرب في العظم .

تولّى الخطيب التالي قلب الجو رأساً على عقب . مشى إلى المنصّة بخطى عسكرية ووقف كالرمح وصاح بأعلى صوته :

— الدعوى مقامة على الدولة . نطالب بإنزال غضب الشعب على رؤوس الخونة . نريد الثورة . الثورة ! الثورة ! الثورة ! وكل ما عدا ذلك كلام .

— فليسقط الخونة ! تعيش الثورة .

وهنا أعلن الرئيس حدثاً سارّاً . قال :

– إن بيننا زميلاً من القطر الشقيق سوريا (هتاف : تحيا سوريا ! تحيا سوريا !) جاء خصيصاً من حمص ...

ولكن الجلبة منعته من المتابعة . كانت هذه المرّة أمام هاني في الصف الذي يلي صفه . غلق الأخذ والرد بين الهاتف بحياة سوريا وجار له . فقد وجد الجار في هتاف صاحبه ريبة . سمعه يلفظ سوريا بالتخفيف – لغة الحزب الذي لا يطيقه – فوقع الخلاف على الشدّة . فأقبل الإطفائيون وفرّقوا بينهما ، ورفع قائدهم ذراعه صوب المنصّة ، فعاد الرئيس يقدّم الزميل السوري ويطلب له التصفيق ترحيباً .

ألقى الضيف الكريم خطاباً مكتوباً حيّا فيه باسم الطلاب الثوريين على ضفاف بردى عصبة الطلاب الأحرار . وبعد التحية صدع إسرائيل والصهيونية ، وعطف على الاستعمار والأمبريالية ، ثم انكفأ إلى الرجعية والإقليمية ، سواء أكانت في ظل الملكية أم في أكناف الجمهورية ، داعياً إلى تحطيم الحواجز وإزالة الحدود ، وإعلانها وحدة عربية شاملة من الخليج إلى المحيط .

– تعيش الوحدة العربية . تعيش ! يا ! يا !

– تعيش ! تعيش !

– يعيش لبنان !

– يعيش لبنان حراً مستقلاً سيداً ! يا ! يا !

– يعيش ! يعيش !

واعتلى الأكثرون كراسيّهم وارتجّت القاعة من أطرافها بالهتافات والهتافات المضادّة ، وكاد الفريقان يشتبكان ويحدث ما لا تُحمد عقباه ، ووقف الرئيس يلوّح بالجرس مادّاً ذراعه ويقرعه بعنف . وقد خطر له خاطر عبقريّ فصاح :

– يعيش الفدائيون ! يعيش الفدائيون !

وجاءه العون من الإطفائيين فعيّشوا الفدائيين ، الأمر الذي وافق عليه

الفريقان وحسم بينهما النزاع ، فيما كان أمين سرّ اليسار ينحني على الرئيس ويهمس في أُذنه شيئاً ، فينتصب الرئيس ويعلن :

ـ الأستاذ رمزي رعد ! نستمع ، أيها الاخوان ، إلى الكاتب الكبير الأستاذ رمزي رعد ضيف الشرف في اجتماع عصبة الطلاب الأحرار .

فساد الصمت واشرأبّت الأعناق .

كان رمزي رعد النافخ في بوق الطلاب ، مقالاته تُتلى في الحلقات ، وكلماته تُعبّأ بها البيانات والمناشير . فوقف بقامته الضئيلة وسط عاصفة من التصفيق لم يُعرها شكراً ولا التفاتاً . وكأنه لا يسمع ، وكأنه وراء نظارتيه لا يرى . والقوم عيون وآذان .

ـ أيها الطلاب الأحرار ، عبيد أنتم ! (فصفّق أحدهم غير بعيد عن هاني فضربه آخر على كتفه) . ليتكم لم تقوموا بإضرابكم الشامل الخامل ! ليتكم لم تعلنوا حركة ليس فيها ، كيفما نظرت ، بركة . أردناكم صوتاً صارخاً في وجوه الأرباب ، ومعاول في هياكل اللصوص ، فإذا أنتم بعد شهر حيث أنتم .

وراح الخطيب يدعو إلى الانتقاض على السلطة ، ومن التقريع إلى التشجيع :

ـ أيها الطلاب ، سيفتحون مخازنهم ـ وقد فتحوها ـ يدعونكم إلى الاختيار بين العكاكيز التي يوزّعونها على الشعب ، لتمشوا في قطيع العرجان والمكرسحين . اصرخوا بهم : لا نريد عكاكيزكم المهترئة ! لا نريد نظامكم ! ونكفر بأديانكم المزيّفة !

وأدار وجهه ومشى خطوة أو خطوتين ، فظنّ الحضور أنه انتهى . فإذا هو يدور على عقبَيه :

ـ أيها الطلاب الأحرار ، عبيد أنتم مرّة ثانية إذا لم تخرقوا الأسوار التي حجزوكم خلفها فحاصروكم ليخنقوكم . فإذا لم تستطيعوا فإلى الاستشهاد

أدعوكم . سائلوا كهنة فيتنام كيف جعلوا من أجسادهم مشاعل للحرية . سائلوا اليابان . سائلوا تشيكوسلوفاكيا . بدلاً من أن يستسلم الثائرون قاموا يحرقون أنفسهم ويستشهدون . أليس بين العبيد في لبنان حرّ؟ أليس بين الموتى في لبنان حيّ ليموت ميتة الأبطال والشهداء والخالدين؟

كهرب الأستاذ رمزي رعد القوم . ونزل عن المنصّة فاخترق الصفوف بين الهتاف والتصفيق ، وخرج من النادي يشيّعه حرس من العصبة حتى الشارع .

خُيِّل إلى هاني وصحبه أن الاجتماع انتهى أو أوشك فتهيأ للانصراف ، ولكن العشرات هبّوا يعتلون كراسيّهم ويزايدون ، ولكل منهم مطلب ينادي به : هـذا بميزانية للعمل الفدائي ، وذاك بإلغاء النظام الطائفي ، وثالث بتوحيد التعليم الوطني . ورابعهم باقفال المعاهد الأجنبية بما فيها المدارس والجامعات فنعت أكثرها بأوكار للتجسس وفبارك للعملاء ، فأشعل النار في الهشيم :

— أي مدارس تعني ؟ أي جامعات ؟

— سمِّ !

— سمِّ ! سمِّ !

واشتدّ اللغط وعلا الصياح ، والتهم تُلقى من كل صوب عكساً وطرداً ، يتقاذفها الطلاب كالكرة ، وفيهم من كل المعاهد : — الفرنسية ! — بل الأميركية ! — بل العربية ! — بل اللبنانية المسيحية الاسلامية الطائفية ... وساد الهرج والمرج وتماسك اثنان في ناحية بالأيدي وانطلقت شتائم . فشقّ هاني لنفسه حتى أدركهما فضرب بيديه مفرّقاً بينهما . وإذا أحدهما ، حسين القمّوعي ، الهتّاف بالتعييش والتسقيط — صاحبه في محاورة تحقيق «أوتلوك» — فأزاحه وأخذ بيد قاسم يشير إليه بالخروج . ولكن قاسم طلب إليه التريّث . قال إن لديه شيئاً يريد أن يقوله ، ومشى برأسه الضخم إلى المنصّة .

وقف ساكتاً . سكت الجميع . قال :

– هنالك قضية نسيها حضرات الخطباء . قضية هامّة تشغل الأذهان في لبنان ، وخصوصاً في أوساطنا نحن الطلاب . أُحب أن أعرف رأي الإخوان فيها . فهل تأذنون بعرضها ؟

أصوات :

– هات ! هات ! تفضّل . ما هي هذه القضية ؟

– الميني جوب .

قالها بكامل وقاره فتجاوبت القاعة بالضحك . فتناول الجرس من أمام الرئيس وقرعه ثم تابع :

– الحوار بيننا ميني جوب : يكشف أكثر من اللازم وأقل من المطلوب . المطلوب هو اتفاقنا . أُعلن باسم خريجي الجامعة اليسوعية أنني سأدعو الإخوان أعضاء الرابطات في جامعتنا وفي الجامعات الأخرى إلى اجتماع عام للبتّ في أمر الإضراب . وأرجو من الرئاسة إقفال باب المناقشة . إن الطاحون يدور على الفراغ .

ومشى إلى الباب حيث كان ينتظره هاني والأصحاب .

وانفرط الحفل .

٤

في المهديّه لازمت تميمه غرفتها وأقفلت على نفسها ، لا تريد النور ولا الجامعة ولا بيروت ولا الدنيا . وإذا دخلت عليها أُمها بالطعام فبعد ألف رجاء ، وترفضه إلا لقمات بالقوة .

في اليوم الثالث لوصولها جاء من جابر كتابٍ كان حدثاً عظيماً عند الأم ، وهو موجّه إليها مع عبارات تسيل بالعواطف ، يخبر فيه أن أباه

ما يزال قيد المحاكمة ـ « ستطول ولا يستطيع ذكر التفاصيل والأمل بالله » ـ وأنه أصبح اليوم على رأس الأشغال بعد أن طرد المستخدمين في محل أبيه ، وكانوا « يسرقونه ويزوّرون في الدفاتر » . وختم بألف ليرة يرسلها بواسطة الحاج فضلو « وطلب رضا الوالدة الحنون ودعائها » .

رفضت تميمه مرافقة أُمها في النزول إلى صيدا . وعادت آمنه بالمبلغ من عند الحاج فضلو وقد انتعشت روحها وجلست إلى ابنتها تدفق عليها من سرورها .

ـ الله أعطاك كل شيء ، يا ابنتي . قولي لي ما بك . تريدين أن تتزوّجي؟ أنا أُمك ، قولي لي أرشدك إلى الزوج الذي يليق .

كانت آمنه نصّور تنتظر كل شيء إلا ما جبهتها به ابنتها . ضربت تميمه بكفّها فنزعت الضمادة الكاذبة وأعولت بوجه أُمها كالذئبة :

ـ تريدين أن تزوّجيني ؟ خذي !

وأفرغت كل شيء . الفضيحة كلّها . كما هي . عارية . رهيبة . وسمّت حسين القمّوعي ، وسمّت رمزي رعد ، وجرفها السيل فسمّت حتى هاني الراعي .

ـ تريدين أن تزوّجيني ؟ هاتي لي زوجاً لأضع وجهي بوجهه . أقول له : بوجهي أحمل علامتي لتبقى بوجهك ، بعينَيك ، لئلا تنسى من أنا ! أرشديني إلى الزوج الذي يليق بي . هاتيه من عبّك . من صلواتك إلى ربّك . قولي له يطلبه من جهنّم ليخطبني منك . صلّي ! صلّي لتامر نصّور في أفريقيا . إقرعي صدرك ! أُذرفي الدموع لزوجك العزيز ونامي على فراش العفاف والفضيلة ، والإخلاص والوفاء . أتعرفين على أي فراش ينام هو على بعد آلاف الكيلومترات؟ إسألي أُم حسين . إسألي البنت التي دسّت لي الورقة في دِرج الصف « : القصائد الرنّانة لأختك العبدة السوداء » ! والله يعلم كم أختاً لي وكم ضُرّة لك سوداء وبيضاء ومن كل لون . أما أنتِ فادفني شبابك في المهديّه . هنا في قنّك لِصقْ

الحائط . تمرّغي بأوساخه ولا تتعطّري بغير رائحتها لئلا يأتي ويجدك خارج السياج فيذبحك . أليس أنه يلقي إليك بالزؤان والفتات ؟ إلتقطي ! كلي ونامي قريرة العين . وصلّي لابنك جابر ! جابر أيضاً يلقي إلينا بفتات موائده ... تريدين أن أكتب لجابر ؟ أن أُجيب جابر على رسالته ؟ جابر على رأس الأشغال !... إنتظري . أبشري ما دام جابر قد تسلّم المحل مكان أبيه وأصبح على رأس الأشغال . قولي لي ماذا أكتب له ؟ كيف أشكر الأخ الشفيق الذي ينتف شعر أُخته لأنها فضّلت الجامعة على القنّ ، ويهدّدها بالذبح إذا تطلّعت من مهديّتك صوب بيروت ؟ ولا تنسي في صلواتك حسين القمّوعي إذ تصلّين لجابر . حسين القمّوعي وكيل جابر نصّور في غيابه أمام الناس وأمام ربّك . أمّا أنا فقد كفرت . كفرت ! قومي لربّك واتركيني .

تركت آمنه ابنتها . قامت مصعوقة تميد بها الأرض .

—أغلقي الباب وراءك !

لم تغلق الأم الباب . لم تُدر وجهها .

— قلت لك أغلقي الباب !

فارتدّت الأم مرّة واحدة ، وعلى مدّ ذراعها صفعت تميمه ملء وجهها ، وضربت عليها الباب ...

في الليـل أفاقت تميمه عـــلى نفسها تبكي . ثم نهضت إلى الحمّام — حجّة — ودنت من غرفة أُمها ووضعت عينها على خصاص الباب . كانت آمنه قاعدة في فراشها في العتمة ، وعلى وجهها من الشبّاك ضوء شاحب . جامدة ، لا تتحرّك ، كأنها في العتمة ، وتحت ذلك الضوء ، تمثال الحزن ، إلا أنه حيّ من هاتين العينين الشاخصتين في الفراغ — مسمارين انغرسا في قلب تميمه — فحدّثتها نفسها بفتح الباب والارتماء على صدر أُمها ، فإذا آمنه تزيح اللحاف وتهمّ بالوقوف . فانسلّت عائدة إلى غرفتها .

ومع الصباح — ككل صباح — أكبّت على الجرائد التي تأتيها إلى

المهديّه . أخبار الإضراب مشوّشة . من الجامعات ما فتحت أبوابها ومنها ما يزال مقفلاً ، فالرأي بين الطلاب منقسم . أذاعت الجامعات على طلابها بياناً : « الدروس تُستأنف اليوم والطلاب مدعوون إلى صفوفهم ، وأما من أراد منهم الاستمرار في الإضراب فشأنه » . تركت لهم الخيار . وتقول الجرائد إن قوّات الأمن قد وقفت على أبواب الجامعات تشرف على الحالة وتضمن حرية الخيار . على أن فريق المتطرّفين تنادوا إلى حشد صفوفهم على الأبواب ليمنعوا الآخرين من الدخول فالموقف يهدّد بالاصطدام بين الطلاب وينذر بالشرّ .

كيف لها أن تكون إلى جانب هاني في هذه اللحظات الحاسمة ؟

وأمها لا تكلّمها . لا تدعوها إلى الغداء . تروح وتجيء في البيت ولا تلتفت إليها .

وفجأة تقتحم غرفتها فتضرب بيدها الاثنتين على الجرائد فتمزّقها ، وإلى المجلات المصورة فتقذفها من الشبّاك ، قد استشاطت غضباً كما لم ترها تميمه في حياتها .

في الهزيع الأخير من الليل أفاقت على هدير وأضواء متقطّعة تتدفّق من الشبّاك .

أرعود وبروق مع الصحو الذي كان أمس ؟

وإذا بالهدير يتعاظم ومعه صفير يمزّق الجو مع دفعات متوالية من النور تعقبها قصفات متقاربة ترتجّ لها أركان البيت . وخُيّل إلى تميمه ، سحابة فترة ، أنها رؤيا من رؤاها ، لولا أن فُتح الباب وأُمها تصرخ :

— حرب ! حرب ! الله أكبر ! الله أكبر !

فوثبت تميمه من فراشها إلى الشبّاك فإذا السماء تتدلّى منها مشاعل ، وطائرتان ، ثلاث طائرات ، بل أربع تحوم فوق المهديّه ، وخامسة تمرق فوق البيت تكاد تمسح سقفه ، تغيب لتعود فتواجه تميمه وأُمها المتشبّثتين

بحديد الشبّاك وكأنها ستنقضّ على البيت ، والدجاجات تصيح صياحاً منكراً. فتهمّ آمنه ، فتنترها ابنتها من كتفها وتنبطح بها على الحصير .

كان القصف يتوالى ومعه الأضواء الباهرة تطرد الليل وتملأ البيت . وآمنه تستر وجهها بكفّيها وتستعيذ بالله لائصة في مطرحها . ثم أحسّت تميمه أن أُمها تحاول النهوض – « إلى أين ؟ » كانت الدجاجات قد اشتدّ لغطها فهي ترفرف في القنّ كالمجنونة وتضرب السياج من كل صوب . فشدّت تميمه بثوب أُمها تمنعها من التحرّك . ولكن آمنه أزاحت يد ابنتها وزحفت القرفصاء حتى وصلت إلى الشبّاك وجثت تحته تصلّي وعيناها إلى السماء . فأطبقت تميمه أجفانها وقد غمرها شعور الخجل من نفسها والرثاء لأمها معاً . وكادت تنسى الغارة ، فإذا الطائرات تعود فجأة وتلقي قنابلها زخّاً ، قد دوّت قنبلة هنا ، لِصق البيت ، بانفجار عظيم ارتعدت له الجدران وأعقبه دخان وغبار سدّا الشبّاك . ونظرت فرأت أُمها قد وقعت على وجهها وهي تصرخ ، فدنت منها ، وما كادت حتى ارتمت الأم فوق ابنتها تلفّها بذراعيها الاثنتين وتبكي .

لبثتا كذلك صامتتين ، إلا دقّات قلبيهما المتجاوبة ، حابستين الأنفاس . ثم انقشع الدخان والغبار عن الشبّاك وتبع ذلك أزيز للطائرات مجتمعة، ثم أخذ يخف شيئاً فشيئاً . – « تعود إلى قواعدها سالمة » قالت تميمه . وقامت آمنه .

وخرجتا في الفجر إلى السطيحة .

– بيت أُم علّوش يحترق ! – صاحت آمنه .

وبقرة تنفر من ذعر في الطريق مجرجرة حبلها ووتده . واندفعت آمنه لترى ما حلّ بأُم علّوش وسبقتها تميمه . كانت النيران تتصاعد من البيت والدخان يغطّيه ، وهما تتلمسان الباب فلا تهتديان إليه . وانبثق لسان من اللهب لفح وجه تميمه فرأت البيت قد تهدّم جداره الأمامي وسدّت الحجّار الباب ، فنادت بأعلى صوتها فلم يُجب صوت ، ودارت

آمنه حول البيت وانكفأت بالخبر : علّوش تحت الأنقاض وأُم علّوش ـ رأتهما من الشبّاك ، ألصقت رأسها بحديد الشبّاك ، أعماها الدخان والغبار ـ « تحاول أُم علوش سحب علّوش من تحت كومة من الحجار ! » وجرت تميمه وراء أُمها . الشبّاك محدّد ، ولكن الجدار حواليه تشقّق ، فتضرب بكلتا يديها على قضبانه وبقذفة من كتفها تنقذف وراءه إلى الداخل...

كانت المهديّه تحصي ضحاياها بالأخبار يتناقلها الناجون من مأتم إلى مأتم في أنحاء الضيعة : ثمانية قتلى ثلاثة منهم من الفدائيين . أربعة عشر جريحاً . تسعة بيوت مهدّمة . وثلاثون ، أربعون رأساً من الماشية سقطت تحت الردم أو تشرّدت في البراري . مع أخبار يحملها الهاربون من القرى المتاخمة لإسرائيل ـ قالوا : أفاقوا في الليل على أنوار كشّافة أحالت ليلهم نهاراً ، وأصوات بالمكبّرات تدعوهم ، بلهجة تلك القرى ، إلى الاجتماع في الساحات أو في المقبرة إن لم يكن في القرية من ساحة ـ « ومن يعص الأمر يُرمَ بالرصاص ! » ـ وما هي حتى رأوا اليهود يملأون قراهم ، وبالرشاشات في صدورهم وظهورهم نظموهم صفوفاً وجعلوا ينادون بالأسماء مضيفي الفدائيين منهم والمتعاونين معهم ، ثم قذفوهم في شاحنات لهم إلى إسرائيل .

تلك ، قالوا ، كانت الغارة الثانية ولم يجسروا معها على المقاومة . في الأولى ، قبل شهر ، قتل اليهود ثلاثة من الأهالي بينهم امرأة لأنها تمسّكت بوحيدها ـ ابن أربع عشرة سنة ـ محاولة إنقاذه . وأخذوه بعد قتلها فيمن أخذوا من رهائن . وبعد أسبوع عصبوا عينيه وأركبوه في « جيب » إلى الحدود وأطلقوا سراحه ليعود ويخبر ما ينتظر المتعاملين مع الفدائيين . ولكن الصبيّ وصل مخبولاً نصف أبكم لما لاقاه في الأسر ولما شاهد مواطنيه يلاقونه ، وفيهم أبوه وعمّه ، من ضرب وتعذيب وإرهاب .

كانت تميمه واقفة على السطيحة ، تتلقّى هذه الأخبار من الوافدات

إلى البيت لمأتم علّوش ، فترافقهنّ إلى غرفة أُمها ثم تعود إلى السطيحة تتأمّل المهديّه رازحة تحت نهارها الحزين ، وأصداء العويل تتنادى من بيت إلى بيت ، وبين الأرض والسماء فراغ الرعب .

بلى ، قد جاء جنود على سيارة شاهرين بنادقهم ، ومرّت قبلها سيارة بمدافع مضادّة ، وشرذمة من الفدائيين يلوصون بألبستهم المرقّطة وكليشنكاتهم على الطريق ، فأشاحت بوجهها . وطلع لها مرّة أخرى صراخ أمّ علّوش يثقب السقف وولولات النادبات حول علّوش ، فدخلت وذهبت إلى غرفتها لا تقوى على رؤية علّوش... لم يبق لأم علّوش بيت تقيم فيه مأتم علّوش ولا فراش تُسجيه عليه ، فحملته إلى هنا لمأتمه وجهّزت له آمنه غرفتها وفراشها .

٥

كانت الأيام تمرّ وقد اجتمع لتميمه جرحان . كموس القموعي هذا الاعتداء الأثيم علـى المهديّه – وأغدر وأحقر . ومثله الضحيّة سكوتاً وخنوعاً ، وكذلك الناس والشرائع .

ولأول مرّة أحبّت المهديّه .

كانت تحمل الجرحين إلى الوادي وتقضي ساعات متّكئة على صخرها ساهمة . وربّما تناولت مرآتها ونظرت تحت عينها ضاحكة بمرارة . تذهب مع هذا الخطّ المعوجّ ، وفي لمعانه المريب ، تستعرض مراحل حياتها في بيروت وفي صيدا وفي المهديّه . حياتها وحياة الآخرين . أُمها قبل الكل . ثماني عشرة سنة وهي تنتظر زوجها . تنتظر بانتظاره الموت . ولكن الموت لا يُخيفها إلا تحت القنابل . وإلا فهو موعد مضروب تمشي إليه مطمئنّة آمنة . غذاء تلوكه مع خبزها اليومي . تتقاسمه مع أموات

المهديّه وأحيائها ، هنا ، في مقبرة الضيعة ، على بضع خطوات من البيت ، على الربوة الكلسية الجاثمة في العراء كالطبليّة وقد صُفّت عليها الأصناف والآنية أضرحة بيضاء ، وازدانت من أطرافها بباقات البلوط ذات القرون المتدلّية .

تعرف تميمه هذه المأدبة منذ نعومة أظفارها . كانت تصرّ على مرافقة أُمها في تردّدها عليها مرّة كل أُسبوع على الأقل ، وأُمها تمنعها . تطردها إذا لحقت بها – الموت ليس خبز الصغار – وتعطيها كعكة لتبقى في البيت . ولكن تميمه تحب أن تقضم منه وقد كبرت ، ولم تفوّت مأتماً من مآتم الغارة ، ولا زيارة من زيارات الأرامل والثكالى لأمواتهنّ .

وسارت وراء أُمها .

كان هناك كتل سوداء ، أسراب من النساء بثياب الحداد ، ينحنين على الأضرحة .

يصككن بها الجباه
يرفعن رؤوسهنّ إلى السماء
يتعاونّ على الندب
يردّدن الذكر
يتنادين ملوّحات بالمناديل
ينهضن
يرحن من بعض إلى بعض ويجثن
يجثمن تحت شجرات البلّوط حالمات
يتحدّثن يضحكن
يتشاورن في طعام نهارهنّ
يهيّئن طبخة الدنيا بعد طبخة الآخرة التي اتخمتهنّ...
إلا واحدة في الطرف الآخر من المقبرة ما تزال تصرخ :

– علّوش ! علّوش !

ولدها . وحيدها وسندها . فلذة كبدها . كان علّوش يملأ البيت . وهو اليوم تحت التراب . تريد أن ترفع هذا التراب عنه . تغرز أصابعها في التراب الطريء . ترتمي وتتمرّغ . ترفع وجهها إلى الله تسأله . أصحيح ؟ لا تصدّق . لا تفهم . بأعلى صوتها تسأله :

ـ لماذا أخذته مني ؟

والسماء صمّاء . خرساء . ليس إلا الشمس في شعشعانها الأعمى .

لماذا لا يهتف بها هاتف من السماء : إسرائيل أخذت لك علّوش .

وتجأر آمنه :

ـ إنّا لله وإنا إليه راجعون .

أعطوها بدلاً عن بيتها خيمة من خيمات العسكر ، وبدل علّوش كيس طحين .

ـ كثّر الله خيرهم !

ونسيت المهديّه مصيبتها .

كان القتال يتكرّر بين تميمه وأُمها ويتكرّر الصلح .

وكثيراً ما كان الدور ينقلب بينهما ، فتحنو تميمه على آمنه ، تواسيها وتكوكب آمالها . كاذبة ؟ ولكنها عاشت عمرها في هذه الآمال الكاذبة . في جهلها السعيد . لكأن جهل الجاهلين هو السعادة ، وقد فقدوها إذ وجدوا المعرفة . ولآمنه فوق ذلك الجنّة ! هناك ! خلف المقبرة ، حيث الجواب الذي يبحّ صوت أُم علّوش في طلبه والذي ستظلّ تبكي حتى تُلقمه ملء فيها عندما تُلقم التراب .

ـ الله أكبر ! لا تيأسوا من رحمة الله .

بأي حقّ تصغّره لها تميمه ؟ بأي حق تحملها على اليأس من رحمته ؟

وجلست تكتب إلى تامر نصّور رسالة أُخرىٰ في سجنه الأفريقي من إملاء آمنه ، واستعادت الأم قراءتها مصرّة على إثبات حوارها بينها وبين

الله صباح مساء . ولكن تميمه أغفلت دعوات أُمها وابتهالاتها ورسمت في هذه الرسالة الموجّهة إلى أبيها ، ذاك المواطن المهاجر ، صورة لهذا المواطن المهجور ، لألوف وعشرات الألوف من المواطنين المهجورين في المهديّه وفي القرى التي أمامها والتي خلفها وحواليها ملء الجنوب . وذكرت له الاعتداء الاسرائيلي وما حلّ بأم علّوش .

وذهبت إلى حدّ الكتابة إلى جابر . هـــذه النجدة ، الألف ليرة ، أُعجوبة من عند الله .

ولكن ما تفعل الألف ؟ ما كان يحلّ بها وبأُمها لولا هذا الراتب الذي تؤمّنه نقابة عمال المرفأ ؟ ها هو يأتيها إلى المهديّه ، إلى عقر دارها ، لشهر الإجازة الذي انقضى . وكلمة من أمين السرّ « مع أحسن تمنياته بالشفاء واستعداد النقابة لتجديد الإجازة إذا لزم الأمر » . ولكنّ لكل شيء حداً . عليها أن تعود إلى بيروت . إلى عملها في النقابة وإلى الأمثولات الخصوصية في البيوت ، وأن تضاعف عدد هذه الأمثولات . ولن تمسّ الألف الذي ورد من غينيا . جابر لن يعملها مرّة ثانية . بيضة ديك .

أمّا الجامعة ؟ أمّا هاني ؟ لن تذهب إلى الجامعة . لن ترى هاني .

وإذا هي تتلقى ، مع كدسة جرائدها لذلك اليوم ، رسالة من بيروت .

« عزيزتي تميمه

طال غيابك . لا بدّ أنك تعافيت تماماً كما أرجو . أنا بحاجة إلى أن تكوني بجانبي في هذه الأيام لأمر هامّ . بانتظار اللقاء أقبّلك .

ماري أبو خليل »

أصحيح أنها تعافت تماماً ؟

ووثبت إلى المرآة في غرفتها تنظر . ولبثت حائرة دقيقة أو دقيقتين . ثم تذكرت ما كانت قد نسيته فتناولت من خزانتها عدّة من المساحيق زوّدتها بها ماري لتستعين بها ، وجرّبت بضع لمسات . كانت تكتفي من الزينة منذ صباها ببعض الكحل زاهدة بما عداه . ولأول مرّة في حياتها

عرف وجهها الطلاء .

لم يكن يخطر لتميمه ما فاجأتها به صديقتها . استقبلتها ماري بالخبر على طريقتها . أكبّت عليها تعانقها ثم تراجعت، وكمن يمثّل دوراً جليلاً نظرت إلى تميمه من علُ وقالت :

— أنت يا تميمه نصّور ، « المسيحية المارونية من دير المطلّ » ، لماذا لا تقبلين أكرم الجردي ، « المسلم الشيعي » ، من كفر زرروع زوجاً لك !

فأجفلت تميمه وهي تجتهد أن تقرأ في عينَي ماري . وماري — الشيطانة — ساكتة ، ماضية في دورها حتى النهاية . فعيل صبر تميمه :

— أهذا هو أمرك الهامّ ؟ خلّي المزاح وقولي لي ، قبل كل شيء ، هل بإمكاني الآن أن أخرج بين الناس ؟ أن أرى هاني .

ورفعت خدّها بالجرح ، فأقسمت لها ماري :

— مستحيل أن يلحظ أحد أي شيء .

وتناولتها من خديّها تسألها أيّ خدّ ؟ فهي تريد تقبيلها مكان الجرح فلا تهتدي إليه . ودعتها إلى الجلوس ، وما همّت بالإفضاء بسرّها حتى سبقتها تميمه فانتصبت بوجهها هاتفة :

— إسمعي . الأمر هامّ . هامّ جداً ! أنت يا مس ماري أبو خليل ، رئيسة الممرضات في قسم الجراحة من المستشفى الأميركي ، وزعيمة مَن عزّى الحزانى وجبر الكسور ، هل تقبلين بالمحامي الكبير والنائب العتيد الأستاذ أكرم الجردي زوجاً لك وتتعهّدين بأن تكوني أمّاً حنوناً لابنته ؟

حزرت الملعونة كل شيء ! وانفجرت الصديقتان بضحكة لم تلبث أن زحمتها دموع الفرح . كانت ماري على ثقة من ردّ الفعل ، وأكّدت تميمه فغمرت « الوارثة السعيدة » ، كما لقّبتها ، بعناق كبير .

وأوديت ؟ كانت أوديت هي الموضوع الذي استأثر بالحديث في السهرة وكذلك في السهرات التالية . ولكن ماري لم تكن تُعير الأمر من الاهتمام

ما تعيره تميمه . أخبرها الأستاذ أكرم – حلف لها – أنه قطع مع عشيقته منذ حادث الساعة في بيت مدام خوري . تعب منها . وهو تّواق إلى إعادة بناء بيته .

– سأعرف كيف أحبّب إليه البيت .

كان ما يزال في المستشفى يقضي دور النقاهة ، يطالع أكثر نهاره ، يستقبل بعض الأصدقاء ويسمر العشيّات مع ماري والمستقبل . أعظم ما سيحمله هذا المستقبل إلى ماري أن أُمها وأُختَيها سيسكنّ بجانبها في بيروت . قد وعد الأستاذ أكرم باستئجار شقّة خاصّة بهنّ ، ويشتري باسمها هي شقّة ، ينتقلان إليها بعد الزواج ، في واحدة من هذه البنايات الحديثة الجميلة التي ترتفع في أنحاء المدينة . وكلّفها أن تسأل منذ الآن وتختار مهما كان الثمن . يبيع ، إذا لزم الأمر ، قطعة من أراضيه في البقاع .

كانت ماري لا تتكلّم إلا عن هذه الأشياء ، لا تذكر شيئاً عن العلاقات الحميمة بينها وبين الرجل الذي ستصبح شريكة حياته ، ولا تلفظ اسمه إلا باللقب – « الأستاذ أكرم قال ، قلت للأستاذ أكرم » – وتنام ملء أجفانها . نوع من الحب لا تعرفه تميمه . فماري تضحك للحب كما تضحك لكل شيء . لا عذاب ولا هواجس . كأنها ذاهبة إلى عملية هي مطمئنة إلى نجاحها فهي لا تهتم إلا بتحضير الغرفة والأدوات .

هل أحبّت في زمانها ؟

هي نفسها لا تدري . سمعت الكثير يطارحونها الحب في المستشفى ، مرضى وأطباء ، ولم يشغل قلبها أحد . بلى – اعترفت لتميمه – أحبت طبيباً في أول عهدها بالعمل . خُيّل إليها أنها تحبه . كانت تجد سرورها في معاونته والدوران حواليه . لو طلب منها العمل إلى جانبه طول الليل لما أحسّت بحاجة إلى راحة ولا نوم... تزوّج وسافر إلى اوروبا لشهر العسل . لم تكد تراه في المستشفى من جديد حتى عاد إليها سرورها وكأن شيئاً لم يكن . وضاعف هو محاسنته لها وأصبحت هي تصارحه بأشياء . لعلّها لم تحب فيه

منذ البداية إلا شبهه بالمرحوم أبيها . جبهته العريضة ، وإطلالته ، ونكاته .

– وعدتُ الأستاذ أكرم بزيارة منك . قال : قولي للآنسة تميمه أن أكرم الجردي سيكون لها صديقاً طيباً .

لم تجد تميمه بأساً . وبعد يومين قامت بالزيارة بصحبة ماري . وراح الثلاثة في حديث كلّه ارتياح ، رصّعه الأستاذ الجردي بطائفة من نوادره وضحك ضحكته وأسعفته المرضة بمرحها . وتأكّد لتميمه انطباع عن أكرم الجردي لم تستطع كتمه فأثنت عليه بوجهه وهنّأته لحسن اختياره ، وهنّأت ماري بقبلة على هذا الخدّ وقبلة على ذاك ، وهي تنظر إلى المحامي وكأنها تقبّلها عنه ، وقامت تستأذن .

٦

– خير يا أبا شرشور ! اقعد .

وقعد أبو شرشور على الكرسي المواجه للمكتب . فتناولت تميمه الرسالة التي دفعها إليها ففضّتها وهمّت بالقراءة . كانت تلك الرسالة الثانية من أبي العز إلى أبيه . لكن هـــذه ليست بخطّ يـــده . ليست منه . قال أبو شرشور إن شاباً جاء هذا الصباح إلى البور وسلّمها إليه ، هو غـــير الذي حمل إليه الرسالة السابقة .

كانت مضروبة على الآلة ، وعليها في الأعلى اسم « لجنة الإسعاف رقم ١٦ » ، وفي الأسفل توقيع رئيس اللجنة . وهو يخبر فيها أن عزيز اليافاوي أُصيب في اشتباك مع العدوّ وهو الآن قيد المعالجة ، مع تنويه بالشجاعة التي أبداها في المعركة وترقيته إلى رتبة رائد .

هذا كل شيء . وأبو شرشور ساكت ، فنظرت إليه تميمه فخفض بصره إلى الأرض .

ـ إن شاء الله الجرح بسيط . وأهنّئك بترقية أبي العز . الرائد أبو العز ! ألا تريد أن تهنّئه ؟ متى يعود الرسول لأخذ الجواب ؟ قل لي . إملِ عليّ وأنا اكتب .

ـ إسأليهم متى يعود للحرب .

هل تستطيع تميمه أن تواجه الحياة بمثل ما تواجهها ماري ؟ هل تستطيع تميمه أن تحقّق لنفسها مثل هذا : ماري مسيحية تتزوّج أكرم المسلم . وهي مسلمة وهاني مسيحي . ولكنها تعرف أن الأمر يختلف . إنه في دينها ذو وجهة واحدة ، والويل للمخالف . « أوتلوك ! أوتلوك ! » وعادت إليها سحنة القمّوعي .

ولكن ، من قال إن هاني الراعي يريد تميمه نصّور زوجة له ؟ يحبّها ؟ يحب كل الحلوات ، قال : الزواج ؟ يفكّر فيه بعد شهادة الدكتوراه من هارْڤَرْد . بعد تأسيس مكتب الهندسة . بعد الثلاثين من العمر ! يحب دروسه . يعشق طموحه . مغرم بدير المطلّ . بالحزب . بالأولاد الصغار . ويا ليت ! ألم تطلب منه يوم الأحد ـ بعد شهر انقطاع بين الحبس في الشقّة والاعتزال في المهديّه ـ أن يذهبا معاً إلى السينما ، فاعتذر بأنه الأحد المخصّص كل شهر « للعريس والعروس » ؟ هكذا ينمّيهما في لغة ألقابه . شيخ في الثمانين ، وعجوز هي امرأته في مثل عمره ، يعيشان وحدهما في المرج . ينتظرانه ، قال ، ولا يمكنه أن يخلف الموعد .

ـ ماذا تفعل عند هذين الطوطمين ؟

ـ نحكي مع النار . عندهما موقد على الحطب .

أم يذهب في نزهات بالفيات ، كما يذهب معها ـ ولم لا ؟ ـ مع لميا شارون ؟ مع سلمى الصافي ؟ مع جانيت ومنى وإيڤيت... لميا شارون فاتنة بشعرها الأشقر المشعّ ، وأنفها المتنشّق من علُ . أروع ما فيها حرّيتها . سيدة نفسها . سلطانة حياتها . « تحب الحياة » ، يقول هاني

عنها . – تحبّه هو !

دفتر الخرطوش

« ٢ شباط ١٩٦٩ – الكذب ! الكذب ! الكذب ! ثلاث مرّات أعدتها يا هاني ودققت على الطاولة ثلاثاً في جدالك مع الأصحاب . « الكذب آفتنا » ، قلت . وأنا مكتوب عليّ أنا أن أعيش في الكذب عمري . الصدق ؟ – إذن ترجمني . وإلا فكان عليّ أن أعيش في قفص العفة . أن أقفل على نفسي في صندوق من الشوق والحرمان والغباء بانتظار اليوم العظيم – أيعرف أحد متى يأتي النصيب ؟ – لأحمله إليك وأقول لك : تفضّل افتحه بعلمك وتجاربك مع العشرات ، من ليندا دير المطلّ الى ليا شارون !... »

دار المعلمين والمعلمات . دروسها ومطالعاتها . النقابة وأبو شرشور . ترك اليافاوي الحشيشة إلى الترانزيستور فعلّقه بعنقه بجانب الشرشور يتابع أخبار الفدائيين . وزيارات الأستاذ الجردي لماري في الشقّة بعد خروجه من المستشفى . يطلبان إليها أن تكون دائماً معهما ، المحامي يتحدث وماري تحوم مرفرفة . كل ما رأته بينهما من الحب أن الممرضة تدلك له ذراعه ، يحاول أن يلقيها في حضنها فتأبى إلا أن تمدّدها على المسند ، ويتضاحكان . وما عدا ذلك فأخبار اليغموريين . دائماً اليغموريون . وأخبار الدعوى بعد أن أُلقي القبض على الذين اعتدوا عليه . يريد أن يطال من وراء الفاعلين رأس الحيّة ، كما يقول .

وهاني لا تراه منذ عودتها إلى بيروت – عشرة أيام – إلا لماماً . في اللقاء الأخير قضى وقته في الكلام عن الحزب .

كانت الأفكار في أوساط الطلاب ، بالرغم من عودتهم إلى دروسهم ، تزداد التهاباً يوماً بعد يوم ، والجرائد تكتب عن الثورة « التي لا بدّ منها » وتستفتي أصحاب الرأي . إتفقوا كلّهم على الثورة . يتساءلون

فقط كيف تكون .

هو لا يؤمن إلا بواحدة : الثورة على النفس .

ما أبعده عن هذه العبارات الجاهزة التي يلوكها الطلاب ، وتلك الشعارات الجوفاء ! كلماته بسيطة ، هادئة .

ولكنها ، حارّة ، جارحة ، كالأشعة .

كانا جالسَين في أحد هذه المطاعم الصغيرة المخصّصة للطلاب في حيّ الجامعة الأميركية ، يشرب هو قهوته وتقضم هي سندويشاً مع الكولا . والمطعم يضجّ بالفتيان والفتيات ، ومن السقف تنحدر موسيقى من الجاز وكأنها تضرب رأسه ، فعلى وجهه ألم .

قام وقال ، هو الذي قال لها :

ـ نذهب إلى البحر .

صوب المنارة . ثم عطف بسيارته يميناً إلى الكورنيش فأوقفها بجانب الرصيف وترجّل ، ولحقت به . كانت الشمس تميل إلى المغيب بين غيوم متناثرة ، لأشعتها إذا أطلّت بَهر ودفء . وقفز هاني فجلس على حاجز الكورنيش ، ومدّ ذراعيه فعاون تميمه ، وواجها البحر يستقبلان هواءه الرطب ورذاذ الموج المتكسّر على الصخور .

كان يُخيّل إليها ، وهي في وضعها ذاك لِصقَه ، والشارع خلفها ، والسيارات ، والناس ، والعالم ، أنها تعيش حلماً في جزيرة المستحيل...

ـ لا تقولين شيّئاً !

ـ أُكلّم البحر .

ـ ولكن البحر لا يتكلّم لغتنا . لا يكلّمنا على كل حال .

ـ والنار في الموقد ، كيف تحكون معها !

ـ نحكي مع أنفسنا . مع أنفسنا نحكي دائماً .

وساد سكوت .

ـ والذين يخاطبون الله ؟... قل لي أمؤمن أنت ؟

خرج السؤال من شفتيها هكذا بلا وعي . كيف سألته ؟ لماذا ؟ وتعجّبت من نفسها . هو لم يتعجّب – لا يتعجّب أبداً – قال دون أن يلتفت :

– هل تتابعين التحقيقات التي تقوم بها الجرائد في هذه الأيام ؟ قرأت لأحدهم في الأزمة التي نعانيها رأياً فيه الكثير من الصواب . لست أذكر اسم صاحبه ، أذكر كلماته ، يقول : « أزمتنا في ظاهرها سياسية واجتماعية وطائفية الخ . الحقيقة أن جذورها مغروزة في الغيب ، في الهجرة من السماء إلى الأرض . » في الشكّ بالله، يا تميمه . هل الله في النتيجة إلا رمز القيم ، بل مجموعة القيم التي تجعل من الإنسان مخلوقاً يستحقّ هذا الاسم ؟

وترك لها – أو لنفسه – التفكير في ذلك . ثم :

– إشتهيتك أن تسمعي رمزي رعد في نادي الحوار أثناء غيابك في المهديّه .

يعود إلى رمزي رعد ! وترنّحت ، تكاد تقع على وجهها بين هذه الأمواج المتلاطمة ، وهو يتابع :

– رمزي رعد من السابقين بيننا في الهجرة من السماء إلى الأرض . ولكنه لم يتدلّ بحبل . لم يهبط بمظلّة . سقط في الهواء على الأرض ، على يافوخه .

وأمسكها من ذراعها يدعوها إلى السيارة . كان عليه ، قال ، أن يجتمع ببعض الأصحاب لتهيئة الاجتماع . ودارت هي من الجهة الأخرى لتأخذ مكانها إلى جانبه . وإذا شبح في غشية المساء يحكّ بكتفها ويتنحنح مرّة ثم يشفعها بأخرى أشدّ . فاندسّت في السيارة ونظرت في المرآة : حسين القمّوعي ! وفي عنقه آلة تصوير ! وهاني مشغول بتدوير المحرّك ، لن تقول له غير « عجّل ! » بحجّة أن عليها هي الأخرى موعداً . وانطلقت السيارة فيما كان قلبها يقرع ثم ينخلع ويهبط .

وهاني متابع فكره ، قال :

– الله مشكل كبير من مشاكلنا . لا الله الذي يقسمنا مسيحيين ومسلمين ، أو نقسمه نحن ، نتناتشه ، كل فريق يريد الحصّة الكبرى له . هذا الله الطائفية ، الله السياسة وتوزيع المناصب . ولا الله الذي يقف بيننا ليمنع الزواج المشترك بين أبناء الأديان المختلفة أو يرفع إصبعه محتجاً على الزواج المدني . الله هذا له تدبير ...

كانت تميمه ما تزال تحت وقع الهول الذي مرّ ، لا تسمع ، على الأرجح ، هاني ولا تراه يتوجّه إليها :

– أتكلم عن الله الحقيقي الذي سألتِ عنه البحر... مرّة جاء قيدوم إلى المدرسة وأخبرنا أنه نصب فخاً لثعلب في الكرم عندهم كان يُغير على العناقيد ويأكل أحسنها ، فعلق الثعلب ، فأخذه وسلخ له جلده وهو حيّ ، تشفّياً . وأرانا الجلد ، فخوراً ، ينزف بالدم ... كلّنا ثعلب قيدوم . علقنا كلّنا في فخّ العقل ، وجلودنا تُسلخ عنّا ونحن أحياء .

٧

رسالة من غينيا على عنوان دار المعلمين والمعلمات وعلى الغلاف اسمها باللغتين ، مضروباً بالفرنسية على الآلة ، ومنمّقاً بالعربية بالخطّ الفارسي . خطّ تامر نصّور أبيها .

« إلى ابنتي تميمه

قبلات أبيك مع تهانئه القلبية بدخولك دار المعلمين والمعلمات بعد فوزك بالبكالوريا . قرأت الخبرين في حينهما في ما يصلنا من جرائد الوطن ، وأحتفظ لِصقَ صدري بالقصاصات التي تحمل اسم أحبّ الناس إليّ وأدعاهم إلى فخري .

وبعد ، لم أتلقَّ رسالتك ومعها الرسائل التي كتبتها باسم أُمّك إلا قبل

ثلاثة أيام ، أي لدى خروجي من السجن . إحتجزتها السلطات في جملة ما كان يرد عليّ وعلى المتّهمين من رسائل ، خلافاً لكل عُرف وقانون ؛ ولم تسلّمها إلينا إلا بعد صدور الحكم .

ستقولين : متأخّرة وصلت تلك الرسالة . ولكن، حتى لو سبقت جابر لما كان تغيّر شيء ، كما سيتبيّن لك ممّا سأذكر . يكفي أنها وصلت لتصل بيني وبين لحمي ودمي الخيط المقطوع ، وكانت يداي ممدودتين إليه لن ترتدّا حتى حافة القبر .

يا ابنتي ، لديّ أشياء يجب أن أقولها . أشياء تعني أُمك بالدرجة الأولى ، وحقّها بها فوق حقّك وحقوق الآخرين — وما أكثرهم ! — ولكن أُمك تجهل القراءة . وحتى لو كانت تقرأ لجنّبتها عن طريقك رفقاً بها . أما جابر فقد سقط حقّه ، طعنه هو بيديه الاثنتين .

لم يبقَ إذن سواك . وها أنا أقف أمامك كما وقفت بالأمس أمام المحكمة . في قفص الاتّهام أم في ساحة الادّعاء ، لا أعلم . بين هاتين الوقفتين كل حياة أبيك في أفريقيا .

لن أقصّها عليك بالتفصيل . إنها موضوع « مذكرات مهاجر » انصرفت إلى تدوينها منذ أن وطئت قدماي أرض غينيا . وسأتركها لك لتنشريها على الناس ، لا طمعاً بأن يذرفوا دموع التماسيح على شاعر كان له ألا يهاجر إلا إلى دنيوات خياله ، بل لكي يضعوا أيديهم على حقيقة المغامرة السوداء ، ويقيسوا أمجادها ومآسيها ، وأحجام الذين هم في وقت واحد أبطالها الميامين ومسوخها ...

في ١٦ تشرين الأول ١٩٥١ وصل إلى كوناكري رجل في السادسة والثلاثين ، ترك خلفه في المهديّه زوجة وولدين — كنت أنت طفلة تشرع بالكلام — ولكنه حمل لهم معــه حباً لا يضاهيه إلا الأمل الذي كان يعمر صدره بالحصول على الثروة والعودة إليهم . حلم أفاق منه عندما قذفته الباخرة على المرفأ بوجه أفريقيا ، يطوف نهاره في المدينة كالحيوان

الغريب ، ويأوي في الليـل إلى زريبة مع بضعة عشر من رفاقه ينظرون إلى أحلامهم تتخاطفها الجرذان في تلك الزريبة في ما تتخاطف من طعامهم الرديء ومتاعهم المرقّع الحقير . ولقد همّ مراراً بالرجوع من حيث أتى لولا أن تلقّاه ذات يوم أحد مواطنيه من المهاجرين القدماء . أركبه في « جِيب » أعرج، وذهب به في أدغال ليس لها اسم ، ثم حطّه في مزرعة خُيّل إليه أنها على حدود الأبد وقال له :

ــ تكون قيّماً على مزرعة الموز هذه التي هي لي ويكون في خدمتك عشرون من الزنوج .

كان القيّمون السابقون قد هزمتهم جيوش « التسي التسي » في المزرعة فنجوا بعظامهم هاربين، ودُفن في أطرافها كبيرهم بلسعة واحدة من مئات الأفاعي التي تعشّش في المنطقة وتبيض . أما السن سن فتحصّن له الرجل منذ البداية ، فهو لا ينام إلا ضمن أستار سميكة تكاد تخمد أنفاسه . وأما الأفاعي فلم يلبث أن أخذ يسابق الزنوج في مطاردتها ، وتعلّم أن يطبخها من جملة طعامه .

كان القدر يهيّئ له ، بالرغم من احتياطه ، شيئاً آخر : الحصّة الكبرى ، اللعنة الأفريقية رقم ١ لذلك العهد ، تلك التي انصبّت على رؤوس الألوف من المهاجرين قبله وأودت بحياتهم . ففي موسم القطاف ــ وقد استغرق أُسبوعاً من صيف مستعر ــ عاد الرجل إلى كوخه فلم تقوَ يداه على الامتداد إلى مأكل أو مشرب . فألقى جسمه المنهوك على الفراش وفي ظنّه أنه سيستريح بعد أن أتمّ عمله وأقفل الموسم . كان ينام لياليه السابقة كالقتيل من فرط تعبه ، غير أنه استيقظ تلك الليلة على آلام تمزّقه ، فيمدّ يده إلى قنديل الكاز بجانب الفراش فيشعله ، ثم ينهض إلى زاوية في الكوخ حجبها بستارة من الخيش وجعل منها حماماً ، فتخونه ركبتاه ، فيتمسّك بالستارة فيهوي معها إلى الأرض ، وينظر على ضوء القنديل الكئيب فإذا الدم يتدفّق بين جنبَيه .

كانت اللعنة – إياها – قد نزلت به ، ما في ذلك شكّ . ضربته الشمس ضربتها . وهذه براهينها الحمراء تسيل ملء ساقيه ، تصبغ كفّيه ، وتنساب خلال الحصير تحته . فيزحف إلى كوخ حارس المزرعة – على بضعة أمتار – لا يفصله عن كوخه إلا نخلة من « البالميست » الأفريقي . كان يحب الحارس فنونغو ويأنس إليه . شرط أن يكون فنونغو في هذه الدنيا ! لأن مَن لا يعرف فنونغو لا يعرف شيئاً عن الزنوج .

– فنونغو ! فنونغو !

فلا يجيبه أحد .

كان فنونغو يدور على المزرعة مرّة في الصباح وأُخرى في المساء ، بقبعة كالمظلّة وعصا كالرمح ، فإذا انتهت الدورة رمى المظلّة والرمح واعتلى النخلة فجثم على غصن فيها وبيديه البالم يحسو منها ويسكر . والبالم قرعة تُثقب ويُشرب زومها ، وهو عندهم كالخمر . ولكن فنونغو لا يقنع بالزوم حتى يمزجه بالسبرتو ، فإذا فاته فبالكاز . ويظلّ يشرب وهو في أعلى الشجرة حتى تفرغ قرعته فيتزحلق ويمشي – إذا أسعفته قدماه – إلى كوخه لينام . وربّما قضى ليله معلّقاً بين الأرض والسماء ، يغفو ويفيق ويشرب حتى تطلع الشمس . كالقرد ، إلا أنه أطيب إنسان على وجه الأرض .

– فنونغو ! فنونغو ! أين أنت يا فنونغو ؟

كان الرجل يهتف بذلك ، في أحشاء الظلام ، بما تيسّر له من لغة القوم وهو يواصل زحفه نحو الكوخ . فإذا هو يتعثّر عند جذع البالميست بفنونغو منطرحاً على الحضيض يشخر . فيهزّه فلا يُحسّ ، ويناديه فلا يسمع ، قد تعتعه السكر فهو حيّ ميت .

لا بدّ من التماس عون آخر . ولكن هيهات ! أكواخ الفلاحين بعيدة ، كوم من القش في الطرف الآخر من المزرعة . وفكّر الرجل طويلاً . ليس إلا مامادو شيخ القرية القريبة . وهذا كوخه العالي يلوح تحت النجوم

وراء سياج المزرعة . قد عرف الرجل في اليوم الذي تلا وصوله . جاء على رأس وفد يرحّب به وفي يده دجاجة ، هدية الأسود للأبيض وعربون الولاء . أتسعفه قواه على قطع المسافة ؟ — مئتا متر على الأقل — ليس من خيار . وحبواً على الأربع كالحيوان الجريح وضع رأسه في اتجاه الكوخ العالي ، يختلط دمعه بدمه بالتراب الذي يعضّه . لم يصدّق أنه طوى المسافة وأنه الآن بالباب ، وعلى آخر رمق القى عليه رأسه يدقّه به لعجزه عن رفع يديه . ثم ارتمى على العتبة .

في الصباح وجد نفسه محمولاً على محفّة يأخذ بها زنجيّان ، وقد مشى إلى جانب المحفّة مامادو بلحيته الشائبة المضيئة ومعه صبيّة في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر . كانت الشمس قد علت في الأفق ، فنظر الرجل حواليه فأدرك أن الجماعة يعيدونه إلى منزله بعد أن قضوا الليل على العناية به في منزلهم . فلمّا وصلوا حطّوه في فراشه ، وتجمّع زنوج المزرعة وفي مقدمتهم فنونغو يتزاحمون على القيام بشأنه . وإذا مامادو يتوجّه إليهم بأمر ، فيتراجعون ، وتتقدّم الصبيّة ، فيأخذ بيدها ويُدنيها من الرجل . « فنتا ! فنتا ! » ، كان يقول ، ويبتسم ملء عينيه ؛ وتلتمع عشرات الوجوه بالابتسام مردّدة النظر بيني وبين فنتا .

ويخرج الشيخ ، ويتبعه الآخرون .

وتبقى فنتا — ابنته — تذهب إلى الباب فتغلقه . ثم تعود إلى الرجل ، تركع عند فراشه ، وتمسح بكفّها السوداء جبينه ...

على مثل هذا الفراش أنا ملقى اليوم ، يا ابنتي .

وبعد سبعة عشر عاماً تركع بجانبي صبيّة في عمر تلك الصبيّة ، عائشة — عيشتا يقول الزنوج — وتمسح جبيني بكفّها السوداء . هي ابنة فنتا من أبيك وأُختك السوداء » .

٨

وصلت تميمه من الرسالة إلى هذا الحد فأحسّت دواراً . تراقصت الكلمات أمام عينيها وتداخلت السطور . وتمثّلت لها مأساتها في المدرسة قبل خمس سنين . القصيدة ، والبنات الحائمات حولها ، ثم الورقة المدسوسة في الدرج .

ورفعت كفّها إلى جبينها تمسحه .

وإذا هي ترتعش بكل جوارحها .

أجبينها هذا الذي تمسحه ، أم هو الجبين الآخر ؟

تركت الرسالة تقع من حضنها ، ولبثت طويلاً تنظر إلى كفّها كأنها تريد الآن أن تقرأ فيها وحدها ، لا في هذه الأوراق المبعثرة على الأرض .

لا تعلم الوقت الذي قضته كذلك . ولكنها انتبهت لنفسها تلملم الأوراق وتضمّ بعضها إلى بعض بتؤدة ، ثم تتابع القراءة :

« قلت لك سأقتصر من حكايتي على البداية والنهاية . — النهاية ؟ قدّرت كل شيء ولم أقدّر شيئاً منها .

كنت أهيّء أسباب العودة إلى الوطن حينما فوجئت بتهمة الاشتراك بتهريب الألماس . كيف لي أن أطلعك على أسرار تهريب الألماس في أفريقيا ؟ فضيحة من ألوف سبقت ، وألوف تلحق . ذنبها أنها اكتُشفت دون غيرها فأُعطيت اسمها ، فيما الأخريات مستورة تدرّ على أربابها الثروة بالملايين ، وتعقد لهم هالات الجاه والنفوذ ، فاسمها التجارة الكبيرة وعبقرية الأعمال . والكبر كلّه ، والعبقرية كلّها ، في السقوط إلى أسفل ما يتردّى إليه اللصوص والمزوّرون والمحتالون . يُضاف إلى أخلاق هؤلاء جميعاً وإلى أساليبهم وأحابيلهم ما يتقنه القوّادون في السعي وراء طغمة خاصة

من السماء ونظمها في شبكاتهم، تتولّى نساء الطغمة ما تتولاه البغايا سواء بسواء، يُجرين الأحجار الكريمة في المواضع الحميمة من أبدانهن وينقلنها عبر الجمارك من بلد إلى بلد، ويلتقين بعملائهن عند أحد الأهل أو الأصدقاء أو المعارف في طول القارّة وعرضها — على أن يكون غريباً عن العصابة، جاهلاً كل شيء، إبعاداً للشبهات.

نصيبي من الفضيحة أنني استضفت رجلاً من أعضاء الشبكة، من صوبنا في الجنوب، جاء إليّ بهذه الحجّة — لن أسمّيه — فاستقبلته وأقمت في بيتي له ولجماعته، على بساط البراءة، ليلة ساهرة عامرة طلع صباحها بالشؤم الذي تعرفين... وكرّت عليّ مذ ذاك ضربات النهاية.

أخذتني الفضيحة في غمار النقمة التي انفجرت في غينيا على أبناء العرب، لا يميّز معها الزنوج حقاً من باطل، ولا يُعيرون أذناً لغير الثأر الصارخ من أعماق الأجيال، يُذكيه المتعصّبون وينفخ فيه الموتورون، وتتنادى فيه المصالح التجارية والمآرب السياسية، فضلاً عن السعايات الدنيئة من بعض صغار النفوس من المهاجرين. ولكان مصيري مصير المحكوم عليهم لولا أن لطف الله فأرسل إليّ من وراء قضبان السجن، كما أرسل إليّ بالأمس من وراء سياج المزرعة، من أنقذني هذه المرّة أيضاً. مامادو — إياه — حمل شيخوخته من «كنكا»، حيث مزارع الموز التي عشت فيها إلى جواره أول عهدي بالهجرة، وهبط إلى العاصمة يطرق أبواب الحكام من أبناء جلدته ويتوسّل إليهم من أجلي، وما زال يطلب شفاعة كل صديق، ويتملّق كل موظف، حتى ظفر لي بالبراءة.

ولكن، ألم يكن خيراً لي لو قضيت نحبي في الزنزانة تحت سياط العبيد ولعناتهم من أن أخرج إلى النور وأرى ما رأيت؟

لقد بلغتني قبل وصول جابر إلى غينيا أخبار عنه — وأخبار عنكِ بحمد الله. أين كنتِ لمّا خطر السفر لجابر؟ وكيف لم تنحلّ عقدة يدك لتكتبي إليّ قبل وصوله؟... ولكن لا. حتى لو كتبتِ... فما إن قيل

لي « ابنك في غينيا » حتى خرست الأخبار كلّها وتكلّم حبّي . ولمّا دخل عليّ في السجن ضربت بيديّ الاثنتين على قضبانه أُريد أن أحطّم حاجزاً يفصل عني لحماً من لحمي ودماً من دمي .

بهاتين اليدين سلّمت إليه كل ما أملك : توكيلاً عاماً مطلقاً على تجارتي ، وعلى ودائع لي في المصارف ، وديون على الناس . الجملة مائة ألف دولار أو يزيد . جنى الهجرة وزاد العودة . ومع ذلك ليس المال ما يهمّني . لو همّني المال لكنت في عداد المهرّبين : في أعماق السجون أو في أعالي القصور التي يرفعونها في أفريقيا ولبنان . أن يبدّد جابر على القمار والفجور ما بدّد ، وأن يزوّر في الدفاتر ويحتال ، وأن يستولي على ما استولى عليه من نقود ثم ينجو بنفسه تاركاً وراءه الخراب ، وأباه قيد المحاكمة أمام الزنوج ، كل ذلك لا بأس لو اكتفى به . ولكنه كان يعدّ لي شيئاً آخر ، ولم يتورّع فقذفه بوجهي كاتباً إليّ ، ليلة هربه ، ما أخشى أن يكون قد واجه أمّه وواجهك به في لبنان — يتستّر من فعلته بأخت لها أشدّ وأدهى .

ففي الزيارة الأولى التي قام لي بها في السجن كشفت له عن كل شيء . أي فائدة من التكتّم والألسن قد امتدّت من غينيا إلى لبنان منذ زمان ؟ أكثر ما آلمني من لسعاتها تلك التي أصابتك فشلّت يدك عن الكتابة إليّ . وفي الزيارة الثانية قال : « أريد أن أتعرّف على أُختي الأفريقية » .

كانت عائشة دون الخامسة من عمرها حين ماتت أُمها بالحمّى . وعلى أثر موتها انتقلتُ من كنكا إلى العاصمة ، وعاونني مامادو على تجارتي وعلى وضع عائشة في مدرسة من مدارس كوناكري . وأبى الشيخ إذ عرف برغبة جابر إلا أن يرافقه إلى المدرسة بنفسه ، وحكى لي فيما بعد أنها كانت أسعد ساعات حياته تلك التي قدّم فيها حفيدته إلى أخيها اللبناني . ومنذ ذلك اليوم واصل جابر زياراته ما سمح له نظام المدرسة ، يخرج بعائشة في عطلة الأسبوع لنزهات في ضاحية المدينة ، يسبح معها على شاطئ

البحر ، يصحبها إلى دور السينما ، ويأتي إليّ الشيخ بالأخبار عن ذلك كلّه بغبطة عارمة ، فأجد لتلك الألفة عزاء ، وما كان أحوجني إليه في ما كنت فيه من عار التهمة وعذاب السجن .

لست أدري ، يا ابنتي ، ما صنع جابر بثمرة عرق أبيه ودم قلبه تحت سماء أفريقيا . وإنّما الذي أخشاه ، كما قلت لك ، هو صنيعه بك وبأمك هناك ، بعد الذي صنعه بعائشة وبي هنا وبجدّها المسكين . لن أنقل إليك تفاصيل المأساة . حَسْبُكِ منها العاقبة التي حملها إليّ الشيخ في السجن إذ حمل إليّ عائشة ذات يوم تبكي على ذراعه وتدفن وجهها في صدره ، أُختاً مفجوعة بأعزّ ما تُفجَع به الأخوات ، ومخلوقة مهانة لا تعرف لجرحها بين الجراح اسماً ولا بلسماً ولا عزاء .

أهي النهاية التي وعدتك بها ؟

ولكن هذه النهاية ليست ملكي وحدي . أنا لا أملك منها ، على الفراش الذي أنا مُلقى عليه بعد خروجي من السجن ، إلا جسماً مهدوداً وروحاً حزينة . والبقية ملك جابر .

بلى . تبرئةً لذمتي استدعيت اليوم كاتب العدل في المدينة ووقّعت على وثائق ثلاث :

الأولى تتعلّق ببيع البناية التي أملكها في كوناكري، وهي تتألّف من المحل التجاري والمسكن الذي يعلوه ، بثمن قدره عشرون ألف دولار ستصل باسم أُمك إلى صيدا بالواسطة نفسها .

الثانية تتعلّق بمزرعة الموز في كنكا ، اشتريتها من صاحبها قبل مدّة وجعلت عليها وكيلاً . وقد أوصيت بها لك من بعدي . وإذا قيّض لي الله أن أقوم فسأرجع إلى الوطن لأموت في المهديّه .

أما الثالثة فتتعلّق بآخر ما أملك : اسمي . وقد وهبت منه لعائشة ما يخصّني ، فهي اليوم في المدرسة بين رفيقاتها ، وفي كنكا بين عشيرة جدّها ، وغداً في الهيئة الاجتماعية وفي بيتها الزوجي إذ تتزوّج ، عائشة

تامر . أقصى ما كانت تطمح إليه ، وأدنى حقّها على أبيها وأبيك » .
تامر نصّور

كانت تميمه إذن على حقّ في مخاوفها ، وتجاوز الواقع كل ظنّ .

والآتي أعظم إذ يصل جابر . أين يكون جابر بعد فعلته ؟

هكذا كانت تخاطب نفسها وهي تعيد قراءة الرسالة للمرّة الرابعة ... الخامسة ... ولا ترتوي . أي مرارة فيها ، وأي حلاوة ! طعم الدم الذي ذاقته ذات ليلة — دمها .

وعزمت ألا تقول لأمها شيئاً . ستتلو عليها رسالة من تأليفها تبشّرها فيها بالإفراج عن أبيها وعودته القريبة إلى الوطن ليعيش ، لا « ليموت » ، في المهديّه . وتخفي عنها أكثر ما تخفي خبر عائشة . كلّهم في أفريقيا لهم عائشاتهم المرذولات ظلماً وعدواناً . وكلّهم لهم العشرات من أخوات فنتا .

ولكنّها ستضع الرسالة بين يدي هاني ، هذا المساء ، بعد اجتماع الأصحاب في العلّية .

٩

لاقاها بعد انتهاء الدروس في مقهى اتّفقا عليه من مقاهي ساحة الشهداء . كانت في انتظاره ، الساعة الخامسة ، وقد وضعت على الطاولة بجانب قنينة الكولا مغلّفاً كتبت عليه بخطّها الدقيق المرصوص : « حمراء أو بيضاء »، خلاصة تحقيق قامت به إحدى الصحف بين مفكّري الشباب في موضوع الثورة . وكان هاني الراعي قد عهد إلى تميمه نصّور أن تستخلص من الأجوبة زبدتها لعرضها في الاجتماع . عمل اقتضاها سهرات

في مراجعة طائفة من الأجوبة انهالت على الجريدة من الساسة ، والكتّاب ، وأساتذة الجامعات ، ممّن هم من الجيل الجديد أو يريدون اللحاق به . اتفقوا على أن لبنان في حاجة إلى ثورة . اختلفوا على لونها .

«كأن للثورة وجهاً غير وجه الدم ! » هكذا كانت تميمه تقول لنفسها وهي تردّد بصرها بين المغلف وباب المقهى . وهي ، في هذا أيضاً ، اختلفت مع هاني . – « ثورات الدم ليست للبنان ، كان يقول ، نحن أكبر منها » . سترى في الاجتماع ما يكون رأي الآخرين .

كانت فخورة بالدور الذي أسنده إليها في الحزب ، متشوّقة إلى الاشتراك في اجتماعاته . على أن ما يثيرها أكثر من ذلك هو التعرّف إلى هذه العلّية . « هذه المرّة اجتماعنا في العلّية ، قال » . ولم يلبث أن أطلّ بسيارته ، فتناولت المغلّف وقامت .

انطلقت الفيات من ساحة الشهداء ، ودار بها هاني صوب البحر فسلك الكورنيش إلى نهر بيروت ، ومنه إلى الأشرفية . الطرق في الأشرفية تذهب على هواها – لم يسبق لتميمه أن مرّت من هنا – وفي كل ناحية تطلع أبنية حديثة ، منها الذي ينطح السماء ومنها الذي يثب إلى البحر ، قد اكتظّت هنا وتنافرت على غير نظام هناك . وأشكال وألوان يُخيّل معها إلى الناظر أنه في مدينة من مدن الألعاب المزوّقة .

ويوقف هاني سيارته عند بيت عتيق ، منعزل ، في طرف من أطراف الأشرفيه ، أمامه جنينة صغيرة مزروعة بقولاً ، وفي الجنينة شجرة كبيرة ، زيتونة شائخة ، تلقي أغصانها كالأذرع في استراحة . – « هنا » . قال ، وفتح باب الجنينة ومشى ، فتبعته تميمه وهو يقصّ عليها قصة البيت ، فيما أقبلت عجوز من خلف الزيتونة :

– مرحباً أُم خاتون !

سبق هاني أُم خاتون بالسلام ، ودعا تميمه إلى العلّية آخذاً بيدها على سلّم خشبي إلى السطح ، وهي تثني عنقها إلى العجوز ، تختلس كل واحدة

منهما النظر إلى الأخرى ، وهو في أثناء ذلك ماضٍ في السرد : أُم خاتون ستبقى في بيتها ما شاءت . إشتراه منها قبل شهرين بتوكيل من أبيه بعث إليه به مع المال من ليبيا ، بعد أن بيّن له هاني موقع العقار ومزاياه والمستقبل الذي ينتظر هذه التلّة البديعة .

– وهذه هي العلّية .

كانت هناك على السطح الفسيح غرفة وحيدة في إحدى زواياه ، تتعرّش عليها دالية ذات جذع غليظ يطلع من الجنينة مستنداً على الحائط كحبال المراكب في المرفأ . وفي زاوية أُخرى من السطح مطلّة على البحر دكّة خشبية بشكل خيمة لولا سقفها الجملوني المعتمر بالقرميد الأحمر ، ففسّر هاني :

– عرزالي البيروتي . إشتريت له الأعمدة والقرميد من أنقاض بيت هنا في الحيّ كانوا يهدمونه ليبنوا مكانه واحدة من هذه البشاعات التي تَرينها .

ودعاها إلى الاستراحة تحت العرزال ، وقد وزّع فيه وحواليه حجاراً من تلك الأنقاض ذاتها : رؤوس أعمدة وقواعد من النحيت . قالت إنها تريد أن ترى العلّية ومشت إليها . قال :

– قائمة قاعدة ! عمّتي دخلتها مرّة واحدة إذ جاءت تلقي نظرة على ما اشترينا في بيروت . كان رأي أبي أن تقضي عمّتي جميله ويقضي جدّي معها الشتاء في بيروت ، هنا ، ولكنهما لا يتركان دير المطلّ

نسيت أن تسأله عن المجتمعين ، عن الأصحاب ، مَن هم هذا المساء . وإذا بأم خاتون تتسلّق السلّم حاملة إليه شيئاً ، قالت :

– مكتوب جاء في غيابك . ووصل صاحب لك . أقول له يطلع ؟

قالت أُم خاتون إنها كادت تنسى المكتوب لولا أن ذكّرها مار مطانيوس ، عليه السلام !

– مار مطانيوس هو الاختصاصي بين القديسين في الأشياء الضائعة

والمنسيّة يا آنسة تميمه – قولي لصاحبنا يطلع .

وضحك هاني وهو يتناول الورقة المطويّة التي دفعتها إليه العجوز . وما كاد حتى عبّس ، فسألته تميمه في الأمر ، فأعطاها الورقة فقرأتها :

« اليك أنت يا هاني الراعي . إقطع العلاقة بين دير المطلّ والمهديّه . نصيحة ! إذا لم تنفع النصيحة فالدواء سيجيئك من صاحب الإمضاء .

اليد الحمراء »

رفعت تميمه عينين ملتاعتين إلى هاني . أرادت أن تقوم ، أن تهرب ، ولكن الأصحاب كانوا قد بدأوا يفدون ، فقام يستقبل أصحابه .

– « الأزمة الحاضرة عمرها ربع قرن . جايلت الاستقلال . علّة مزمنة ، خفيّة ، انفجرت تحت رماد النفوس . لقد تسلّم لبنانيّو الطراز القديم ، لبنانيّو الجزمة العثمانية ، بلداً موجوداً في العالم العصري ، ولكنهم حكموه بعقلية السلطان . كان مستوى البلد وانفتاحه على الحضارة وتجهيزاته الجغرافية والاقتصادية والبشرية تعدّه للعيش في ديمقراطية العلم . حكموه حكم مَن يستغلّ مزرعة ورثها عن أبيه وله الحقّ في أن يورّثها ولده ... وفي لبنان اليوم لبنانان ... »[1]

. . .

كانت تميمه تتلو من دفاترها ، وقد عيّن لها هاني مكانها وراء مكتبه ، وجلس الآخرون على الكراسي الموزّعة في العلّية ، وعلى الصوفا ، واتّكأ هو على سريره واتّكأ قاسم الهلال إلى جانبه . الجملة عشرة أشخاص قدّمهم هاني إليها على توالي وصولهم . عرفت منهم ، عدا قاسم ، السيد أحمد عدنان رئيس رابطة طلاب العلوم في الجامعة اللبنانية ، وهو الفتى الطرابلسي أبو العافيـة ، والسيد لطفي الزحلاوي أبو الحماسة العضو في رابطة كلية الآداب العليا التابعة لجامعة القديس يوسف ، والآنسة ليا شارون – الأنثى الثانية مع تميمه في الاجتماع – ولكن تميمه تختلط عليها

وجوه ، يطفو عليها وجه حسين القمّوعي ، فتغمض أجفانها لتعود وتفتحها بجهد على هذه الأوراق وتتابع :

. . .

— « ان تحقيق أهداف ثورة فعلية يصطدم بمصالح مترسّخة وبأجهزة أقيمت لحماية هذه المصالح . إذ ليس من المعقول أن يتخلّى المستفيدون من الأوضاع القائمة عن أسباب قوّتهم وإمكاناتهم المادية والسياسية بصورة طوعية . « أكَلة الجبنة » في أي نظام قائم سيقاومون أي محاولة للتغيير الجذري، لأن التغيير يعني القضاء على امتيازاتهم وزعاماتهم وتهديد مصالحهم . وشكل المقاومة الذي يلجأ إليه قادة أي نظام وحماته هو الذي يقرّر في النتيجة أسلوب الثورة ... »[٢]

. . .

— « النظام البرلماني القائم على الدستور هو الوحيد الذي يصون الحرّية الشخصية ، ويعزّز الكرامة الإنسانية ، ويضمن حقوق المواطن . وعلى نقائصه أثبت ، منذ الإغريق ، أنه الأفضل لتسيير شؤون الحكم . فالشعب هو مصدر السلطة ، وهو الشرعية التي لا بد منها لكل نظام حكم . فاذا كان الأمر كذلك يبقى على كل لبناني أن يعمل ، في حقل نشاطه العام والخاص ، على تعزيز النظام البرلماني وتثبيته ، ومحاسبة المسؤولين عن امتهانه أو مخالفته أو الخروج عليه ، والسعي إلى تأليف الأحزاب السياسية الصحيحة . فالعلّة ليست في النظام ، إنما في ممارسته وتنفيذه — أي في الأشخاص ، الحاكمين منهم والمحكومين . فكما تكونوا يولَّ عليكم... »[٣].

. . .

— « الثورة حقيقة ترفض وضعاً وتستبدل به وضعاً آخر . فما هو وضعنا وما هي معطياته ؟ إنها الشيء وعكسه ، إنها الحرية والاستبداد معاً ، إنهـا الانفتاح والانغلاق معاً ، إنها تعايش الطوائف واصطدامها معاً ، إنها الترف والفقر معاً ، إنها العلم والجهل معاً ، وبكلام آخر نحن

مع الطائفية وضدّها ، ومع الجهل وضدّه ، ومع الزواج المدني يُعقد خارج أرض لبنان وضدّ وجوده داخله ، مع المصارحة وضدّ نتائجها ، مع الكذب وضدّه . ازدواجية عجيبة تلعب لعبتها البهلوانية حتى لا تضطرب كفتّا الميزان ...

وتسألون أثورة دامية أم ثورة بيضاء ؟ الثائر فدائي صريح حتى البراءة ، واضح وضوح الموت . أما نحن فمغامرون نحمل دكّاننا على كتفنا لنبيع ونشتري . خوارج ! خوارج ! كل فئة تعتبر الأخرى خارجة عليها ...

ما هو الحل ؟ – أضعف الايمان ، ونحن ضعيفو الإيمان ، أن نتضرّع إلى الزمن ليشحذ سيفه علينا . فصرخة وجعنا حتى الآن فيها الكثير من الدلع والجبن والجهل والطيش والعربدة والعرض المسرحي . »[٤]

. . . .

وتوقفت تميمه . كانت أكثرية المجتمعين تؤيّد هذا الرأي الجارح . قاسم الهـلال صفّق ملء كفّيه . وتميمه ساكتة بعينين فارغتين إلاّ من الكلمات الأخرى – تلك التي خطّتها اليد الحمراء في الورقة المطوية – وفي أذنيها تضجّ ضجيجاً وتهزّ كيانها . حتى لم تتمالك أن ألقت بيدها على جزدانها حيث أخفت الورقة ، والجزدان على المكتب ، تعصره بأصابعها دون أن تشعر ، لولا أن تنبّهت على صوت هاني يدعوها بهدوئه :

– آنسة تميمه ، أكملي من فضلك .

. . .

– « ما دمنـا لسنا أول القادمين إلى الأرض ، وما دمنـا لسنا أول المقتربين في العالم من جاذبية الثورة ، فلنستفد من دروس الشعوب الأخرى ونفتح قلوبنا وعقولنا على جميع الحقائق ، ولنسأل أنفسنا بشغف الصادقين الأصفياء : نثور على لبنان الماضي ويجب أن نثور ، ولكن هل لا مفرّ من أن نقتل بعضنا البعض كي نكون ثواراً حقيقيين ؟ وهل الحلم بلبنان الجديد لن يتجسّد إلاّ بكابوس القتل ؟ وهل نحن واثقون أن كابوس

القتل سيسفر عن تجسيد حلم الحيـاة ، لا عن استمرار الكابوس وانقلابه كوابيس ربـّما تكون أبشع ؟... تردّد كثير وتخوّف عظيم . نعم ، الثورة رائعة ، لكن القتل حقير . [٥] (***)

... متى تنتهي هذه الآراء ؟ وتغضب تميمه على نفسها لأنها لم توجز أكثر مما فعلت ، وتسأل المجتمعين هل تقف عند هذا الحدّ ، فيطلبون المزيد مُثنين على عملها وعلى حسن تلاوتها . — أصحيح أنها تتلو جيداً ؟ شفتاها تتحرّكان بلا وعي . ولمّا فرغت تنفّست الصعداء وأرادت ترك المكتب ، فأشار عليها هاني بالمكوث حيث هي . لكأنه يسحقها . لكأن الأنظار الآن والأسماع مصوّبة كلّها إليها وهي تتلو رسالة حسين القمّوعي !

نوقشت هذه الآراء إلى ساعة متأخّرة من الليل . لم تحمل كثيراً من الجديد إلى المجتمعين . أما السليم منها فكانوا متّفقين عليه . إنهم يؤمنون بالعقل والعلم ، بالتطوّر والرقي ، مبدأ « الثورة على النفس » ، أي بالتنظيم والتصميم . ولذلك تحوّل البحث مباشرة إلى ضرورة الحزب . واعتُبر الحاضرون لجنة تأسيسية له .

— ما نسمّيه ؟

— أي شيء شرط أن نبتعد عن النعوت الرنّانة .

كانت الملاحظة من قاسم الهلال . وأبى قاسم إلا أن يضفي على الجوّ من مرحه فتابع :

— عن النعوت الرنّانة وعن العقائد المستورَدة . عن حبوب « الدوريدين » ! تعرفون حكاية الزنجي الأميركي جيمس فانيلي ؟ دخل جيمس فانيلي المستشفى لمعالجة قرحة ، فوصفوا له من جملة ما وصفوا حبوباً تدعى دوريدين . تعافى تماماً وخرج من المستشفى . ولكنّه لم يلبث أن لاحظ تحوّلاً عجيباً في لونه . كان أهله وجماعته ينظرون إليه فلا يصدّقون عيونهم . شهران . ثلاثة . أربعة . وإذا بزنجي الأمس قد انقلب رجلاً أبيض ! المأساة التي

كان يعانيها جيمس فانيلي لكونه زنجياً انقلبت إلى مأساة أعظم لتحوّله رجلاً أبيض . أنكره الزنوج . لم يعترف به البيض . طلّقته امرأته . هجر بيته ومدينته . صار أُضحوكة الشامتين من الفريقين . وما يزال إلى اليوم يحمل جلد البيض ومناخير الزنوج هائماً على وجهه . آخر خبر عنه أنه أقام الدعوى على المستشفى مطالباً بنصف مليون دولار تعويضاً عن تحطيم حياته ... لا لزوم لنا لحبوب الدوريدين . سنعالج أنفسنا بأعشاب حقولنا . ما نسمّي حزبنا ؟ سمّاه هاني . نحن أصحاب . نحن حزب الأصحاب . المطلوب من كل منّا أن يُكثر من الأصحاب .

قال هاني يختم الاجتماع :

ـ أنا مهندس في آخر هذه السنة . قولوا إنشاء الله ! وأبي متعهّد . وكان جدّي بنّاء . كان على عهد جدّي في شبابه مقلع في دير المطلّ ممنوع استعمال البارود فيه لمادّة كبريتية في ترابه . وكان الفَعَلَة في الضيعة يلتزمون الحذر فيعالجون الصخور بأدواتهم : بالمعول والرفش والمخل ، ويقطّعونها بالمهدّة والإسفين وبعرق الجباه المصبوب من طلوع الشمس إلى غروبها . حتى كان ذات يوم مرض فيه جدّي . فانتهز فاعل فيهم أرعن فرصة غياب المعلّم ولغم صخراً في المقلع بالبارود على غفلة من رفاقه ، فانفجر المقلع كالبركان فقَتل مَن قُتل وشوّه مَن شُوّه . الضيعة لا تنسى المأساة .

مقلع لبنان هو هذا يا أصحابي . وحذارِ من البارود !

١٠

في ٢٣ شباط ١٩٦٩ ذاع خبر عظيم في المهديّه . وأسرعت آمنه نصّور إلى بيروت تبشّر تميمه :

– عاد جابر من أفريقيا .

لا علم ولا خبر . أراد أن يفاجئ أمه ، قال . لم تجده إلا وهو بباب البيت يهجم عليها معانقاً ويذرف الدموع . أعطاها ألفي ليرة . نام عندها في المهديّه . طمّنها عن أبيه : لم يغادر كوناكري ، قال ، إلا بعد أن تأكّد من البراءة . ولمّا أخبرته أن الحكم صدر بحمد الله ، وأن أباه كتب مبشّراً بعودته إلى الوطن ، طلب أن يقرأ المكتوب . فأجابته أن المكتوب مع تميمه : « ستعطيك إياه تميمه . »

ونزلت معه إلى بيروت .

– نخر رأسي طول الليل يريد المكتوب . هاتيه وقومي معي .

لم تُجب تميمه .

فهزّتها أُمها من كتفها . فتذرّعت بدرس يجب أن تحضره .

– ليس هذا وقت الدرس .

ثم أضافت :

– جابر أخوك الكبير !.

وترجّاها وتشدّ بها . فتهبّ تميمه :

– المكتوب ضاع . مزّقته أُختك ، قولي له ، أحرقته أُختك !

وأخذت كتبها واندفعت من الباب .

نزل جابر نصّور في « بالم بيتش » ، في حيّ الفنادق الفخمة من العاصمة وملتقى الطبقات العالية . على باب الفندق سيارته الثندربرد الحمراء تبرق بانتظاره . مكشوفة اختارها ليراه الناس ، ولا يرونه إلا طائراً بها في قميص سبور يبدّله بين الصباح والمساء بآخر أصرخ لوناً ، وإلى جانبه ملازمه حسين القمّوعي يرفع ذراعه بالتحيّات كلّما بان له صديق على رصيف ، أو لاح وجه يعرفه على مفرق .

النهار للعرض والجاه . والليل للحانات والكازينو . فيشته على الروليت

مئة ليرة . ويحذف إلى حسين ليلاقي الحظّ من الطرف الآخر . على أن لعبته المفضّلة هي البكارا . يُقدم ولا يُحجم ويلاحق الخصم حتى الألوف . أما الأرتيستات فلا يحلو له إلا خطفهن من أحضان الآخرين بما يغمرهن به من هدايا ثمينة ومال بلا حساب . له في كسر الأنوف ولع وزهو على العالمين .

أُسبوع ... أُسبوعان... وما أطلّ الثالث حتى رنّ التلفون في بيت روز خوري ، وعلا هتاف بالسيد جابر . علا ثم انخفض . في صوت الست روز غصّة لم يعهدها فيه .

في المساء كانت الحقائب في الغرفة . حملها تكسي . الثندربرد بيعت . ولم يبقَ من ثمن البيع ، وهو نصف الشراء ، إلا الربع ، ويا ليت !

وفتح جابر محفظته يعدّ من جديد : ألفان وبضع ليرات .

هذا كل شيء .

وعطر هذه الحقائب الذي يبعث الذكريات ... باريس ! عرّج عليها وقضى أياماً من العمر . رائحة باريس ونساء باريس ولياليها . رائحة الأشياء التي ماتت .

وطفق يقلّب الأمتعة ، فعثر بينها على شال حريري – بقيّة من عدّة الماضي ما يزال في غلافه – فتناوله ودخل على الست روز ، وعلى وجهه تأثّر ظاهر . « هديّة منه ، قال ، تذكار متواضع . »

كانت روز ملازمة فراشها ، وقد نقلت التلفون من الدار إلى غرفتها فوضَعته بجانب السرير على الإسكملة ، والاسكملة حافلة – ظهرها وأدراجها – بأصناف من الأدوية . كان الورم قد امتدّ في رجليها إلى الساقين وعظم ، فهي لا تتمكّن من المشي ، حظّره عليها الأطباء إلا للضرورة . وما عدا ذلك فالحبوب . حبوب ! حبوب ! وكل هذه العلاجات شراباً ودلكاً ، وفحوصاً ومختبرات .

– وضربات من الله ! نعم من الله يا سيد جابر . مَن قال إن الله

ما عنده حجار يضرب بها !

إنقلاب لم يكن جابر ينتظره . في هذه الغيبة التي استغرقت أقل من خمسة أشهر هبطت الست روز بالشيخوخة فضلاً عن المرض . النقرس ؟ ليتها بقيت عليه . ولكنّها الذبحة الصدرية ، وقد نجت من النوبة بأعجوبة .

— صلوات أبي الخوري جناديوس في سمائه .

و « ثقلت عليها خطاياها » ، على حدّ قولها . هذا هو الأهم . وبصريح العبارة أفهمت جابر أنها تركت الكار . حتى البناية شالته من فكرها :

— يا ضيعان ما دفعنا ثمن خرائط !

ساعة وهي في هذه المراثي . وتمسح دموعها وتتناول حبوبها وتنادي زنّوب . « بنتي » تقول لها . « روحي يا بنتي . تعالي يا بنتي . »

— لولا زنّوب كانت حالتي بالويل .

مستعدّ جابر أن يصدّق كل شيء عدا هذه التوبة . إنها من الرِجلين . وصحيح أنها وصلت إلى الركبتين — أرته روز طرفاً منهما — ولكنها لن تصل إلى فوق ! وضحك بمرارة : « عادة بالبدن لا يغيّرها إلا الكفن » . يعرف ذلك من أصحاب العادات . وصرّ جابر بأسنانه لاعناً جابر .

لم ينسَ هديّته لزنّوب . كان يتململ على كرسيّه بجانب روز وعيناه إلى زنّوب .

وعدها قبل سفره بأُسوارة .

كانت الخادمة في غرفته ترتّب له ثيابه بأمر سيدتها . فانتهزها سانحة وقام فأخرج الحلية البراقة : « هذه لك يا زنّوب ! » ويهمّ بتقبيلها . فإذا زنّوب تضربه على يده وتقفز ناجية بنفسها إلى الدار كالحيوان المذعور .

لماذا تواجهه بهذا الرأس ؟ وما الذي جدّ في غيابه ؟

قضى نهاره في الغرفة بانتظار الليل ، لم يخرج حتى للغداء واكتفى بسندويش طلبه بالتلفون من مطعم صغير في الحمرا . بعد الأكل دعته

روز إلى تناول القهوة عندها – تريد من يسلّيها – فلمّا أقبلت زنّوب بالقهوة مدّ يده بالهديّة وقدّمها ، كأن شيئاً لم يكن ، بواسطة الست روز .

– قولي مرسي للسيد جابر .

غمغمت زنّوب شيئاً ولم تقل مرسي ، وحملت صينية القهوة عائدة إلى المطبخ ، فيما كانت روز تقلّب الأسوارة بنظرة الخبير ، ثم تضعها على الإسكلمة – حذفاً – كأنها تُفهم مهديها ما يجب أن يفهمه . فما يجوز على زنّوب لا يجوز على روز . كان جابر ينتظر من روز أن تأخذ معصم زنّوب وتُلبسها الإسوارة .

– مرسي على كل حال ، يا سيد جابر . زنّوب تستحق هذا وأكثر منه .

وقالت إنها تنتظر سماح الأطباء لها بالقيام ، لتذهب وتعمل المعاملات اللازمة لتبنّي زنّوب .

وجه آخر من وجوه الانقلاب العظيم ، أو نتيجة من نتائجه . التوبة إذن صحيحة . « سبحان المغيّر ! »

في المساء ارتدى ثيابه لسهرة في مكان ما . الانقلابات في هذا البيت تدوّخه وتخنق أنفاسه .

ونظر في المرآة إلى وجهه . انقلاب آخر !

لأول مرة يلحظ هذا الارتخاء في أُذنيه ، وهذا الاعوجاج في أنفه صوب اليسار ، كأنه يشمّ عن يمينه رائحة كريهة . واستدار إلى اليمين – أينظر من أين هذه الرائحة أم يُصلح أنفه – وتلهّى بذلك طويلاً . لا يعجبه هذا الأنف ! وهذا الاصفرار في عينيه ؟ إنه من السهر ؟ ولكن لماذا يخاف النظر إلى عينيه ؟ يسوّي كرافته هذه المقلّمة أسود بأحمر . وفجأة ينترها . يختار غيرها . هذه ، بل هذه ذات اللون الأخضر ، بل تلك الكشمير أُم الذؤابة العريضة . ولفّ بها عنقه .

لم تعجبه العقدة . وبدلاً من أن يحلّها راح يشدّها بكل قوّته ، ويبحلق في المرآة ، يريد أن يخنق نفسه ...

لم يلبث أن ابتسم . فردّت له المرآة ابتسامته – لأي شيء هذه الابتسامة التي كلّها رضى ؟... أم هو يسخر من قامته ؟...

قصير أيضاً ! من أين جاء بهذه القامة الواطئة على هاتين القدمين الشختورتين ؟ وأدار ظهره إلى المرآة .

« أكلّ هذا لأن جيبك فارغ يا جابر ؟ » ولكنّه ليس فارغاً . المال القليل يجرّ المال الكثير . الكرّ يجر قافلة من الجمال . والمال أنف أنوف ، وقامة كالرمح الردَينيّ !

ونزل السلّم .

لم يصل إلى أسفله حتى لاقاه جلال الكرش :

– سيد جابر ، عندي لك خبر هامّ .

ومن الدكّان إلى المكتب حيث لا عين ترى ولا أُذن تسمع .

– الست أُوديت تسأل عنك . سألتني عنك عشرين مرّة . تريد مقابلتك . ليس هنا . ليس عند روز . روز يجب أن لا تعرف . لا تقل لها شيئاً . سأُخبرك فيما بعد . ستخبرك أُوديت . أطلبها لك بالتلفون؟ قالت لي : في أي ساعة . في أي ساعة من النهار أو الليل هي في انتظارك .

– ممكن الليلة ؟

فانفتل الكرش إلى تلفونه . وجابر ينتظر ، يصعد الدم إلى وجهه ، يضرب قلبه للمرأة التي أرته بين ذراعيها ما لم يرَه بين ذراعي واحدة من نسل حواء تحت أي سماء . حتى باريس . يقولون باريس ! باريس !

ولكن أُوديت لم تكن في البيت . ومحلّ الخياطة يقفل الساعة السادسة . ومع ذلك يلاحق الكرش التلفون وليس من جواب .

إلى غد .

في التكسي سأله السائق إلى أين، فنظر إلى ساعته . لم يحن موعد الكازينو.

— إلى الزيتونه .

دخل إلى مقهى وطلب كولا . نهض قبل أن يكمل الكولا . امرأة ! أي امرأة ! فهو محتاج أن يذهب إلى الكازينو هادئ الأعصاب . ولكن قبل ذلك يجب أن يتعشّى .

لو يذهب إلى « الكيت كات » يأكل ، ويرى هذه الملعونة التي تمنّيه بالوعود . وحدها بين عشرات الأرتيستات في الزيتونه وفي الحمرا وفي الكازينو ، وحدها ما تزال عاصية .

١١

في القبو الواطئ ، المعتم ، الغوغو سلطان زمانه .

أشرف جابر من سُفرة الدرج ، تستقبله ملء وجهه دفقات غامرة من الجوّ العابق دخاناً ، وأنفاساً مخمورة ، وعطور نساء ، وعرقاً .

وقف يتفحّص تلك الزحمة من الأجساد المتلوّية ، المقبلة المدبرة ، الصاعدة الهابطة ، الناتقة بالرؤوس ، الخالعة بالخصور .

تدور على نفسها في الحلقة الدائرة ، مخطوفة ، مسحورة ، مجنونة على قرع جوقة من الزنوج حملوا إلى الدكّة كل أفريقيا بأثوابها الفاقعة وأنوفها وأردافها ونهودها وشياطين أدغالها .

قفزاً وإعوالاً...

مع عيون لهم تثقب العتمتين وأسنان تبصق وقار الدنيا ، قد جاء — من باريس ، من نيويورك ، من لندن — القيثار الكهربائي فحالف طبلهم وزمرهم ، فالأصوات والألحان عزيف جنّ

خبطاً على الحيطان .

نطحاً للسماء
ودقاً على الأرض لأبواب جهنم !
إنها هنا .

ها هي ترفع ذراعيها بالتحيّة . تترك راقصها يترنّح وحده لاهثاً ، وتندسّ بين الحفل ، ضاربة من هنا ومن ههنا ، تلاقيه إلى خوان هناك وترتمي ، ضفائرها الطائشة الشقراء ملء كفّيه ...

في مساء اليوم التالي امتدّت المخابرة بين جلال الكرش وأُوديت . قالت :

— هذه أشياء لا تصير بالتلفون . تعالَ هنا .

، فأقفل دكّانه وقصد إلى محلّ الخياطة في رأس بيروت . كانت هذه المرّة الثانية التي يطأ فيها الكرش المحلّ ، فجعل يتأمّل من جديد ويغبط أوديت . — « ماسكة الأستاذ أكرم من رقبته ولن تفلته ! » لولاه من أين لها كل هذا ؟ صالون للاستقبال بمرايا على الجدران مذهّبة ، ومقاعد تبرق بالأطلس ، وغرفتان خلف الصالون للعاملات وآلاتهن — العاملات انصرفن قبل ساعة وأوديت على نار :

— أين جابر ؟

قال الكرش إنه علم من زنّوب أن جابر غادر البيت في الصباح . قالت زنّوب إنه دخل إلى غرفة الست روز وبيده حقيبة . ولمّا سألته روز عنها ، « ثياب لا أحتاج إليها ، قال ، لتكليف كاراج صور بإيصالها إلى المهديّه . »

— والمكتوب ؟

— وضعته في البريد بيدي . مضمون . يتسلّمه غداً بعد الظهر .

— وأكرم ؟

— تعرفين الأستاذ أكرم . أمين على مواعيده . كل يوم من الساعة

السابعة مساء – يجب أن يكون هناك الآن – إلى تمام الساعة التاسعة .

وأضاف أنه لم يشاهد طول هذه المدّة التي يراقب فيها الشقّة غريباً يدخل على تميمه وصاحبتها . الباقون كلّهم مستأجرون في البناية .

وجاء حسين القمّوعي يسأل عن صديقه . ظل يدور في الحمرا حتى اهتدى إلى بيت روز خوري .

ورأى جلال الكرش شخصاً يتوقّف أمام دكّانه ويجول بأبصاره ، فتقدّم إليه عارضاً خدماته . ولمّا عرف مراده اكتفى بالاشارة إلى السلّم ووقف ينتظر .

أطلّت زنّوب من شقّ الباب إطلالة – الوقت الكافي لجواب الزائر عن سؤاله – ثم أقفلت . فعاد حسين أدراجه ، فتلقّاه الكرش ودعاه إلى الدكّان .

تحدّثا مطولاً عن جابر نصّور . كان اهتمام الكرش لغياب الغائب أشدّ من اهتمام مَن جاء مهتماً . وانقلب الدور بينهما فالكرش هو الذي يقلق – « ترُى أين يكون ؟ » ويذهب في ظنونه .

وهمّ حسين بالانصراف فعاجله الكرش بقنينة كولا وبالسيكارة الثانية وأسرّ إليه شيئاً . فأبدى حسين قبولاً حسناً واستوى في جلسته، فيما قام الكرش إلى خزانة في الزاوية فأخرج منها ألبوماً وقال وهو يضعه في حضن القمّوعي :

– لأنك صديق جابر . « صديق صديقي... » تعرف ما يقول الشاعر .

وبرق برصه للزبون الجديد .

أحدثت الصور التي يحفل بها الألبوم الوقع المنشود . وضرب الكرش لصاحبه موعداً للقاء ، هذا المساء الساعة التاسعة .

– هنا في الدكّان .

في الوقت المعيّن وصل حسين فبادر جلال إلى الترحيب ثم خرج

يتطلّع في الطريق . فلمّا اطمأنّ عاد فأقفل باب الدكّان من الداخل. يفرك بكفّيه واعدا بالطيّبات ، ويعتذر طالباً دفع الرسم سلفاً . « فهذه هي العادة » .

طالت المساومة .

أخيراً تمّ الرضا والاتفاق على خمس وعشرين ليرة قبل ، وخمس وسبعين بعد . ولكنّ الكرش تشاءم من سحنة الزبون . الواقع أنه خاف من نظرات القمّوعي ونبراته ولم يقبل إلا مكرهاً . وكالكاره قام إلى باب في الحائط فغاب هنيهة، ثم عاد وطلب من صاحبه أن يُدني كرسيّه من الباب . في الداخل حسّ جيئة وذهاب وضحكات أُنثوية كأنغام صغار العصافير . وما هي إلا أن نقر الكرش على الباب نقرة فانفرجت فيه ، على مستوى الجالس على الكرسي ، كوّة بمقدار مدى العينين . وبإشارة مزدوجة من يده ورأسه دعا الزبون أن ينظر .

كان الكرش قد أخذ عن روز خوري ، بعد تركها الكار ، مهمّة استقبال قصّاد البيت والتوفّر على تلبية رغباتهم بأُسلوب أدخل عليه فنوناً من عنده . تمّ الأمر في معزل عنها ، وهو يحرص على تحذير مَن يأتون إليه ، فالست روز تأخذ توبتها باليدين الاثنتين وتأبى وصل ما انقطع ، ناذرة نفسها للصلوات والدعوات الصالحات .

والقمّوعي ملتصق بالباب قد سمّر محاجره بالكوّة على المشهد المثير . في المكتب ـ وقد تحوّل إلى غرفة أنيقة ـ ضوء أحمر خافت ينسكب من السقف على صبيّتين تتّكئان على صوفا ، وكأن الواحدة في زيارة الأخرى فهما تتبادلان عبارات الودّ والشوق ، في ثوبين لهما حريرين أزرق وأصفر ـ ميني جوب كلاهما ـ وقد بانت سيقانهما وتدانت حتى التقت وحكّ بعضها ببعض . سمراء في السادسة عشرة أو ما دون ، وبيضاء رعبوب لعلّها لم تبلغ بعد ، وعليها هدوء ـ أهو الحياء ؟ ـ يزيدها فتنة وإغراء .

وإذا السمراء تنحني على البيضاء فتقبّلها في عنقها وتدسّ كفّها في

صدرها مداعبة ، والبيضاء تتمنّع غنجاً ودلالاً . ثم إذا هي تطرحها على الصوفا وتمرّغ وجهها بأنحاء جسمها حتى الساقين ، ثم تأخذ بنزع ثيابها ، باللمسة الناعمة هنا وبالنترة الحادّة هناك ، وهي خلال ذلك تتعرّى بدورها في انهماك ما تقتضيه الحال من انهماك وتهافت . وهمّت إحداهما ، الصغرى ، بما يتوقّع المتوقّع أن يكون من شأن الكبرى . فتدفّق الدم في أوداج القمّوعي وسوّى كرسيّه .

ولكنّ الفصل الأول كان قد انتهى . نقر الكرش على الباب نقرة فأُسدل الستار . طلب من الزبون أن يدفع . فهتف القمّوعي :

— والو ! ما لك ثقة ؟

وربّت على سترته مكان المحفظة . فأصرّ الكرش . فنهض القمّوعي ويده على الطاقة :

— إفتح لي هذا الباب !

كان في عينيه شرارات أبعد من الشهوة ، وفي حنكه تحفّز الأشرار الذين يعرفهم الكرش . ففتح له ...

باب اللذات .

على أن الكرش أدهى من أن يقع في الفخّ . فقد وقفت الفتاتان في عريهما تطالبان الزبون بالمبلغ الباقي . فداورهما ، فانثنتا ترتديان ثيابهما ، فاقتحمهما بالقوّة وعلا الصراخ ! فألوى واحدة من شعرها ، الكبرى ، وتمكّنت الصغرى من النجاة .

وكان ما خشيه الكرش . سوّى حسين ربطة عنقه وقال :

— المرّة الثانية نتحاسب . خاطرك يا عم !

وأدار ظهره ومضى .

فانقلب الكرش يشكر ربّه على السلامة ، ويأمر « العنزتين » بلغتهما العكّارية أن تضبّا على أشيائهما .

١٢

مع ظهر اليوم الرابع أطلّ جابر .

بنت الحرام – يأنف من لفظ اسمها – هي من الدهاء بحيث كانت هي التي عرضت عليه السفر . « لأي بلد من أرض الله ، قالت ، شرط أن نكون معاً » . قال : « إختاري » . قالت : « بل لك الخيار » . واختلفا على ذلك . فطلبت أن يعدّد البلدان الجميلة ويكتب أسماءها على ورقة – لا ! لا ! هو لا يستطيع أن يتذكر – وأن يُغمض عينيه ثم يضع إصبعه على أي بلد يشاؤه الحظّ . فكتب وأغمض . ولكنه أبى إلا أن يكون إصبعها ... وعلى متن الطائرة ظلّت تسمّي له الجزر السحرية التي ينبغي لها أن تؤوي حبّهما في البوسفور حتى وصلا إلى مدينة الأحلام ، فإذا هي قد ركبته – لا الطائرة – إلى إستانبول ، ففي المطار استأذنته لحاجة وبلعتها الأرض .

وحدها الست روز حكى لها الحكاية . وكان مصمّماً على دفنها في قرارة نفسه . ولكن الست روز لا يمكن إخفاء شيء عنها .

ومع ذلك لم يبح لها بكل شيء . ماذا لو علمت ، مثلاً ، أن المخلوقة نامت طول الطريق فلم تدعه يلمس طرف ثوبها ، ولمّا فتح محفظته ليحاسب التكسي الذي أوصله إلى أقرب فندق طار عقله . فقد طارت من المحفظة الورقات الخمس – خمسمائة دولار – لم تُبقِ له إلا بعض الليرات اللبنانية . متى ؟ كيف ؟ لا شكّ أنها انتهزت فرصة قيامه إلى التواليت في الطائرة – ترك سترته على الكرسي – وفعلت فعلتها . ولولا أن التذكرة للذهاب والإياب « لانقطعنا ، بالعربي الفصيح ، في عاصمة بني عثمان ! » .

ولكنّه لم يصل في اعترافه أمام روز إلى هذا الحدّ . هتفت :

– إشرب قهوتك يا سيد جابر .
كان بنفسها أن تضحك . منذ زمان لم تضحك روز .
– صحّتك بالدنيا ! بردت قهوتك .
لم تكن شهوته للقهوة . الويسكي . الويسكي لمثل هذه الساعة .
وبلا نساء ! بلا نساء !
قنينة ويسكي وبعدها ينام . ينام . إنه لا يريد أن يفكّر .

على أن الكرش كان له ، تحت ، بالمرصاد . لم يشأ أن يصعد إلى غرفته . تلك كانت تعليمات أوديت : أن تبقى روز بعيدة عن كل ريبة . وأين يطير جابر؟ وها إن الكرش يثب إليه من الدكّان ، عند أسفل الدرج ، وبعد ربع ساعة يسلّمه تسليم اليد إلى أوديت في محلّ الخياطة .

كانت أوديت متّكئة على الكنبة في وضعها المفضّل ، مع استلقاءة على الطنافس المكدّسة خلف ظهرها وقد أبدت من ساقيها ما تحب . لم يكن على وجهها من الأصباغ شيء ، إلا الكحل على أهدابها الطويلة المرفرفة . كانت تلوح هكذا في حدود سنّها الحقيقية ، الأربعين ، أي أكبر ممّا تُوهم في زينتها البرّاقة لمواعيدها مع أكرم الجردي . ومع ذلك أحسّ جابر ، وهو يقبّل كفّها الممدودة ويردّها عن محاولة النهوض له ، بالنار تتأكّله ، تهبّ عليه من برق كتفيها ، وهزّ نهديها ، وتلوّي هذا الجسم بلهفة السؤال عن سفرته إلى أفريقيا : « طالت الغيبة . ولا كلمة ولا كارت صغير يذكر به الصحبة القديمة ! » . – مشغول بالقضية؟ كانت على كل حال واثقة من براءة أبيه . ولكنّها لا تغفر له إعراضه بعد عودته . « تلفون على الأقلّ ! » ... والكرش يؤمّن على كلامها حالفاً بالله أنها سألته عن السيد جابر ألف مرّة وطلبت عنوانه – حتى عند الست روز لم يترك عنوانه – ويدور حول الطاولة منهمكاً في تحضير ما يلزم ، يفتح علباً وأكياساً ويصفّ آلة الشراب ومازاته ، وقد تألّق البرص على جبينه

كما لم يتألّق في زمانه قطّ . إن هذه المهمّة لمختلفة جداً عن مهمّاته المألوفة . ثمنها — عيناً — من هذه البضاعة الرفيعة لا من سقط متاع عكّار . وهذه نظرات أوديت إليه وغمزاتها مشحونة بالوعود والآمال . كل نظرة ترفيع له إلى مرتبة ، وكل غمزة توكيد بأنه لا يقلّ في الهيئة الاجتماعية عن الأستاذ الكبير أكرم الجردي ، فضلاً عن السيد جابر نصّور .

وأومأت إليه أوديت إيماءة ، فودّع وانصرف .

وما كاد حتى فتحت ذراعيها على مداهما ونادت جابر بأعذب ألحانها . ولم تنتظره فأطبقت عليه تغرس رأسه بين نهديها وتُلهب شعره بأنفاسها . ثم تنتفض ، تتناوله من خدّيه ، تُدنيه ، تُقصيه ، وتنقّر فيه تنقيراً . وفجأة أفلتت منه وقامت مستأذنة بإشارة جمعت لها أطراف أناملها الحلوة ، ودخلت في باب .

« ان هذه المرأة تساوي ثقلها ذهباً ! » على أن هاجساً كان ينغّص عليه هناءه . في تلك المرّة حطّ خمسمائة ليرة في يد روز سلفاً عداً ونقداً . من أين له الآن هذا المبلغ ؟ وأي خزي سيكون خزيه ! ويستدرك : « إذا كان للمال مجال مع هذا الدلال ! وعلى فرض التعرّض له فبعد الوصال طبعاً ! » . على كلٍّ ليس سائحاً أميركياً هو ، ستمهله في الدفع . والمبلغ على بضع ساعات بالسيارة ذهاباً إلى المهديّه وإياباً .

وإذا هي تناديه من وراء الباب أن : افتح .

فقام ، وما فتح حتى شهق للرؤيا . ما راعه إلا أوديت في ثوب عرس يسطع باللؤلؤ والمرجان وضروب من الحجارة الكريمة ، حبالاً تنعقد هنا وتنسرح هناك ، مع ذهب مشرور نجوماً ، وذؤابة لها انسحاب الثريا ، وفرجة على النحر تُبدي عنق ملكة ونهدي إلهة ، وهي تدنو في بهائها على انحناءة من رأسها ، ورفيف من أهدابها ، وتأنٍّ في النقلة وخشوع . ثم تأخذ بذراعه عروساً وعريساً في حلم من الأحلام أو أسطورة من الأساطير .

— ثمنه عشرون ألف ليرة ! ليس بالكثير على الأميرة الخطيرة !

وخلعت الفستان . طرحته بازدراء على الأرض . وجعلت تضرب بيدها في الخزانة ، وقد بانت في ثيابها الحميمة المهفهفة ، وتشير :

ـ أجرّب لك هذا ؟... أم هذا ؟... أم ذاك ؟

الخزانة على طول الحائط تزدحم بالثياب الفاخرة ، وأُوديت تستعرض وتقصّ قصص زبوناتها ـ زبائنها الكرام : أُمراء الخليج وشيوخه وتسمّيهم باسمائهم . يقصدونها لملابس عرائسهم ، لكلّ منهم في العام عروس على الأقلّ ، ولكل عروس في الشهر جهاز جديد . ما قتل أُوديت إلا هذا الحظّ الأبله لا يجد إلا بين الفلاحات والأرتيستات من يُغدق عليهن ملايين بتروله ويضع على رؤوسهن تيجان الإمارات .

وتنطرح على السجادة رافعة ذراعيها :

ـ أنت أميري !

تعانقه . تلاعبه . تشدّه من شعره . تعضّه حتى الدم . تنحني على الألم فتمسحه بالحنان . تركع وتعصر له وجهه بيديها . تقوم وترقص . تستلقي من جديد وتأمره أن يبتعد . أن يجلس هناك في الزاوية . لا يتحرّك . لا ينبس . يدخّن سيكارة وينظر إليها وهي مضجعة ، مغمضة العينين . «كما كانت تفعل في لياليها طول غيابه» . تبذل نفسها له ـ هكذا ـ في الرؤيا ، وهو في إفريقيا عند العبدات .

ـ أخبرني . أخبرني . كم عبدة سوداء ؟

وهذه الرحلة إلىّ استانبول ! كادت تُجهز عليها ! من هي تلك الأرتيست التي تريد انتزاعه منها ؟ قوّات الأرض والجحيم لا تقوى على ذلك . هو لها . لها وحدها . ولن يكون لسواها بعد اليوم .

وألقت رأسها على كتفه وتنهّدت :

ـ ولن أكون لسواك .

ـ والأستاذ أكرم ؟

كانت أُوديت تنتظر السؤال بفروغ صبر . كفكفت دموعها وقالت

إنها – « بصراحة » – نسيت أكرم الجردي . نسيته منذ النظرة الأولى التي وقعت منها على جابر . ثم مالت بوجهها :

– على كل حال صار عنده عشيقة جديدة . تميمه . مبروكة عليهِ ومبروك عليها .

– ماذا تقولين ؟ أي تميمه ؟

كانت قد انتصبت ترتدي ثيابها :

– هنيئاً لها ! بدل الواحد عندها ثلاثة .

وسمّت له : رمزي رعد . وهاني الراعي .

– وهذا الثالث هديّة مني .

١٣

أوقف هاني السيارة في شارع عبد العزيز ، خلف المستشفى الأميركي ، في فم الطريق المؤدّي إلى شقّة تميمه وصديقتها . وتميمه إلى جانبه تشير بيدها إلى البناية ، على أمتار من الشارع ، وتلحّ عليه أن ينزل ويطلع معها إلى الشقّة . تضغط يده وتستحلفه بحياته ، وهو يأبى .

« عنيدة » يقولون عنها ! هو العنيد .

كان صوتها يتهدّج بالتوسّل ، لا تعرف ما تقول ، وصدرها يعلو ويهبط بما يموج فيه . ونظر هاني إلى عينيها ، قد كبرتا بالفرحة ، وإلى جبينها تتراقص عليه أشعّة من مصباح الشارع – أمن المصباح هذا التألّق العجيب أم من شمس تطلع في سماء روحها ؟ ولم يتمالك أن مدّ كفّه فمسح بها ذلك الجبين . فتناولتها تميمه تقبّلها وتترجّاه مرّة أخرى أن يرافقها إلى الشقّة ، تريد أن توقظ ماري ، أن تخبّرها .

– خبّريها وحدك اليوم . الأحد المقبل نتناول العشاء كلّنا على البحر

بدعوة مني . أُتلفن لك في الصباح لتأكيد الموعد بعد موافقة المس ماري والأستاذ الجردي .

وأدار سيارته .

وقفت تميمه تشيّعها بأنظارها حتى اختفت . ثم سلكت في طريقها إلى الشقة . فلمحت شخصاً ينسلّ من أمام مدخل البناية ، يخفض رأسه ويمضي مسرعاً . هذه المشية ... هذا الظهر الأعوج... جلال الكرش ! ماذا يعمل هنا في هذه الساعة ؟

أيكون القمّوعي قد أخبر جابر ؟ وجابر كلّف الكرش ؟...

ومال الطيف ميلة وتوارى .

« تُرى لماذا يكون للسماسرة كتف أعلى من أُختها ؟ » وهزّت تميمه بكتفيها وضحكت بينها وبين نفسها .

إستهزاءً ضحكت أم استخفافاً ؟ لا تدري .

ولكنّها سمعت ضحكتها . ضحكت إذن عالياً . وربّما سمعها جار الشقّة هذا الذي ينزل من البناية ، فيرفع رأسه محيّياً ، لا تعرفه إلا بالنظر ، فترد السلام بإيماءة كإيماءته وتضع رأسها في السلّم . لا . إن الضحك من قلبها الطافح بالحياة ، الطافر على الدرجات ، القافز بها قفزاً ، الطائر بها طيراناً ، يحطّها على صدر ماري ويتدفّق .

كانت ماري تتهيأ للنوم بعد انصراف الأستاذ أكرم . إنتظراها — « تأخّرت » — للتشاور في ثوب العرس : الأحد الأول من الشهر المقبل . ولكنّ السيل كان قد غمر تميمه . فقعدت ماري تُصغي إليها :

دعاها هاني إلى غرفته . إجتماع آخر ، قال ، مهمّ يجب أن يسفر عن قرار مهمّ ، فظنّت أنه كسائر الاجتماعات : رابطات وأحزاب ومناقشات ، وسيكارات حتى منتصف الليل .

— ماذا ؟ حسين القمّوعي ؟ لا ! لا أخاف ،من حسين القمّوعي . حسين القمّوعي هو الذي يخاف مني الآن . حتى الموت . أتسمعين ؟

حتى الموت ! سأخبرك بخبر حسين القمّوعي . يزوّر على الفدائيين . يجمع تبرّعات كاذبة باسم الفدائيين . كتب ورقة ثانية بإمضاء يده الحمراء ، ضحك هاني ورماها عن السطح في الهواء . الخبر الذي أريد أن أخبرك به ليس هذا . ليس هذا ! سأعلّم حسين القمّوعي ألاّ يتدخّل في شؤوني . ظننت ، قلت لك ، أن هاني يريد مفاتحتي بقضية القمّوعي . ظننت أن القرار المهمّ أن يذهب وفد من الأصحاب إلى الحكومة لرفع الشكوى عليه . وجدت هاني وحده ، لا أصحاب ولا مَن ينتظرهم . ينتظرني أنا . لو تَرين عرزاله على السطح وعلّيته ! والمناظر من السطح على البحر والجبال المشعشعة في الليل ! وفوضى كتبه ودفاتره ! أردت أن أرتّبها له . قال : « فيما بعد » . وأمسك يدي وحبسها في يده وهو يتكلّم . ينتظر الشهادة . أن يصير المهندس هاني الراعي . آخر السنة . هذه السنة . أربعة أشهر . ثلاثة أشهر وعشرون يوماً ! حسبناها معاً . وأوصلني بسيارته إلى هنا . يصرّ على أخذنا بسيارته إلى العشاء يوم الأحد : « دعوتي ، قال ، وسيارتي » . وسيأتي من غد كل صباح ويأخذني بالفيات إلى دار المعلمين والمعلمات ويعلن على الملأ : هاني الراعي المسيحي الماروني من دير المطلّ سيتزوج تميمه نصّور المسلمة الشيعية من المهديّه !

وتقوم تميمه فتتوسّط الغرفة وتمثّل الفصل الذي أثاره تحقيق أوتلوك في ساحة دار المعلمين والمعلمات . تقلّد حسين القمّوعي برقاعته وأسئلته ، والقارئ ببرودته وسخريته ، وهاني وهدوءه ، ونزعه لليد الغليظة عن كتفه ـ « هكذا نترأ دون أن يتنازل إلى الالتفات » ، واضطرابها هي خوفاً من مغبّة الأمر... يعيش أوتلوك ! يعيش أوتلوك ! يا ! يا !

وتضحك تميمه حتى الدمع ، يرفد إليه دمع هنائها . وسيأتي أبوه من ليبيا لحفلة توزيع الشهادات . وتكون ماري حاضرة . ويكون أكرم حاضراً . ـ « مدعوان منذ الآن » . يكونان قد تزوّجا . تكون ماري قد سبقتها . طبيعي أن تسبقها .

– وأخوكِ ؟ وملّتك ؟ وحسين القمّوعي ؟

– قلت لكِ حسين القمّوعي أنا ممسكة بخوانيقه . لقطه قاسم الهلال بالجرم المشهود . جاء القمّوعي يبيع قاسم ورقة فنتَر الدفتر منه وعرضه في اجتماع الأصحاب . في السجن ستكون آخرة القمّوعي إذا خلص من الموت برصاصة . أنا اقترحت إخبار مكتب الفدائيين في بيروت ووضع الدفتر بعيونهم . إذن لاسترحت من القمّوعي إلى الأبد . إلى الأبد ! ولكنّهم لم يوافقوا . هاني قال : يعنينا نحن وجه واحد من التزوير يتعلّق بالقانون اللبناني ، والوجه الآخر لقيادة الفدائيين تتولاّه كما ترى . تصوّري : تصوّري هاني ، بقامته – الشبّ ! – تصوّريه يخرج من الصفوف ويتقدّم إلى المنصة ، يتسلّم من اللجنة شهادته ، والتصفيق في القاعة . وهو ينزل درجات المنصّة عائداً بشهادته ، وعيناه إليها ، وإلى أبيه . ستكون إلى جانب أبيه . كتب إلى أبيه . أبوه يريد منه أن يسافر إلى ليبيا ليكون على رأس أشغاله فيها . هاني لم تعجبه ليبيا . لا ، أعجبته ولكنه يريد السفر إلى اميركا للاختصاص في بناء المدن . يقول : « إن البناء في لبنان فوضى ! فوضى ! ونحن نشوّه بأيدينا أجمل طبيعة أعطانا إياها الله »...

كانت تميمه تلهث ، محمولة في عباب حبّها ، وتُغرق صديقتها بما يدفق من قلبها ، وماري تهدّئ من روعها مستعيذة بالله من هذا الغرام الجنوني . وتميمه ماضية ... إلى اميركا ! ستسافر معه إلى أميركا ، إلى هارڤرد . كلّهم في أميركا يتابعون دروسهم العالية متزوّجين . الزوج والزوجة في الجامعة نفسها . ويعيشون في شقق صغيرة ، حلوة . – « مثل هذه » . ويشتغلون خارج أوقات الدراسة . شغلها هي جاهز . ستعلّم اللغة العربية . تساعد الذين يتعلّمونها في هارڤرد بأمثولات خصوصية .

وإذا أصرّ أبوه على ليبيا لاتّساع أشغاله فيها ؟ تسافر إلى ليبيا – إلى ليبيا ! إلى أميركا ! إلى الغرب ! إلى الشرق ! إلى أي طرف في الدنيا ! والدنيا لن تسع سعادتهما .

غداً إلى المهديّه . لأمها يوم في الأسبوع . تقدّمه هذا الأسبوع من الأحد إلى الجمعة . فالجمعة عطلة ، والأحد لهاني . هاني قال لها : هذا الأحد وكل الآحاد .

ولكن هل تخبر أُمها ؟ وما يكون وقع الخبر على أُمها وعلى المهديّه ؟ أُمها . المهديّه . جابر . حسين . العالم كلّه ما يعنيه ؟

حياتها ملكها ليست ملكهم .

وستعيش حياتها كما تريد .

أم تنتظر أباها حتى يعود ؟ ستكتب له على كل حال . ستكتب هذا المساء . وسيؤيّدها أبوها . وسيكون حاميها أبوها . سيجلب من كنكا إلى المهديّه بعض ما يرفعها إلى مستوى الإنسان ، وربما عجّل من أفريقيا — من عند العبيد السود — طرداً حضارياً باسم لبنان .

« وسأكتب لك يا أبا الهول . مرحباً أبا الهول ! » .

وتفكّر بأبي شرشور إذ جاءها أمس بالرسالة الجديدة لتقرأها له . ماذا تقرأ ؟ الحاشية الموجّهة إلى « الآنسة تميمه » ثلاثة أرباع الرسالة . يقول أبو الهول — نطق ! — إنه يحتفظ بصورتها في صدره . من أين ؟ التقطها في مكتب النقابة ، قال ، بآلة صغيرة يخبّئها تحت سترته . ولمّا سأله الرفاق : « مَن هذه ؟ قال : أُختي » . لكل واحد حسناء (كذا) يحكي عنها في الأوقات التي يسكت فيها الرصاص . « أتأذنين أن أحكي لهم عنك يا آنسة تميمه ؟ » ...

إحكِ يا أبا الهول احك . إحك يا أبا العز وقل لهم إن حسناءك أيضاً هي أُم العز !

١٤

الكازينو .

هذه المرّة رأساً إلى الكازينو . شبع من النساء . لعنة الله عليهنّ ! وتميمه في رأس القائمة . دبّارها عنده . أكرم الجردي ، وقبله رمزي رعد ، وبينهما هاني الراعي . وهذه الرسالة المغفلة :

« إنتبه يا سيد جابر . انتبه لأختك ! أُختك تضع شرفك وشرف العائلة في الوحل – الإمضاء : صديق مخلص » .

جاءته بالبريد المضمون . وأعادها إلى جيبه . وتلميحات حسين – « سلوك تميمه في غيابك لا يعجبك إذا عرفت كيف كان سلوكها » . لماذا لم يخبره بصراحة ؟ علام اللفّ والدوران ؟ – « سأخلّيك ترى بعينيك ! » وكل يوم يؤجّله ليوم . يلاحقه من « الكاف » إلى « ايف » من أرتيست إلى أرتيست . من قنينة وسكي في الفينيسيا إلى تزكة عرق على الروشة ... يعيش على ظهره . راحت الثندر برد الآن وطارت الثروة . ليس إلا هذه الفتيلة وفيها كل الحيلة : ألفان ومائة وخمسون ليرة .

قل ألفان .

ضرب واحد بالألفين .

ضرب كبير يا جابر ! إما أن تعوم وتربح ما خسرته ، وإما أن تغرق إلى القاع .

وسيذهب وحده . القمّوعي وجهه نحس ولن يتّصل به .

سينام بعد الظهر ليتمكّن من سهر الليل ، ولن يدع أحداً يوقظه حتى المساء .

الواقع أنه مخضوض البدن بعد الذي جرى له هذا الصباح في المهديّه . كانت تنقصه أخبار الحاج فضلو . ماذا كرز الحاج فضلو وطرّز ؟ ماذا

قال لأمه؟ كان عليه أصلاً أن لا يعطيها الألف ليرة ليعود ويأخذها بالقتال . ولكن وفّرتها له . ربّة من وفّر القرش الأبيض لليوم الأسود . هل أشد اسوداداً من هذا اليوم؟ ضرب! ضرب كبير يا جابر ويصير سوادك بياضاً كالصباح!

فوجئ بجلال الكرش يفتح له باب البيت ، على وجهه خبر أسود ، ويطلب منه أن يتفضّل ويلحق به إلى غرفة الست روز .

فمشى وراءه .

سكوت في غرفة الست روز .

وهي قاعدة في فراشها لا تردّ عليه السلام . وزنّوب في الزاوية ظهرها إلى الحائط . ورمزي رعد . رمزي رعد — إياه — في الزاوية الأخرى ينبطح على كرسي مفرّجاً بين ساقيه ، يدخّن سيكارة ولا يرفع بصره ، والكرش قد انتصب بالباب .

محكمة !

وانصبّت عليه العيون .

صرخت روز :

— قرّبي يا عنزة! قرّبي صوبي .

خطت زنّوب نحو السرير فانحنت روز تلاقيها بذراعيها ثم ترفع لها ثوبها، فتنفجر زنّوب بالبكاء محاولة التستّر ، فيما تضرب روز على بطن خادمتها وتقذف جابر بالتهمة ملء وجهه .

أنكر . هجم يريد ضرب هذه «العنزة الوسخة» . ضحك . غضب . صرخ : «البيت غرف للإيجار . ألف مستأجر قبله وبعده . فليبحثوا عن غيره . مكتب الاستخدام للسمسرة ، والبيت للدعارة»... وهدّد بفضح كل شيء أمام الحكومة . فتلقّته روز بقفا كفّها .

— رُح! أُختك تميمه من واحد لواحد . إلحق بشرفك قبل أن تحكي

بشرف الناس .

وأمّن الكرش : « مَن كان بيته من زجاج لا يرشق بيوت الناس بالحجارة » .

ورمزي رعد يمضغ عقب سيكارته غارساً نظارتيه في الأرض ، قد همَّ جابر بالوثوب عليه . بتكسير رأسه . بلبط الكرش . بصفع زنّوب . بسحب هذه القوّادة من رجليها هاتين المتورمتين بالتوبة !...

ولكنّه في النتيجة لم يفعل شيئاً .

وانقطع عن الكلام . أُرتج عليه . أفحمته زنّوب بما روت من تفاصيل إغرائه لها قبل سفره إلى افريقيا . ومحاولاته بعد العودة . والأسوارة ... حتى إذا بلغت روز من ذلك ما تريد أمرت خادمتها بالخروج من وجهها .

وتم الاتفاق بين الثلاثة : روز والكرش وجابر – بعد مساومة طويلة اعترف فيها جابر بكل ما يملك – على إجراء عملية إجهاض لزنّوب يتحمّل نفقاتها . ألف ليرة تتسلّمها الست روز الآن لدفعها إلى الطبيب . والألف الثاني يتسلّمها جلال الكرش لدفعها الى والد زنّوب ثمن سكوت .

أما رمزي رعد فترك الجماعة قبل دخولهم في الصفقة . عاد إلى غرفته ووراءه صياح روز بوجه جابر :

– يمكن تموت البنت ! يمكن تموت البنت تحت العملية !

جلس وراء الطاولة . كان عليه أن يهيّئ مقاله الأسبوعي فتناول كدسة من الأوراق . لا يفكّر بما يكتب إلاّ إذا شهر قلمه . المواضيع المحضَّرة سلفاً أكره ما يكرهه . – تشيكلس ، يقول عنها . حَسْبُهُ أن يركّز نظارتيه ويرى إلى العالم من خلالهما . أي صندوق للفرجة !

على أنه لم يكن يهتدي هذه المرّة إلى موضوع ، فجعل يكتب ويشطب . يمزّق الصفحات واحدة بعد أُخرى . ثم دقّ الجرس يريد قهوة – كان يطلب الركوة ويبقيها إلى جانبه إذا كتب – ودقّ ثانية ، فثالثة .

ليس من مجيب .

« زنّوب تطبخ مأساتها » ــ وكتبها عرض الصفحة عنواناً لمقاله . ومضى حتى ملأ ورقتين ، ثلاثاً ، أربعاً . كانت الكلمات تنساب من قلمه انسياباً ، وخُيِّل إليه أنه مقال جيّد . ولكنّه لم يلبث أن تناول الأوراق فعصرها عصرة ثم ألقاها في صحن السيكارات وأشعلها بكبريتة . وكأنه أحب أن يتملّى من الحريق فنزع نظارتيه يستقبل الدخان ملء أحداقه ويمسح اللهيب عن وجهه بيديه الاثنتين عرقاً متصبّباً .

وقام يتمشّى في الغرفة . يدخّن . يستلقي على السرير . يضرب بيديه إلى الكتب المتراكمة على الرفوف فوق رأسه . في الدار لغط وجيئة وذهاب ، وفي الخارج رعود وبروق تشقّ الشبّاك المخلّع . لا تريد روز تصليحه ــ « فليسقط على رؤوس الجيران ! » .

صحواً كان الطقس طول النهار ، فما الذي خطر ببال الله لكي يزمجر هكذا ؟

غضبان ، ربّما ، على ما حلّ بزنّوب .

طبعاً على ما حلّ بزنّوب .

مؤكّد على ما حلّ بزنّوب !

ووقع كتاب من يده على الأرض فانحنى يتناوله . كان قد انفتح في الوقعة ، فلبث من فوقه ينظر . ولمع برق آخر ملأ الغرفة وتردّد ثلاثاً ينثر بَهَقَه على الكتاب المفتوح المنبطح على السجادة ــ «كالمومس تتهيّأ» . أيها الكتّاب العظام ، والشعراء الخالدون ، بَنات أفكاركم ! بنات أفكاركم ! تُرى مَن يضاجع بناتي الحلوات في هذا الليل ؟

وانفجر في قهقهة ملء فيه وانزلق من سريره إلى الكتاب يلاقيه مستلقياً على السجادة . وشرع يقرأ :

« الإله لا يمارس الجنس . لا ينام ولا يأكل . واحد متفرّد . »

هذه الكينونة لا بدّ أن تصوغ مزاجه النفسي صياغة حادّة أليمة .

لو كنت أختار للإله لاخترت أن يشفى من هذه المعاناة : أن يمارس الجنس والطعام والنوم ويتخلّى عن الوحدانية .

سوف أنتظر منه ألا يجدّ في تشويه الطفل والشيخ وتعذيبهما عزاء وحكمة ومنطقاً وإحساناً .

أنتظر له حينئذٍ صياغة إله جديد ليعطي صياغة كون جديد...» (****)

وإذا صوت روز في الدار تجأر :

— يا الله ! يا الله !

فهتف إليها من وراء الباب :

— الله لا يمارس الجنس ! ماذا تريدين منه يا ست روز ؟

وعاد يضحك عالياً مستمتعاً بكرَّة ضحكته يرتّلها ترتيلاً . « الله لا يمارس الجنس » . أسامع يا جابر ؟ يا عيب يا جابر ! أنت لا تمارس سواه . الله لا يمارس الجنس . فكرة والله ! لم تخطر لي . ولكن صاحبنا لا يعرف أين ستؤدّي به . من الشيطان هي . هــذه أفكار شيطانية . كيف تجاسر على هذا ؟

الله لا يمارس الجنس !

تجديف على الله في سمائه .

وسترى ، يا رجل ، أن وكلاءه على الأرض سيأخذون بخناقك . إنتظر ! الإجتماعات الآن معقودة في دور الإفتاء وفي كراسي الأحبار الأجلاء . خضّة .

ويا ما أهون خضّاتي أمامها !

تذكّرني أختاً لها أثارها أخ لنا بالروح كتب يوماً في جريدته : « إن نصف أعضاء مجلس النواب أغبياء » .

فقامت القيامة عليه .

فكتب في اليوم التالي معتذراً : « غلطت . نصف أعضاء مجلس النواب أذكياء » .

فقامت القيامة عليه كذلكم – تعجبني هذه «كذلكم» ... ما رأيكم في كذلكم ؟ – هذا طبعاً ليس في لبنان بل في بلاد الواق واق . عندنا ، الحمد لله ، أكتب عن المجلس كل يوم دون حساب ، دون هذا الحساب على كل حال ، ولا أحد يحتجّ . مَن منّا أذكى : أنا أم هو ؟ الخلاصة أنك ، يا صاحبي ، أغبى من زميلنا الوقواقي . إذا قلت مكذّباً ، مستغفراً : « الله يمارس الجنس » فالنتيجة واحدة ، وإلى اللقاء في الحبس .

– يا الله ! اين أنت يا الله ؟

الست روز ضيّعت الله وتفتّش عليه في بيتها العامر ! متى استأجر عندها ؟ إنه يجاوبها بالرعد – أفصح لسان – « « أنا لست هنا ! أنا لست هنا يا ست روز ! » وهي لا تسمع .

أرهف هو سمعه . الواقع أن زهّور ترجى أباها القديس ليشفع لها عند الله ليعينها على طرد الشيطان . وها هي تستعين به هو أيضاً – رمزي رعد – تدقّ عليه الباب . تدقّه بعنف... لا يريد أن يفتح... تبتعد مواصلة أدعيتها وإبتهالاتها ... أخذت تلعن الآن . تكفر . تعود إلى الباب . « أف ! أف ! » وقام متثاقلاً وفتح الباب .

عتمة في الدار ولا أحـــد . مَن كان يدقّ عليه ؟ لعلّه الشيطان في هربه خبط رأسه بالباب .

ولكنّه قبل أن ينثني إلى غرفته استوقفه شخير ينبعث من الممشى ، فأضاء الكهرباء فإذا روز ملقاة على البلاط لنوبة من نوباتها .

لم يكن من السهل حملها ، فجرّها جراً إلى غرفتها ، وأضجعها على السرير . كانت الرغوة تتحلّب من شفتيها وقد انقلبت عيناها إلى فوق . فهزّها يسأل هل يتلفن للطبيب ؟ فنتقت برأسها أن لا . الطبيب جاء قبل ساعة وعاينها . أوصاها بالراحة التامة . بملازمة الفراش والامتناع حتى عن الكلام . كيف لها أن تستريح وتسكت بعد الذي صار ! – ما الذي صار ؟ هربت زنّوب . انشقّت الأرض وبلعت زنّوب ! إنتهزت فرصة

انشغال الكرش بالطبيب وهربت ، والكرش يركض وراءها ، وإلى الآن لم يرجع .

١٥

وصلت تميمه مع الغروب إلى المهديّه .

الباب مفتوح ، وفي الدار نسوة ، وأُم علّوش تبادر إلى استقبالها مبغوتة ، فتسأل ما الخبر وتقتحم غرفة أُمها وتتبعها أُم علّوش ومعها امرأتان أُخريان .

كانت آمنه قاعدة في سريرها . وما أن وقع نظرها على ابنتها حتى شهقت بالبكاء ، تحاول الكلام فلا تستطيع ، وتشير بيدها اليمنى إلى فكّها وقد اعوجّ ، وتهزّ برأسها رامقة تميمه بلوعة ، والجارات يحمن حول تميمه ، لكل واحدة منهنّ تأويل وشرح ، وطبّ وعلاج .

شلل ! فالج ! أُصيبت أُمها بالفالج — « هذا ما كنت تنتظرينه يا آمنه نصّور ؟ » وأكبّت على أُمها .

أخبرت أُم علّوش أن جابر جاء في الصباح . كانت آمنه بألف خير . وكانت أم علّوش مارّة فسمعت صراخاً ، ثم رأت جابر يخرج برجاً من غضب وآمنه تقع وراءه على العتبة . لم يلتفت وعاد بالتكسي الذي كان بانتظاره . لم تُصَب في الوقعة إلا بخدش في كوعها .

— ساعدتها على غسله وربطه . قالت لي إن جابر أخذ منها كل شيء . صحيح ، قالت لي . المال ماله . وأخبرتني بالألف ليرة التي بعث بها من أفريقيا وبالألفين بعد رجوعه . حكت لي كل شيء . كانت بألف خير . وقعدتُ أعزّيها وهي تحكي لي عن جابر وفصوله ، وعن تامر وأنه سيرجع إلى المهديّه قريباً ويكون على رأس العائلة . هي لا تقدر

على جابر . «أبوه يق...» . هكذا قالت ، ووقف نصف الكلمة بين أسنانها وراح فكّها للشمال .

تمّ الرأي بين الاثنتين : تبقى أُم علّوش عند آمنه وتنزل تميمه إلى صور لتعجيل طبيب إذا وجدت في صور طبيباً . وإلا فهي قاصدة إلى صيدا لإخبار خالتها ، وفي صيدا لا بدّ من العثور على طبيب .

في صيدا انكشف الوجه الآخر للمأساة ، ذاك الذي حرصت تميمه على إخفائه عن أُمها . أخبرتها خالتها أن أُم جابر جاءت إلى صيدا قبل يومين وزارت الحاج فضلو ، ونامت عندها . قالت :

— علمت من الحاج فضلو أشياء فظيعة عن جابر . أشياء فظيعة عملها في أفريقيا مع أبيه . عادت تقول : يا ليت جابر لم يسافر ! وتضرب كفًّا بكفّ ولم تنم ليلها .

قضت تميمه يومين في المهديّه ، وفي صباح اليوم الثالث عهدت إلى خالتها أن تقوم على العناية بأختها آمنه ، وركبت في المرسيدس مع أحمد لعودتها . كان أحمد قد اقنع أباه ببيع الناش وشراء السيارة الجديده بعد أن صارت درب المهديّه إلى ما صارت إليه بفضل أريحية الموالي .

في الطريق الرئيسي لاحظت تميمه جماعات من القرويين يتكدّسون مع أمتعة لهم في ما تيسّر من مركبات ، سيارات وشاحنات ، مقبلين من الجنوب صوب صيدا ، ومنهم من حمّل الدوابّ أو حمل على ظهره ، مع أطفال يبكون على أكتاف أمّهاتهم ، وشيوخ يجرجرون بؤسهم وانكسارهم لاحقين بالركب .

وفسّر أحمد :

— يهربون من وجه الإسرائيليين . أبناء الكلاب قاموا بهجوم فظيع البارحة !

لمّا وصلت تميمه إلى صيدا وجدتها قائمة قاعدة والناس يتحدّثون عن

الاعتداء الجديد الذي قام به اليهود بحجة ضرب مواقع الفدائيين ، وتحوّلت قوّاتهم إلى القرى الآمنة فقصفتها من البر والجو ودمرت بيوتاً وأسقطت أربعين ، خمسين ، ستين قتيلاً عدا الجرحى ، عدا الذين دُفنوا تحت الأنقاض . ومواكب الذعر تتوالى على صيدا طالبة المأوى والأمان .

وفي السيارة إلى بيروت – وقد استحصلت تميمه على محلّ لها بجهد – لم يكن الحديث بين الركاب إلا عن المعركة .

– معركة ! (اعترض أحدهم) أيّ معركة ! اسرائيل تجول وتصول وحدها في الميدان .

وهتف آخر :

– بدلاً من العراضات التي يقوم بها الفدائيون في شوارع بيروت ...

فقاطعه ثالث :

– لا جيش ولا فدائيون . فليعطونا سلاحاً لندافع عن أرضنا وأرواحنا .

وحمي الجدال .

تميمه بقيت ساكتة .

لدى وصولها إلى بيروت ، الساعة الثانية بعد الظهر ، تلقّتها ماري بوجه القلق . ولم تكد تطمئنّ عن أُم جابر حتى أخبرتها أن جابر سأل عنها مراراً . إلى الشقّة تلفن ، في الليل كان يتلفن ، وإلى المستشفى تلفن اليوم قبل الظهر .

– وهاني ؟

– سأل عنكِ مرّتين . الأولى بالتلفون ، والثانية – «كان التلفون مشغولاً كل الوقت» قال – طلع إلى هنا ، وشرب القهوة معي ومع الأستاذ أكرم ، واستأذن في الدخول إلى غرفتكِ .

نسيت تميمه ما تعاني من أمر أُمها ، وتأفّفت لدى ذكر جابر فما تريد أن تسمع اسمه ، وانهالت بالأسئلة على ماري كيف وجدت هاني ؟

وما رأي الأستاذ أكرم بهاني ؟ وماذا قال هاني عن غرفتها ؟

— أعجبته صور بيكاسو التي تعلّقينها فوق طاولتك . عظيم ! عظيم !

— من هو العظيم ؟

— بيكاسو ؟ طبعاً . وأعظم منه هانيك . ولكن اسمعي .

فوثبت تميمه تعانقها فردّتها ماري ، وكانت تسوّي شعرها أمام المرآة استعداداً للذهاب إلى المستشفى وتضرب بالمشط ضربات عصبيّة :

— إسمعي . اسمعي يا تميمه . لهجة جابر كلّها شرّ . نعتك بنعوت لن أذكرها لأنني أعرفك وأعرف جوهرك . أكثر من ذلك . صرخ بوجهي وقال إنني أنا المسؤولة . الأستاذ أكرم كان هنا ، لمّا اخبرته عبّس وقال إنه يريد أن يفاتحك بالأمر الليلة ، وقعد وعمل لي محاضرة . الأستاذ أكرم مسلم ومحام ولا يريد إلا خيرك . وأنت أيضاً — لو حكّمت عقلك — لا تغيب عنك هذه الأمور . كل الناس بمشكل وأنت بمشكلين الواحد أفظع من الثاني : العلاقة التي كانت لك مع رمزي رعد ، ومشروع زواجك اليوم بهاني الراعي . إذا كان لا بدّ من الزواج ، وهذا رأي الأستاذ أكرم ، فالحلّ الوحيد الهرب أنت وإياه إلى أميركا بعد الشهادة في ليلة ليس فيها ضوء قمر . بشرط : من الآن إلى الشهادة لا تَرين له وجهاً ولا يراك . حتى ولا تلفون . الأستاذ أكرم يقول : هذه الحواجز ستزول في المستقبل . يلزمها وقت لكي تزول . بانتظار ذلك ، القفز فوقها لا يتيسّر إلا من ناحية واحدة . ولا يُقدم عليه من الناحية الثانية إلا المجانين الذين يخاطرون بحياتهم ، أو القادرون على الدفاع . وأنت غير قادرة . يذبحك أخوك . جسّي سكين القمّوعي على رقبتك ! وجابر حجّته بدل الواحدة اثنتان : الشذوذ في سلوكك والخروج على دينك .

وشعرت ماري أنها قست على صديقتها ، فتميمه تدير وجهها وتخنق شهقاتها .

— عديني أنك لن تريه إلا في الطائرة إلى أميركا . أم تفضّلين

الباخرة ؟ شهر العسل في الباخرة ألذّ . تعالي أبوسك . تأخّرتُ على شغلي .
وهرولت إلى المستشفى .
ما كادت ماري تخرج حتى رنّ جرس الباب ومع رنينه طرق ينقطع ثم يعود . خفيف وكالحيي مريب .
أهو جابر؟ فليكن جابر ! وليذبحها إذا شاء على العتبة !
وقامت تميمه إلى الباب تفتحه .

الحلقة الرابعة

«تصوّر ، تصوّر أن ليس أمامك
إلا مصيرك . »

هنري ميلر

١

أممكن هذا ؟!

تميمه تنظر وتسمع ولا تصدّق ، وزنّوب تمرّغ وجهها بقدمَي صديقتها وتبكي :

– يا بيّي : ليش ما كفّيت عليّ ؟ يا ريتك دبحتني على الدرج !

أين كانت عيون روز ؟

أم يكون الأمر بمعرفة روز ؟

وزنّوب تخبر أنها آتية من صيدا . وصلت قبل الفجر وقعدت تنتظر تحت الدرج هنا . هربت من الست روز ، قالت ، ومن الكرش ومن جابر . يريدون أخذها عند الحكيم . سمعتهم من وراء الباب يتشاورون . وهي لا تريد أن تذهب عند الحكيم . لا تريد أن تموت تحت العملية . كيف هربت ؟ لا تعرف . ولا إلى أين . من الأسانسور في البناية الأولى التي وصلت إليها في شارع الحمرا إلى السطح . وبقيت على السطح طول الليل . ومع الفجر كانت على طريق صيدا – صيدا ليست طريق عكّار – ولكن إلى مَن تقصد في صيدا ؟ هامت على وجهها طول النهار . جاعت . دارت على البيوت تشحد . لمّا جاء الليل خافت . دخلت عمارة وقالت أنام تحت سُفرة الدرج . لمحها رجل فسألها ما تصنع هناك ؟ كذبت عليه ، قالت إنها تشتغل في أوتيل صيدا في المطبخ وأنهم طردوها لأنها كسرت

جاطاً من البلّور . فأخذها الرجل إلى بيته وقال لامرأته : « تريدين خادمة ، الله بعثها لك إلى البيت . »

ولكن المرأة لم تلبث أن عرفت كل شيء ، وفي الصباح قالت لها : « إرجعي حيث كنت ! » وأغلقت وراءها الباب .

وهكذا عادت من صيدا ماشية . لا تملك أجرة البوسطه . وتعبت من المشي فجلست على حافة الطريق . مرّت سيارة ليس فيها إلا سائقها . لو أوقفته وطلبت أن يأخذها معه ! ولكنّها لم تجرؤ . وثانية فيها السائق وامرأة بجانبه . هذه كان عليها أن توقفها — ربّما كانت المرأة زوجة السائق . ولكن السيارة راحت كالسهم . وأطلّت ثالثة فيها رجلان خلف ، والمقعد جنب السائق فارغ ، فرفعت يدها . وفسح لها الرجلان مطرحاً بينهما وتابعت السيارة طريقها صوب بيروت . وأخذوا يسألونها أسئلة . ثم لم تشعر إلا والسيارة تدور عائدة صوب صيدا ، فطلبت منهم أن تنزل إذا كانوا قد غيّروا رأيهم في الذهاب إلى بيروت ، فلم يدعوها تنزل . ترجّتهم وبكت فلم يسمعوا لها . حاولت الصراخ فكمّوا فاها وأوقفوا السيارة بجانب البحر وجرّوها بالقوّة إلى ما وراء الصخور ، وتناوبوا عليها .

— الثلاثة ! الثلاثة ! كل واحد بدوره . وواحد منهم مرّتين .

وتستر زنّوب وجهها .

« أُخوة جابر ! » وتُطرق تميمة . ما العمل ؟ وزنّوب متكمّشة بها . إن الحلّ هنا . لا بدّ أن يكون هنا ! هكذا كانت تُلحّ اليدان الصغيرتان .

الشرطة . القضاء . العقاب ... ولكن هذا معناه ذبح زنّوب على يد أبيها كما تُذبح العنزة . كما تمنّت زنّوب ، من دون هذا العار .

الحمل يدخل شهره السابع . هكذا أعلنت المرضة بعد عودتها ظهراً إلى الشقّة . وزادت فقالت لتميمه إن الاجهاض عمل لا يُقدم عليه إلا

نفر من الأطباء لهم ، ربـّما ، آراؤهم .

– وعلى فرض تسليم هذه الطفلة إلى واحد يُعمل فيها سكـّينه ، فمن يضمن نجاتها ؟ لا . لا . ما لك وهذه المسؤولية .

ونصحت بإعادة الخادمة إلى بيت مخدومتها .

فاقترحت تميمه استشارة الأستاذ أكرم واستبقاء زنـّوب إلى أن يحضر في المساء . ومن الخير أن تقضي الصغيرة ليلتها هنا فلا بدّ من تهدئة روعها . ولعلّ من غد فرجاً . فلم تمانع ماري .

كان الحديث بينهما باللغة الانكليزية ، لم تفهم منه زنـّوب إلا أن مأساتها قائمة . لو ذهبت معهم – هم – كانت إذن ميتة الآن . وإذا شفيت وعرف أبوها ؟ – ميتة في الحالين . بسكـّين الحكيم أو بسكـّين أبيها . وراحت إلى المطبخ فانكمشت في الزاوية . مطعونة . كل السكاكين ، سكاكين الأطباء كلـّهم وسكاكين الآباء كلـّهم في قلبها .

في السهرة طالت المناقشة . إطـّلع المحامي من تميمه وماري على الحادث ، ثم استدعى الخادمة فطرح عليها بعض الأسئلة ثم صرفها . فقادتها تميمه إلى غرفتها وسوّت لها الصوفا وأضجعتها . ثم انحنت ومسحت جبينها .

وغمرت زنـّوب فرحة النوم في غرفة صديقتها الكبيرة ، فبرقت عيناها خلف الدموع وهتفت :

– مدموازيل تميمه ، نسيت خبـّرك شي .

فابتسمت لها تميمه تسألها ما الخبر . فنقلت إليها زنـّوب كلام الست روز في ردّها على جابر . ولكنها هي ، زنـّوب ، لا تصدّق . « ولا أحد في الدنيا يصدّق ! » وهي تعرف الست روز .

– كذّابة الست روز . أكبر كذّابة .

مع الصباح مشت زنـّوب إلى قدرها .

لم يكن بدّ . هكذا ارتأى الأستاذ أكرم . العملية ؟ فليتدبـّرها الثلاثة .

المسؤولون : جابر والكرش ومدام خوري . وإلا فإبعاد الخادمة وإخفاؤها في مكان ما إلى أن تضع . وهذا غير ممكن وله من المخاطر والعواقب ما يفوق التصور .

عرضت تميمه على زنّوب أن ترافقها . أجابت زنّوب :

– أعرف طريق البيت .

ومسحت عينيها ومشت .

وتميمه تنظر .

في اليوم التالي نشرت الجرائد الخبر :

« الساعة العاشرة قبل ظهر أمس شاهد المارّة في محلة الروشة فتاة ترمي نفسها في البحر فأسرعوا لانتشالها ولكنّها فارقت الحياة أثناء نقلها إلى المستشفى . تبيّن أن اسمها زنّوب الإبراهيم ، الخادمة التي اختفت قبل ثلاثة أيام ، وأنها حامل . يقال إنها انتحرت تخلصاً من العار . سئلت مخدومتها روز خوري التي تملك بيتاً مشبوهاً في الحمرا ، فاتّهمت أحد المستأجرين عندها بأنه هو الذي اعتدى على عفاف الخادمة ، بتصريحها قبل هربها من البيت واعترافه . أركن المعتدي إلى الفرار والتحريات جارية للقبض عليه . »

٧

للمرّة الثانية يأتي الشرطيّان الموكّلان بالتحقيق إلى بيت روز خوري في المرّة الثانية لم تستطع الكلام . رمزي رعد أجاب عنها من طرف لسانه على بعض الأسئلة .

وما كاد يشيّعهما بدفع الباب في ظهرهما حتى عاد ووقف فوق رأس روز ، فأشارت إليه بيدها أن يقعد .

فقعد .

دمعتان كبيرتان تسيلان على هذا الوجه الهشّ ، كالبطيخة المهترئة ، وتحيلان أصباغ البودرة والحمرة التي تكسوه . أهما تقطران من هذه الأجفان المطبقة أم هما نزف البطيخة المهترئة ؟ وتصل الدمعتان إلى طرفَي الفم فتقفان على شعرات من هنا ومن هنا نافرة ، محدّدة كسياج الشوك . « لا بدّ أن روز انقطعت عن نتفها منذ شهر » . ورمزي قاعد مكانه ، قد أثاره المشهد ، خصوصاً حينما كرّت الدموع وخرقت السياج وأخذت المرأة تلقطها بلسانها . « تشرب دموعها » . فليدعها تسكر بخمرة الندم . وقام . ولكنّها مدّت يدها وأمسكت بكمّه تناشده البقاء .

– أريد أن تساعدني على كتابة وصيّتي . سأكتب وصيّتي .

– شغل كاتب العدل .

وأدار ظهره .

– أُستاذ رمزي ! أُستاذ رمزي !

وأجهشت . تبوح له بشيء عظيم . تحبّه كابنها ، تقول . سيرى بنفسه أنها تحبّه كابنها . شرط أن لا يتركها وحدها . أن يأتي بورقة وقلم ويكتب . تحب كتاباته .

ومضت ساعة ورمزي على كرسيّه بجانب السرير يكتب :

لا يكتب شيئاً ممّا تقوله . يكتب : « الملك لله ! الملك لله ! » عشرين سطراً . خمسين . مئة سطر ! تماماً كالقصاص في المدرسة . المئة سطر يكتبها بالنيابة عن روز لأنها تجهل الكتابة . ولا يسمع شيئاً ممّا تقوله وتكرّره وتؤكّده . كانت تريد أن توصي بالبيت لزنّوب ؟ حسن . جداً حسن . أين زنّوب الآن ؟

ماذا ؟ مار منصور دي پول ! توصين بالبيت لجمعية مار منصور دي پول ؟ ولكن يجب أن يقبل مار منصور عليه السلام الوصيّة . سأقنع لك

وكلاءه . رئيس الجمعية وأعضاءها الموقّرين ... ولكن ، بالله عليك يا ست روز ، من أين جاءتك هذه الفكرة العظيمة ؟ أقسم بالله إنك امرأة عبقرية . ومواهبك وإلهاماتك لا تنتهي .

تعرفين يا ست روز أيّ شيء اكتشفتِ ؟ أي أعجوبة هبطت من السماء عليك ؟ مَن قال إن زمن الأعاجيب وَلّى ؟ سبحانه ، عزّ وجل ، قادر في كل لحظة أن يفجّر قدرته ويدفق نعمته على أحقر عباده .

بشحطة قلم يا ست روز ، بشحطة قلم — وأنا سأكون الشاهد — سترتفعين من البانسيون إلى البانتيون ...

— بعد عمر طويل . بعد عمر طويل يا ست روز .

— الملك لله ! يا أستاذ رمزي .

أتقرأ ما يكتب ؟ ويبتعد مسوّياً جلسته . ثم يرفع حاجبيه إلى السقف ويده ماضية على الورقة : « الملك لله . الملك لله ... » ولم ينتبه إلا على روز وقد جاءتها نوبة جديدة ، فانحنى ، وهي تومئ الى علبة الحبوب . لا هذه بل تلك . الأولى للنقرس . الثانية ، العلبة البيضاء الصغيرة ، هنا بجانب القنينة ، للذبحة . وهمّت بالإشارة فتراخت ذراعها على حافة السرير . ناولها الحبّة ، فبصقتها ولوت شفتها السفلى . فكمش من العلبة حفنة وألقمها إياها فانتفضت تجأر :

— ليتمجّد اسمك يا الله !

وارتفع رأسها ثم وقع مرّة واحدة على المخدّة .

كان يريد أن يضحك . مَن قال إن عزرائيل لا يحب المزاح ؟ لا ، بل يريد أن يرثي . في حياته لم يعمل رثاء لأحد . هذا وقته :

« الملك لله . ليتمجد اسمك يا الله !

وليتمجد اسمكِ يا ست المالكين !

ولكن بأي اسم أناديك ؟ فقد تعدّدت أسماؤك الحسنى !

على الباب مدام خوري .

وفي اللاهوت روز . وفي الناسوت زهور .

وفي كلا الناسوت واللاهوت على صورته ومثاله صنعك ، ومن أجل مجده العظيم اصطفاك .

إلى بطرس سلّم مفاتيح السماء التي – بين هلالين – لا يدخلها أحد . أنتِ ، وضع بين يديك مفاتيح الأرض ، وكلّنا فيها مستأجرون .

من فضلك ، أنت أقرب إليه منّا ، أسمعك تخاطبينه في هذه المدّة طول النهار ، والمخابرات بينكما لا تنقطع في الليل . ومن أعماق أوجاعك التي يجرّبك بها كما يجرّب كل خائفيه تناجينه بأعذبِ الألحان . النقرس ، الذبحة الصدرية ، والآتي أعظم . الله كريم ومراحمه لا تنتهي .

قولي له : المستأجرون مستاؤون .

واسأليه هل رأى وسمع على التلفزيون ، أمس ، أمس بالذات الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة عشرة . واسأليه هل انتظر خمس دقائق وأكثر العطل الفني . أي عطل فني ؟ كان الجماعة ينتظرون تشريف الوطني الكبير والسياسي الخطير حتى يصل إلى ركن « مع رجالات البلاد في سبيل مستقبل أفضل » . البلاد كلّها رأت وسمعت السياسي الخطير والوطني الكبير يبدي رأيه في مشكلة الإيجار – الإيجار مشكلة يا ست روز ، أنت سيّدة العارفين – رفع ذراعيه وهتف لا فُضّ فوه :

– الحمدُ لله وُلدت مستأجراً ، وأعيش مستأجراً ، وأموت مستأجراً !

أنا أول من صفّق له . عفارم ! براڤو ! براڤو ! ليس من الضروري أن تخرج الحكمة دائماً من أفواه المجانين . كذلك الحقيقة كثيراً ما يطيب لها ان تطلع على أفواه الكذابين . أمّا أن يكون صاحبنا قد كذب فعلى الأقل بحمد الله . على أي شيء الحمد والشكران ؟ المسكن رديء . والإيجار فاحش . والإدارة سيئة .

تماماً كما في بيتك يا زهّور . الدنيا كلّها مثل بيت جحا .

صحيح أنك كنت عازمة – الحيّ كلّه يعرف – على بناء بيت جديد .

عمارة عصرية .

إطوي خرائطك يا ست روز !

إطوي خرائطك وقولي لأستاذك الكبير ، نائبنا العتيد ، البلك بالرغم منه ، أكرم الجردي الذي يريد أن يبني لنا دنيا عصرية أن يطوي خرائطه هو الآخر .

تغيّرون لنا ماذا في عماراتكم الجديدة ؟

المهندسون كذّابون . أنت قلتها .

وغشّاشون . يشارطونك على موادّ من الجنس العال العال ويضعون أردأها .

الشرف والناموس ، الحقّ والعدالة ، المحبة والرحمة ، حتى العافية — كلّها مقالع في الغيوم . حجار بيوتنا ، وعماراتنا مهما شمخت ، كلّها من مقلع وسخ موحل ، هو مقلع الشرور والدناءات ، ومرصّعة ترصيعاً بالعاهات في أبداننا ، ونفوسنا ، ومنها كلّها تفوح رائحة الدعارة .

•

ماذا ؟ توصين لي أنا أيضاً !

توصين لي بالتكسيات الثلاثة !

هاتي لأبوس يديك الاثنتين يا ست روز . ماذا عملت لكي أستحقّ أن أدخل تحت سقف بيتك وأرث عرق بدنك الطاهر ؟ وتريدين أن أكتبه بيدي ؟ بعد موتك ، طبعاً بعد موتك . توصين أيضاً ألاّ أبيعها ؟ تجارة رابحة ؟ ربّما ، ربّما ، لا شكّ ، لا شكّ . ولكن ، صدّقيني ، أنا لا أعرف من التكسيات إلا ركوبها . سأرى .

موتي أولاً وسأرى .

ولكن هل أضحك ؟ الموت شيء جليل . يجب أن أسكت وأن أخفض رأسي لجلاله كما يفعل الأوادم . كما كانوا يفعلون منذ عرفوا الحيـــاة والموت . لا يا ست روز ، أنا لا أضحك . وحياتك أنا لا أضحك لموتك .

تريدين حبّة أخرى؟ خذي واسمعي .

إسمعي يا ست روز وعي .

عندي ما أملكه أنا أيضاً – غير تكسياتك وقبلها . كلّنا مستأجرون وكلّنا مالكون .

هذه اللافتة المعلّقة على بلكونك «غرف للإيجار» نحن كلّنا نرفع أكبر منها ، ونمشي في الأسواق حاملينها فوق رؤوسنا أو معلّقينها برقابنا . أحياناً من الأمام وأحياناً من الوراء . عجيب كيف لا يراها الناس مع أنها بالخط الثلثي العريض .

ماذا نملك للإيجار؟ – أرواحنا . أغلى من الأحجار المنحوتة ، على كل حال ، والباطون المسلح .

نبدأ من البداية .

أنت يا ست روز – نحن متّفقان – أجّرت روحك للشيطان . أفهم جيداً أن قرونه لم تعد اليوم تعجبك ولا ذَنَبه يُغريك بشيء ، لذلك تنادين الله آناء الليل وأطراف النهار أن يطرده ويخزيه .

زنّوب ، حبيبة قلبك ، أجّرت روحها الطريّة الناعمة لأسوارة من تنك . تميمه أجّرتها للمثل العليا . تعرفين ما المثل العليا؟ كيف أترجم لك ما تقول النجوم؟ ما تقول النجمة التي لم يصل نورها بعد إلى الأرض؟ شرح طويل . تلعنين زمناً لم يعلّموك فيه القراءة والكتابة؟ الحقّ معك . المثل العليا لا تستأجر إلا عند المثقّفين . لا تندمي ، ما خسرتِ شيئاً . زبونة مفلسة . برمكية بالكلام ، وعند الدفع تهرب .

جابر أذكى من أخته . أجّر روحه للشرف والطرف معاً ويقبض من الاثنين . أُوديت أجّرتها لبكوية أكرم الجردي وقبضت منه كل أنواع العملة ما عدا البكوية . صحّت نبوءتك يا روز . الأستاذ الكبير نفسه ، المحامي اللامع ، ونائبنا العتيد يؤجّر روحه للوطن – يحيَ الوطن ! يسقط شوكت بك اليغموري ! ويعيش أكرم الجردي ، البك بالرغم منه !

يعيش ! يا ! يا ! يعيش !

في سبيل مستقبل أفضل . في سبيل عمارة جديدة يرفعها كالمنارة !

قلت لك : قولي له يطوي خرائطه . لن يتغير شيء .

الحقيقة أنا أقولها لك عارية . أطرحها هنا على سريرك عارية . ما قلتُه عنه في الجريدة ؟ كذب ! حمرة وبودرة يا ست روز . فساتين ! فساتين أخلعها على الحقائق . كل يوم موضة . السياسة أعلق النساء بالموضة .

أجل ، أجل – إسمعي يا ست روز ، سأعمل لك خطاباً أعارض فيه خطب نائبنا العتيد – أجل ، يا سيدي ، فلاّحو البقاع سيأكلون في صحون نظيفة . تعرفين لماذا ؟ المسألة يا ست روز – إسمحي لي هنا أن أضحك – في غاية البساطة . الذبّان الذي يحوم على الصحون يكون قد انتقل إلى الرؤوس . المرتع أخصب .

ألا تسمعين الطنين من الخليج إلى المحيط ؟ يعيش ! يعيش ! يسقط ! يسقط !

المسألة ، يا ست روز ، مسألة انتقال من الطابق التحتاني إلى الطابق الفوقاني . أو بالعكس .

مسألة تأليف وتلحين .

مسألة أوزان وقواف .

مصائبنا كلّها من الأوزان والقوافي . نحن نفكّر على أوزان الخليليين فينا ، وبقوافيهم أو أقفيتهم ! الأمر واحد لغوياً ورحمة سيبويه ! ما لك يا ست روز ؟ إضحكي معي شوي . شوي . شوي .

بالمناسبة ، خذي هذه النكتة :

مرّة كتبت في الجريدة مقالاً كلّه من عائلة « شوي » وقلت لغيري من أصحاب الأقلام : ما المانع أن نزوّج بنات أفكارنا لهذه العائلة ؟ نصاهرها ما دمنا نعيش معها في بيتنا . ألا تحبّينها : شوي ؟ من ألطف ما خلق الله . شوي شوي ! فقامت عليّ القيامة : دسّاس ! عميل

أجنبي ! خائن الملّة والدين ! مع أن مقالي كان في موضوع شروق الشمس ، ومنه تطرّقت إلى نهد تلميذة كانت تمرّ ، هنا ، تحت شبّاكي وأراه ينمو في صدرها ويطلّ .

أين العمالة الأجنبية يا ناس ؟

في الغد اضطُررت إلى الشرح والتفسير . قلت : يا جماعة ، شوي هي صيغة تصغير . وللتحبّب لا للتحقير . أصلها بالعربي الفصيح « شويء » . إسألوا سيبويه ونفطويه والفيروزبادي . سألوهم ثم عادوا إليّ يريدون أن أستعمل لهم شويء بالقوّة . يا جماعة الخير ! قلت لهم – بالعربي الفصيح دائماً – لا أُحب شويء . أُحب شوي . أهون على لساني ، ألذّ في سمعي . فاتّهموني بالانحراف ...

الخلاصة يا ست روز ، أين كنا ؟

أنا ! – أنا أيضاً أؤجّر روحي .

أؤجّرها للكلمات . كلمات ! كلمات ! بيني وبين بعضها عقود مثل تلك المسجّلة عند كاتب العدل . ولكن أكثرها تروح وتجيء هكذا دون أي اتفاق سابق بيننا .

مغتصبة ؟ ربّما .

متطفّلة ؟ ما في ذلك ريب .

تدفع أو لا تدفع ، ليس هذا المهمّ . المهمّ أنني لا أطيق العيش بدونها.

ومثل جابر ، الذي يسألك دائماً عن نساء جديدة ، أنا أسعى دائماً وراء كلمات جديدة . الكلمات الجديدة ، يا ست روز ، لها لذّة النساء الجديدة . إطلالتها على الباب . إشراقة وجهها . حياؤها . ملمسها . رائحتها . الكلمات أيضاً لها رائحة وملمس وفيها سرّ . كل كلمة ككل امرأة لها سرّها . ماذا تخبّئ في عبّها ؟

أجل ، الكلمات بنات يا ست روز . هل قالوها قبلي ؟ وأنا أُفضّل الأبكار منها حتى في الكلام على المومسات .

تحبّين كتاباتي يا ست روز ؟ تميمه أيضاً أحبتها .

تميمه أحبت كلماتي . أحبتني أنا بالغلط .

خلطت بيني وبين كلماتي . لأن كلماتي ليست أنا . ليست أنا الذي يدرج بين الناس ، على كل حال . وحينما اتّضحت لها الحقيقة تركتني .

الكلمات نفسها ، القصائد التي عملتها لتميمه عملتها لعشرات قبلها وأعملها الآن لغيرها . أكذب ؟ المسألة ليست مسألة كذب وصدق . ألم أقل لك إننا كلّنا نؤجّر أرواحنا ؟ – تماماً كما تفعلين يا ست روز . لم تطلبي من واحد من المستأجرين سجلّه العدلي . وتهاودت مع كل واحد بالأسعار .

الحب بيع .

بيع باتّ . ونحن لا نرضى أن نبيع أرواحنا . متعلّقون بها – كتعلّق جدي بجلّ التوت الذي ورثه عن أبيه عن جدّه . يزرعه إلى الآن تفّاحاً . يترك التفّاح يهترئ على أُمه كل سنة ، لا يريد أن يبيع بخسارة . هكذا نحن ، يهترئ كل شيء في أرواحنا ، ويملأ خياشيمنا النتن ، ولا نبيع .

وحده روميو باع روحه لجولييت وباعته روحها .

وحدهم الملهَمون المؤمنون يبيعون أرواحهم ، لا يؤجّرونها .

ليس لهم جلَدك ، يا ست روز ، في التعاطي مع المستأجرين ومعالجة مشاكلهم .

سيّد من باع روحه المسيح .

والأنبياء كلّهم والشهداء ، سواء من مات منهم على الصليب أو من مات على الخازوق .

والفدائيون .

الفدائيون طبعاً . الفدائيون من الجملة . ولكن بشرط أن يموتوا . أن ينفّذوا عقد البيع . أن لا يكونوا قد أجّروا أرواحهم إيجاراً . الإيجار على أنواعه ، مع احترامي لك يا ست روز ، قذر . قذر . قذر .

عدنا إلى الشخير ؟

على مهلك يا ست روز . على مهلك يا زهّورة أبيك القدّيس ! يا مدام خوري ! يا مدام خوري ! نوبة وتروح مثلما جاءت... زنّوب ؟ الله يرحم زنّوب ! ويغفر لجابر وجلال الكرش !

نسينا جلال الكرش . يؤجّر روحه لمن؟ لنقل إن الكرش يؤجّر روحه للجلال ، أو إن الجلال يوجّر روحه للكرش . بعض العقود مكتوبة بخط مغربي ربّك لا يفكّه .

الخلاصة كلّنا ، يا ستي ، نؤجّر أرواحنا . نؤجّرها لأي شيء . لكل ما هبّ ودبّ . للحشرات والديدان نؤجّرها كما نؤجّرها للوحوش .

لعلق الطمع والجشع نؤجّرها .

لعقارب الحسد والبغض والنميمة .

لثعالب الاحتيال .

لضفادع التعصب المنقنقة وجيزان التقاليد .

لذئاب الغدر ونهش الأموال والأعراض .

لعقبان المبادئ والعقائد تخبط بأجنحتها الحيطان وتثقب السقوف بمناقيرها !...

وعلى قاعدة « في بيت أبي أمكنة كثيرة » نحشرها بعضها فوق بعض، فيدبّ بينها الخلاف ويعلو الصراخ . ومن هنـــا هذا الضجيج الذي يملأ الأرض .

أحياناً ، يا ست روز ، تفرغ أرواحنا ، كغرف بيتك .

نعرضها على الإنس والجنّ فلا يستأجرها أحد . وربّما تعبنا من ترتيبها وتنظيفها ــ من إعدادها للزبائن ــ فيغطّيها الغبار ويعشّش فيها العنكبوت . وقد نترك أبوابها مشرعة لعابري السبيل والمتطفّلين ، وشبابيكها

مفتوحة للصوص .

كما جرى لنا ، يا ست روز ، أتذكرين ؟ كما جرى لك ولي بالذات .

كنتِ في عزّ كهولتك — حوالي الأربعين — وكنتُ في العشرين . المساء ، والدنيا حرّ ، ونحن وحدنا ، وأنت تحكين لي قصّة حياتك . تضجّرتُ . قمت وتركتك . وصلت إلى الباب ثم عدت . كان قد مضى عليّ سنة عندك لم أنظر إليك مرّة بمعنى ولا نظرت إليّ . لماذا عدت ؟ لا أعلم . عدت . ولم أنسَ أن أُغلق الباب من الداخل . وبدون سؤال أو جواب طرحتك على السرير ، هنا .

أخذتك بلا طعم واستسلمت أنت بلا سبب .

قمنا بعد ذلك ساكتَين كأن شيئاً لم يكن .

وما نزال ساكتين منذ سبع سنين .

في الصباح سلّمتُ وسلّمتِ ولم يكن في أعيننا شيء . عادت أعيننا أبواباً مشرعة وشبابيك مفتوحة .

طبعاً ، سبق لي ولك — ولحق أيضاً كما أعتقد — حوادث من هذا النوع .

ماذا ؟ « طز ! » أنت تقولين ؟

لست من رأيك ، ولكني لا أمنعك من إبدائه . أطلقيه حرّاً ولا عليك . وإذا كنت غير قادرة عليه من فوق فأي حرج أن يكون من تحت ؟ فأنا مثلك أكره الاستعارات .

جدّي ، الله يرحم موتاك ، كان عنوان الصراحة في هذا الصدد . إذا جاءه ما يجيئك لم يزمّ ولم يغتمّ . بلى ، يقوم إذا كان قاعداً بيننا ويدنو من الشبّاك ، وهناك بكل وقار يطلقه على مداه ، ثم يعود بالحمدلة ثلاثاً .

كان رجلاً شجاعاً .

وفي منتهى النزاكة . لا ينسى أن يفتح الشبّاك على مصراعيه . هل

تأذنين ، يا ست روز ، أن أفتح ؟

ها ! خيَ ! كما كان يهتف جدّي . خيَ على الفرَجين ! دائماً افتحي الشبابيك يا ست روز . نصيحة الطبيب ونصيحتي أنا خصوصاً . إفتحي الشبابيك والأبواب ولا تدعي منفذاً مغلقاً ، وأطلّي على البلكونَ وبكل قوّتك أطلقي ما عندك !

هذا وغيره من آرائك ...

نداءاتك ، وأغانيك ، وشتائمك ، أطلقيها كلّها في الهواء .

صدّقيني يا ست روز . الفلاسفة ، الكتّاب ، الشعراء ، العظماء كلّهم ، صانعو التاريخ يقلّدون جدّي . كلّهم ، كلّهم يعملون بآرائهم هكذا . بنات أفكارهم يطلقونها من الشرفات العالية ومن رؤوس السطوح متنافسين في الدويّ حتى ينشقّوا أشداقاً وأقفية .

يعلّمون الناس ويهدونهم إلى الصواب والفلاح ؟

خرط .

يطلبون الفرج من أشياء لو بقيت في أجوافهم لفطسوا .

لا تؤاخذيني يا ست روز ، أنت فتحت الحديث . تفضّلي أغلقيه ، وتأذنين أن أبصق على هذه الدنيا من الشبّاك قبل أن أُغلقه .

ماذا ؟ لم تكوني تنتظرين أن تموتي هكذا !

كيف كنت تريدين أن تموتي ؟

مستأجرة أنت يا مدام خوري . كلّنا مستأجرون ، قلت لك ، والملك لله ، نحن متّفقان .

المالك سعيداً لا يكتفي بالمبلغ المرقوم قهراً وعذاباً ، أمراضاً وهموماً ، ويتماً وثكلاً وأرقاً وتحرّقاً ودموعاً إلى سائر الأقساط التي يقبضها منّا كل يوم بل كل ثانية ، فضلاً عن العاهات الأيّوبية الّتي يشوّه بها صورته ومثاله فينا .

يطردنا فوق ذلك بدون ذنب .

بدون سبب .

علينا أن نُخلي المأجور في الوقت الذي يشاء . غالباً بلا سابق إنذار . يفاجئنا بطريقة أقل ما يقال فيها إنها ليست على شيء من اللياقة . يضع يديه على خوانيقنا ويصرخ : « برّا » !

ولا يفلتنا إلا وقد قبض منّا القسط الأخير : أرواحنا .

أنا معك يا ست روز . أنا أحتجّ على هذا التصرّف .

العجيب أن المستأجرين كلّهم ، على تعاقب أفواجهم منذ الخليقة إلى اليوم ، يحتجّون مثلك ، يعني بالبكاء والدعاء والصلوات وأنواع الخضوع التي ليس فيها أي شجاعة .

لذلك أنا أعظّم المنتحرين وأدعو إلى الانتحار .

ألانتحار هو الحرية الوحيدة . والمنتحرون هم الأحرار في أرض مملوءة بالعبيد .

هم وحدهم الشجعان النبلاء الذين يموتون بوقار .

أليس الموت انتحاراً في ميعة الشباب ، أو براءة الطفولة ، خيراً من الموت جوعاً على الطرقات ، أو قتلاً في ساحة الحروب ، أو تحت دواليب تكسي ، أو بالتيفوس مثلاً أو ريح السداد ، أو على فراش النقرس والذبحة الصدرية مع شيخوخة تلعن نور الصباح ؟

أسامعة أنت يا ست روز ؟

إسمعي يا ست روز كلمة . كلمة واحدة بعد .

بالأمس جاءني كاتب من المبتدئين يسألني : « لو لم تكن كاتباً فماذا كنت تودّ أن تكون ؟ »

صرفته بقفا يدي .

سأستدعيه الآن . أنا ذاهب إلى التلفون ، بإذنك ، أطلب منه أن يحضر حـــالاً – يا صاحبي ، مصيبتي أنني لم يكن بإمكاني أن أكون

إلا أنا . ماذا كنت أودّ أن أكون ؟

زفتاً وكبريتاً ، هواء أصفر ، بركاناً ، قنبلة ذرّية تنسف الكون ! ولتعد روح الله ترفّ على وجه الغمر .

وخرج في الليل ...

٣

بناء على إفادة روز خوري طلب المحقّق العدلي استدعاء جلال الكرش بصفته السمسار الذي تولّى جلب البنت من عكّار . فأعطى الكرش اسم أبيها واسم ضيعته – « أحمد الإبراهيم من جرد الديب » – وشهد بما سمعه في المواجهة بينها وبين جابر نصّور في غرفة الست روز ، وأعطى اسم الاستاذ رمزي رعد شاهداً .

وكان جابر قد نجا بنفسه تحت جنح الظلام وبما تمكّن من حمله من أمتعة . لم تعثر الشرطة في غرفته إلا على حقيبة فيها بعض الألبسة مع كدسة صور نسائية – أرتيستات في الغالب – ومفكّرة جيب . فانطلقوا يبحثون عنه في مظانّه .

توجّه فريق منهم إلى المهديّه فقلبوا البيت رأساً على عقب وروّعوا الأم المشلولة وأُختها وأُم علّوش .

وقصد فريق آخر حيث تسكن شقيقته جنب شارع عبد العزيز وسألوها عنه – لم ترَ تميمه نصّور أخاها منذ رجوعه من غينيا إلا مرّة واحدة ولدقائق معدودة ، وذلك في اليوم التالي لوصوله ، في فندق « بالم بيتش » ، بناء على إلحاح أُمها وبحضورها ، ولم يقع نظرها عليه بعد ذلك ولم يطأ بقدميه الشقّة .

وكانت ماري أبو خليل إلى جانبها ، فأمّنت على هذا الكلام .

وما كاد الشرطة ينصرفون حتى عادت المشادّة بين الصديقتين ، وعادت تميمه تبسط الجرائد على سريرها مفتوحة على الصفحات التي فيها الخبر ، تقرأه هنا وهناك وههنا ولا تصدّق . وماري تواسيها :

— يجب أن تعملي ممرضة لشهر وتضعي يدك على عذاب البشر وشقائهم . أن تمرّغي يديك الاثنتين بالدم والقيح ، وتُطبقي عيون الموتى . صبايا كقلب النهار وشباناً وأطفالاً ...

وتنحني ماري وترفع عن السرير هذه الجرائد . هذه الأكفان التي تؤذيها . أليست مسؤولة ، هي أيضاً ، بعض الشيء عن المصير الذي صارت اليه زنّوب ؟

كانت ماري ، في الواقع ، تترجم ما تقرأه في نظرات تميمه . ثم تطرد هذه الأفكار وتقول عالياً :

— زنّوب استراحت .

— كما ستستريح أُمي في المقبرة قبل أن ترى تامر على عتبة البيت .

ويعظم الأمر على تميمه . ومرّة أُخرى تتراءى لها الطريدة البريئة تلوص تحت الرعب ، حاملة عارها ، لاهثة ، مرتدّة بين بيروت وصيدا وصيدا وبيروت ، من حائط إلى حائط تضرب يأسها ، ومن الحيطان الى صخور الشاطئ ، فراشاً غطاؤه غربان البرّ وحيتان البحر . حتى انتهى بها المطاف إليها — هي أُخت الفاعل — لجأت إلى حضنها فنفضته . تخلّت عنها . أسلمتها وغسلت يديها .

إنها إذن جبانة ! حقيرة ! وشريكة في الجريمة !

وتثب من سريرها تريد الذهاب إلى الكرنتينا لترى زنّوب . إلى ساحة قصر العدل لتصرخ بقضاة الأرض . إلى المواخير حيث جابر . تذبحه ! يذبحها !

ولكن تميمه لا تنسى أن اليوم اجتماع الأصحاب وهو يستلزم حضورها، فلجنة الحزب التأسيسية عهدت إليها بوظيفة المقرّرة ، فيما عيّنت هاني الراعي أميناً عاماً ، وقاسم الهلال مستشاراً .

ستحضره .

أيّ بأس عليها من الحضور مع عشرة يتكلّمون بالأحزاب والسياسة .

٤

افتتح الأمين العام الاجتماع .

كان أول المتكلمين قاسم الهلال في جمع التبرّعات الكاذبة للفدائيين . أفاد انه لم يتمكّن من تقديم الشكوى إلا أمس بعد ان استوفى لها أسانيدها ، فحصل من أربعة أشخاص على ورقات من الدفتر ذاته باعهم إياها حسين القمّوعي ، وقدّم أسماء هؤلاء الأشخاص إلى الشرطة .

— مستعدّون أن يشهدوا . يظهر أن هناك عصابة ليس القمّوعي إلا واحداً منها . الشرطة ستمضي في التحقيق . وستتّصل الحكومة بقيادة الفدائيين ، فالقيادة واعية من هذه الناحية وستضرب ولا شكّ على أيدي العابثين بسمعة الفداء .

كانت الكلمة التالية لأحمد عدنان ، قال :

— أُحب أن أعرف ما موقف الأصحاب ممّا ينتظرنا غداً . وما علينا أن نعمل في أوساط الطلاب وغيرها . الحالة متوتّرة . والمعارك مستمرّة في منطقة الجنوب وقد سقط للفدائيين شهيد جديد ، عزيز اليافاوي الملقّب بأبي الهول ، ويستعدّ إخوانه لنقله إلى بيروت ودفنه في مقبرة الباشورة في مأتم شعبي ، غداً الساعة الحادية عشرة .

إخترق الخبر قلب تميمه . همّت بأن تطلب الكلام ، أن تسأل عن

تفاصيل الحادث ، والمناقشة ماضية :

— نخشى أن يتحوّل مأتم أبي الهول إلى ما تحوّل إليه سلفه قبل شهر من اشتباك دموي بيننا وبين إخواننا الفلسطينيين . إسرائيل تتفرّج على فصول الرواية المضحكة المبكية وتشمت .

— هل من الضروري أن تقوم العراضات في ساحة البرج ويُهدر الرصاص في سماء بيروت وصيدا وطرابلس ، أو يصوّب تحدّياً واستفزازاً إلى الأهالي الآمنين ؟

— لماذا لا يُدفن القتلى حيث يقعون ؟ ليس لعائلة اليافاوي ، فيما أظن ، مدفن خاص في مقبرة الباشورة .

كل شيء ولا هذا ! وألقت تميمه القلم من يدها محتجّة . لقد ذهب قاسم الهلال بعيداً وتجاوز الحد . وانبرت تقصّ عليهم مَن هو أبو الهول — أبو هولها — وعيناها تتحيّران بين الشرر والدمع ، قالت :

— القتيل فدائي بكل معنى الكلمة . وستستريح عظامه في الباشورة أو أي مكان من تراب لبنان .

فتلقّتها لميا شارون :

— أُوافق على ما أبدته الآنسة تميمه . وأظن أنني أعبّر عن رأيها ورأي الأصحاب معاً إذا قلت إن الرجل لن يرضى ، وهو أبو الهول ، عن أي ضوضاء تثار على قبره .

سبقتها لميا إلى رثاء أبي الهول كأبلغ ما كانت تحب رثاءه . فرفعت إليها عينين شاكرتين .

وردّ هاني المناقشين إلى صلب الموضوع .

— ما يكون موقفنا من المأتم ؟

بعد تقليب الأمر أجمعوا على السعي لإحباط الدعوة إلى إضراب الطلاب والاكتفاء بوفد من اتحاد الرابطات يشترك في تشييع الجثمان .

تميمه ستكون في المأتم ، انتخبها الاتحاد في الوفد أم لم ينتخبها . ستكون

في الطليعة هي وأبو شرشور .

– الأخبار من الجنوب مقلقة . إعتداءات إسرائيل المتكرّرة ، ضعف الدفاع الوطني ، نزوح أبناء القرى . والأهم من ذلك كلّه اشتباك بعض الفدائيين مع أفراد من الجيش اللبناني وأفراد من الأهالي . يشكو الجيش والأهالي من خروج الفدائيين على الاتفاق ، ففريق يعسكرون في القرى بدلاً من التزام المواقع النائية المعيّنة لهم . ومنهم من يأتي أعمالاً مخالفة .

– خطفوا رئيس مخفر للدرك . وأجبروا أصحاب بيوت على إخلائها لهم . واعتدوا على مختار بداعي أنه ضدّ الفدائيين .

– مهمّة الدفاع عن لبنان يجب أن توكل إلى اللبنانيين وحدهم . هذا أمر يتعلّق بالكرامة وبالسيادة .

– الفدائيون ثلاثة : فدائي فدائي ، وفدائي نصف فدائي ، وفدائي لا فدائي . الأولُ هو المقاتل في أرضه، في ساحة فلسطين نفسها ، في إسرائيل . والثاني هو الذي يدنو من الحدود فيطلق رصاصة ثم ينسحب إلى مخيّمه حيث الأمان . أمّا الثالث ، وهو الفدائي الذي لا يستحقّ اسمه، فالمتبختر بثوبه المرقّط وكليشنكوفه في الشوارع والساحات .

– الأهم من تصنيف الفدائيين ، مع اعترافي بصحّة هذا التصنيف ، هو ضرورة إيضاح الموقف الغامض بين لبنان والحركة الفلسطينية . أقول الحركة لأنها لم تبلغ بعد مستوى الثورة ولا حتى المقاومة بمعناها الشامل . فالطرفان محتاجان إلى المصارحة . المصارحة التامّة .

قال هاني :

– لماذا نخاف من الحقيقة ؟ بين لبنان والحركة الفلسطينية زواج نفاق . هي تدّعي العفّة ، وهو يزعم حبّها والتفاني من أجلها . زواج النفاق يؤدي حتماً إلى هذه النتائج المأسوية .

لماذا قال هاني هذا وهو ينظر إليها – اليها وحدها – بين المجتمعين ؟ كانت تنقل كلماته على السجلّ وتحسّ عينيه مغروستين فيها . ترى

هل تبتسمان ، عيناه ، ابتسامتهما أم يكدّرهما زغل ؟

وكيف اختار هذا التشبيه وجاء به الآن ليصدعها ، على غير علم . « طبعاً على غير علم » ، هذا الصدع الصاعق !

ماذا يقولون عن مستوى الثورة ؟... عن الحكم في لبنــان... عن السيادة الوطنية... عن سياسة الحسم وسياسة التسويات ؟... كل ذلك يختلط عليها ، ينزلق من سمعها إلى أصابعها إلى الورق انزلاقاً . كل ما كانت تفكّر فيه ، كل ما كانت تشتهيه ، هو أن ينفضّ هذا الاجتماع . أن يذهب الأصحاب وتبقى وحدها مع هاني .

لقد عزمت أمراً وستقدم عليه قبل أن يطلع الصباح .

« لن يكون زواجنا زواج نفاق » .

هكذا ستقول له . وستعترف له بكل شيء . أجل بكل شيء ، بكل هدوء ، هنا في بيته بعد الاجتماع ، على السطح ، تحت النجوم . « وأن تعلم منّي خير من أن تعلم من الناس . من حسين القمّوعي أو سواه . المصارحة ، المصارحة التامة . لن أتفاخر مثلك ، ليس من الضروري أن أتباهى كما تتباهون أنتم الرجال بعدد مغامراتكم وانتصاراتكم »...

– المطلوب من الآنسة تميمه أن لا تسجّل أقوالنا حرفياً . خلاصة عنها تكفي . فنحن لا نتكلّم للتاريخ وإنما نوضح بعض القضايا لأنفسنا .

كان قاسم الهلال هو الذي تلفّظ بذلك ، رأفة بتميمه على الأرجح ، وقد رآها منهمكة والقلم يكرّ بيدها على الورق . فابتسمت له . هل قالت له أيضاً « شكراً » ؟ لا تدري .

– الحركة الفلسطينية قامت أصلاً – كان لا بدّ أن تقوم – للمطالبة بحقّ هو أقدس الحقوق . الخروج على القوانين في بعض نشاطاتها وعلى الأعراف الدولية كخطف الطائرات ، ألا يطعن في أخلاقيتها ، في حقّها بمطالبتها بذلك الحقّ ؟

« أفضّل أن آتيك امرأة صادقة من أن آتيك عذراء كاذبة . مَن قطف

عذرتي ؟ أي أهمّية ؟ ولكن إذا لم يكن ذلك يعني شيئاً لي فربّما عنى الكثير لك . تريد أن تعرف من هو ؟ على كل حال لن أدعك تسألني . سأبادر من تلقاء نفسي وأقول لك اسمه – كيف أنظر إليه وأنا أتلفّظ بذلك الاسم ؟ لن أنظر . سأدير ظهري أنتظر ردّة الفعل منه » .

– أولئك الفتيان الذين يتأرجحون بين الحياة والموت في أعالي الجو ، وهؤلاء الصبايا اللواتي يقفن وراءهم مجهولات الاسم والقذائف في أيديهن ، كان بإمكانهم ان ينبطحوا على قارعات الشوارع باحثين في ظل القوانين عن التحرّر الغريزي ، أو في الأقل عن الزواج والأمان . ولكنّهم ، وقد أسلم الغدر والتآمر وطنهم ، وهدر حقوقهم وكراماتهم خلافاً لكل قانون ، وعجزت قوانين العالم وشرائع الأمم أن تردّ عليهم شيئاً من ذلك ، هؤلاء وأولئك كيف تريدون منهم أن يحترموا قانوناً ويقيموا وزناً لأخلاق السياسة وأعرافها ؟

« أجل رمزي رعد . لماذا تنظر إليّ هكذا ؟ في الزمان كانوا يرجمون الزواني . عندنا حتى اليوم يذبحونهنّ على العتبات . إذبحني ! أُفضّل الموت على أن أكون في عينك غير ما أنا – وإذا سألني هل سأنسى رمزي رعد؟ لا ! لا . لن يلفظ اسمه بشفتيه ، ولن يسألني مثل هذا السؤال . وإنّما أنا أطرحه بالنيابة عنه . وإذ ذاك فبماذا أُجيب ؟ »

– فَهْمُ بعض الأعمال التي يقوم بها فريق من الفدائيين المتطرّفين شيء ، والقبول بها شيء آخر . نحن في لبنان ، البلد الحضاري ، لا يمكننا القبول . ولا يمكننا التجاوز عن هذه الأعمال إذا حدثت في أرضنا أو في سماء وطننا .

« وإذا لم يدع لي فرصة للدخول في هذه التفاصيل؟ الأفضل أن يظلّ الأمر مجرّداً عن الشروح والتفاصيل . بكل بساطة سأقول له – وستبدأ لا بالجمل الرنّانة ... في الواقع كيف تبدأ؟ هكذا ، عفواً ، عفواً . بعد انصراف الأصحاب سيفتح لها ذراعيه هامّاً بتقبيلها – دعني أنا أُقبّلك .

أنت لا تقبّلني . دعني أخبرك أولاً من أنا ... أنا لا أريد أن أكون إلاّ كما أنا . كل الناس يريدون أن يكونوا ما يعتقد الناس أنهم . أنا أريد أن أكون كما اعتقد أنني . لأنني باعترافي لك أعترف لنفسي . وكلانا واحد . » وتخبره ... ستخبره بكل شيء وستغمره بالقبلات . ستغمره بقبلاتها كما لو كانت تلك المرّة الأخيرة في عمرها ...

٥

التكسي يقف في شارع عبد العزيز ، في فم الطريق – إياه .

وأشار حسين برأسه لجابر ، فنظر جابر إلى سيارة سوداء تلمع في الليل إلى الجانب الآخر من الشارع : الكريسلر تنتظر أكرم الجردي . هو الآن في الشقّة . كل مساء يأتي إلى الشقّة لا يخرم مواعيده .

« نقل الاستاذ الكبير أركان حربه من عند روز خوري لعند ماري أبو خليل ! المس ماري ، الممرضة المس ماري ، ابنة الكذا وكذا ! قوّادة ممرضة ! هكذا تكون القوّادات القانونيات ممرضات قانونيات وإلا فلا ! » . وفكّر جابر : روز لو أتقنت الكار كماري لانقضى مشكله في البيت مع زنّوب .

ولكن حسين كان منصبّاً باهتمامه على ما سيكون ، وكان قد زعم لجابر أن أُخته أُصيبت في غيابه بطعنة سكّين لخلاف بين رمزي رعد وآخر على حبّها .

– إذا لم تأخذها بالجرم المشهود اكشف تحت عينها اليمنى جهة الأذن ، تغطّي الشطب بالحمرة والبودرة ، واسألها من أين لكِ هذا ؟

هذا رقم ١ – لماذا لم يهجم عليه عند روز خوري ، فينزع نظارتيه ويُطلِع له عينيه خنقاً ؟

والثاني – ويتناول الصورة التي التقطها القمّوعي على الكورنيش . إنها هنا في جيبه مع رسالة « الصديق المخلص » . وثيقتان . ويحدّق إلى الصورة ويقلّبها على الضوء النافذ إلى السيارة من مصابيح الشارع . إنه يعرف أخته من ظهرها . يريد أن يتعرّف على الرقم ٢ من وجهه .

والثالث – أبو الكريسلر ، شبع من أوديت . وأقرّت أوديت أنها شبعت منه فجاء يأكل من لحم آل نصّور !

وينساب جسم أوديت ويتلوّى على السجادة تحت قدميه في محلّ خياطة الفساتين التي من لؤلؤ ومرجان . وتعنّ له السيكارة ، فينترها منه حسين ويفطسها .

وهمّ بالوثوب من التكسي فأمسكه الآخر من كوعه :

– إنتبه . سأنزل قبلك . أترك لك التكسي هُنا . وأنتظرك حيث اتّفقنا .

وترجّل حسين ومشى في الشارع ، فيما كان جابر يتحسّس سلاحَيه :

هنا في جيبه الأيمن مسدسه التسعة . محشواً .

وههنا في عبّه إلى الشمال الموس . مسنوناً .

ذبحاً بالموس من الوريد إلى الوريد . تلك هي التقاليد . ولن يخرج عليها مهما قال القمّوعي . المسدس للرجال ، إذا اعترض طريقه أحد من الرجال .

وتوقّف حسين وأدار بوجهه صوب التكسي . وأدار جابر بوجهه صوب حسين . كان لحسين خيال ينبسط في الشارع على طوله ، يتسلّق حائط البناية المقابلة حتى أعلاها ، لينعكس على أرض بور هناك وينبطح على اكداس تراكمت فيها ... وخيال ثانٍ عن يمينه وثالث عن اليسار ... خيالات ! خيالات ! القصير المتجمّع على نفسه هنا ، والمنداح إلى السماء هناك . أقزام وعمالقة تتوزّع في الليل . وتنتظر ... وتتراقص في عيني جابر نسخ حسين المحدقة به من كل صوب ، فيلهو بالنظر إليها والموازنة

بينها وبين حسين الواقف على المفرق .

« لماذا تنتظر يا حسين ؟ لكي يطمئنّ قلبك ؟ ولكنّك تعرف جابر يا حسين ! »

وإذا شيء مثل الكرة يقفز عرض الشارع من صوب إلى صوب ، فيجفل حسين ومعه العشرات من حسين المالئة الأرض والسماء . — جرذون مرق بين رجليه .

فتح جابر باب التكسي وترجّل . دخل في الطريق فانسلّ حسين وتوارى خلف البناية .

ونظر جابر حواليه . الطريق مقفر وله هو أيضاً خيال كبير . ربّما خيالات . ولكنّه لا ينظر إلا لهذا الذي يسبقه . كأن خياله يدلّه على الطريق . يعطف به إلى اليمين . يتركه في السلّم . في قفص السلّم ضوء واحد يلقي خيال الصاعد إلى الوراء . فجابر يصعد وحده الآن . مسرعاً . أي حاجة إلى العجلة ؟ وتوقّف يلهث . سمع وقع خطى ، فتشاغل بإشعال سيكارة . الواقع أنه يشتهي سيكارة . ولكنّ يديه ترتجفان وتقع منه علبة الكبريت . هل يلتقطها ؟ سبقه الرجل إلى التقاطها وإذا هما وجهاً لوجه :

— حضرتك تسأل عن أحد في البناية ؟

— أختي . في الطابق الثالث .

— جيران الشقّة . أيهما : المس ماري ؟

— لا . تميمه نصّور .

وأحس جابر بغلطته فبادر وهو يفتّش بجيوبه :

— نسيت ... نسيت في التكسي ...

وهرول متدحرجاً على الدرج . والرجل يتأمّله . ثم هزّ برأسه واستأنف الصعود .

أقنع جابر نصّور صاحبه حسين القمّوعي بأن المسألة غير ميسّرة ،

وأخبره بخبر الرجل ، قال :

– ما لنا والمشاكل؟ نأتي مع الفجر والناس كلّهم نيام ونأخذها على غفلة .

حسين القمّوعي لم يقتنع . وكارهاً قال لسائق التكسي :

– إرجع .

فرجع بهما التكسي إلى حيث كانا نهارهما .

كان حسين القموعي قد تكفّل بجابر نصّور فأخفاه عن الأنظار . ولمّا دخل الشرطة إلى « بانسيون ريفاج » في حيّ الأونيسكو حيث يسكن حسين قالت لهم صاحبته إن حسين لم ينم البارحة في البانسيون وإنها لا تعرف شخصاً باسم جابر نصّور ، ولكنّ شاباً أسمر اللون ، قصير القامة ، يرتدي دائماً صدرية مفتوحة ، كان يزوره أحياناً ويخرجان معاً . « لعلّه جابر نصّور » .

الليل قضياه في محششة . والنهار عند أنطوانيت في شارع المتنبي . مومس ، حسين عشيقها وراعيها ، وهي تنفق عليه منذ سنين ، منذ نزوله من المهديّه . جابر كان يسمّي حسين « زوج الملكة » ويتمنى لنفسه – يائساً – مثل ذلك . حسين قال له إن المكان هو خير المخابئ في النهار لخلوّه من الرائح والغادي ، فالسوق ميت من الفجر إلى غروب الشمس .

وعلى أثر عودتهما تجدّد القتال بين القمّوعي وصاحبته لخلاف على مستحقّاته وقام الضرب والصياح . ولكنّهما انتهيا ، ككل مرّة ، إلى الصلح في الفراش . أما جابر فاستلقى في المقصورة المجاورة بجانب « أُخت » لأنطوانيت اختارتها له . وسلفاً دفع عنه حسين هذه الليلة أيضاً ، فلم تلبث المرأة أن نامت على وجهها تشخر ، ورفع هو وجهه إلى السقف .

كان يفكّر بما هو مقدم عليه من أمر عظيم . فاته ؟ كلاّ لن يفوته ! وتتململ المرأة منقلبة على ظهرها ، فنهض وقعد على الكنبة تاركاً لها

السرير . لا يريدها ... نظر إلى ساعته ثم أشعـل سيكارة . وإذا هي تضرب فجأة اللحاف وتفرّج بين ساقيها دافنة رأسها تحت المخدّة ، فما يظهر إلاّ جسدها . فلبث جابر يتفرّس بهذا العري الداعر الذي يبحث عن اسم — تميمه نصّور !

« هو أنا . لا تفتّشوا عن أحد . وهذا هو السكين الذي ذبحتها به ! »

الحبس ؟ مرحباً به ! الحبس للرجال .

وسيذهب إلى الحبس لا بالتهمة الحقيرة ، زنّوب ابنة راعي المعزى في عكّار ، بل شامخ الرأس وفي يمينه راية الشرف الرفيع .

٦

تعرف الآن أنها قامرت بكل شيء .

ماذا قالت ، لا تعرف . لم تقل شيئاً مما جهّزته .

ولم يفه هو بكلمة .

ونزلت تميمه نصّور السلّم الخشبي وحدها إلى الجنينة . ومن الجنينة إلى الباب تعالجه ولا تهتدي إلى فتحه . وهاني الراعي حيث هو على السطح ، واقف ، وهذا ظلّه ينداح من فوقها فلا تلتفت .

ثم كالخائفة منه ، أو من نفسها ، وضعت رأسها ومشت .

ودارت بها الطريق على التلّة ، فبرز صنّين ينفض عنه الليل ، فجمدت إزاءه .

وظلّت جامدة هكذا دقيقة طويلة . وفجأة رفعت كفّها تمسح على وجهها صفعته .

ودفقت دموعها بوجه الفجر ...

بقي هاني على السطح ساهماً . وربّما دار على نفسه بين العزال والعلّية أو استلقى على حجر من حجاره ، ولكنه لا يلبث حتى يثب ، ما يستقرّ به مكان .

ولمّا وافته أُم خاتون بقهوة الصباح وجدته مرتمياً على سريره ، وقد شبك يديه تحت رأسه ، والفراش على ما سوّته أمس . فلم تتمالك أن قالت إنها كانت تسمع في الليل وقع خطاه على السطح . قد رأت أصحابه يخرجون ومعهم الفتاتان ، ثم رأت إحداهما ترجع وحدها ولا تغادر إلا قبل ساعة أو ساعتين . ولكنها لا تحب التدخل في شؤونه وما تجسر . ومع ذلك لم تتمالك من السؤال هل من شيء يشغل باله .

— لا شيء ، لا شيء .

ودون أن يلتفت إلى القهوة — تركتها له أُم خاتون وتركته — بادر السلّم إلى سيارته إلى رأس بيروت إلى المستشفى الأميركي فلوى بها إلى شارع عبد العزيز فالطريق المؤدّي إلى الشقّة . وشدّ ما كانت دهشته إذ اعترضه شرطيّان فمنعاه من المرور فانثنى فأوقفها حيث استطاع وأقبل كالراكض . في الطريق إلى البناية حيث شقّتها — أجل هي البناية ذاتها — ناس يتقاطرون وشرطة ينهرون الناس طالبين إليهم التنحّي ، فينكفئون لاهجين بالخبر : واحد أطلق الرصاص على أُخته ، هنا في الطابق الثاني ، الشقّة التي على اليمين ، أراد التخلص منها لسلوكها الشاذّ ، اسمها تميمه نصّور ، تسكن مع ممرضة في المستشفى الأميركي في الشقّة ذاتها ، أرادت الممرضة أن تحميها فجاءت الرصاصة في صدرها ، اسمها ماري أبو خليل ، أخذوها إلى المستشفى — الممرضة هي التي أخذوها إلى المستشفى ...

— وأُخته ؟

— خلّصها الجار الذي يسكن الشقّة المقابلة . كان بالباب خارجاً إذ طلعت الخناقة بوجهه على عتبة الباب الآخر . هو الذي قبض على الجاني وصرخ بها : أُهربي ! الله يعلم أين صارت .

فهرول هاني إلى المستشفى الأميركي .

كانت المس ماري قد فارقت الحياة .

الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم تحوّلت بيروت إلى بحر هائج . وحينما خرج هاني الراعي من المستشفى رأى الشوارع بوجه الجامعة الأميركية تعجّ بالطلاب المضربين وهم يرفعون اللافتات متهيّئين للسير إلى ساحة الشهداء من حيث تأتي أخبار تكسير محلاّت وإحراق سيارات « أهو مأتم أبي الهول اليافاوي ؟ » .

ولكنه لم يلبث أن اطّلع على الأمر من سائر وجوهه . فعلم أن موكب النعش لم يصل إلى ساحة الشهداء حتى اختلط بتظاهرة عظيمة كان يقوم بها الناس في الساحة . فسقط المأتم على التظاهرة كما يسقط الزيت على النار ، فبيروت في اضطرام من أطرافها الأربعة ، وعلى الوجوه فيها هول النبأ : في الليل زحفت القوّات الاسرائيلية على الجنوب من البرّ والجو ، وضربت المدفعية شبعا وكفرشوبا والفريديس والمهديّه ، وهبط مظلّيو العدوّ فيها والتحموا مع قوّات الجيش والأهالي والفدائيين في معارك ضارية . والجرائد تتحدّث — خطف هاني إحداها يقرأ العناوين على عرض الصفحات — عن عشرات القتلى والجرحى ، والمعارك مستمرة ، ومجلس الوزراء منعقد طول الليل ، والحكومة أبرقت إلى وفدها في الأمم المتحدة بشكواها الصارخة إلى مجلس الأمن ، تناشد ضمير الإنسانية وتُشهد العالم على هذا الاعتداء الجديد الأثيم طالبةً انسحاب القوات الاسرائيلية من أراضي لبنان . وسيول النازحين الفارّين من ميادين القتال تتدفّق على صيدا ، قد وقفوا أمس سدّاً بوجه وفد الصليب الأحمر الآتي من بيروت ، وعلى رأسه عقيلة رئيس الجمهورية ، فلم يدعوه يتابع طريقه إلى القرى المنكوبة ليفرغ ما تحمل سياراته مَن أغذية وإسعافات صارخين :

ـ نريد سلاحاً لا نريد طحيناً !

وألقى هاني الجريدة ونظر . وصل الصراخ إلى بيروت ، فالطلاب يرفعونه شعاراً إلى جانب شعارات أُخرى كلّها تنذر بالخطر الداهم . فشقّ لنفسه بين الجموع وقد شرعوا بمسيرتهم ، يدور بينهم في كل ناحية باحثاً عن أصحابه . ولاح له أحمد عدنان فناداه ، ثم لميا شارون ، وقفز الثلاثة إلى الفيات ، مندفعين في الطريق الفرعية إلى قلب المدينة المشتعل .

. . . .

دفتر الخرطوش .

بيروت في ... ـ المذكّرة الأخيرة في هذا الدفتر إليك أكتبها يا هاني ، من مكان ما ، هنا على خطوات من علّيتك . كان الرجل ينتظرني ، يريد أن نذهب من المرفأ رأساً ويلحقنا أبو عزيز اليافاوي بعد دفن ابنه . ولكني لم أكن قادرة على التغيّب عن مأتم أبي الهول ، وعدت نفسي بذلك في اجتماعنا أمس حينما بحث الأصحاب مسألة الاشتراك في التشييع .

ولكن هل أنا عائدة من مأتم أبي الهول أم من مأتم نفسي ؟

إن ضربة كفّك أثرها لن يزول . الصفعات التي تلقّيتها حتى من أمي وأخي كانت تلهب دمي . وأحس لصفعتك على خدّي مثل الندى ، وفي قلبي سيتردّد صداها كأجراس دير المطلّ حتى الموت .

أهي اللعنة سبقتَ بها الناس الذين يلعنونني الآن من كل صوب ؟ معاذ الله ! ويقيني أنك ما فكّرت بشيء من ذلك حتى في اللحظة التي غضبت فيها غضبتك الخرساء . أعليّ غضبت أم على صاحب ذلك الاسم ؟ إذا كانت صفعتك موجّهة من خلالي إليه فضربك في ميت . أما إذا كانت ، كما أرجو ، لي أنا فهات يدك أقبّلها . لأنك ، لو أردت ، لاستطعت بدلاً من ذلك أن تقول لي في وجهي ما يقوله حسين القمّوعي وما يظنّه فيّ ابن أبي وأُمي . أن ترجمني . تذبحني . أو تطلق الرصاص عليّ كما أطلقه هو هذا الصباح يريدني . وليته أصاب !

كان باستطاعتك، على الأقل، أن تطردني. أن تدير ظهرك لي. ولكني رأيتك تبقى ساكتاً، منتصباً بوجه النجوم، ورأيت ظلّك ينداح من السطح فوقي ويغمرني.

لو ناديتني؟ لو طلبت إليّ أن أعود؟ حسناً فعلت أنك تركتني. أُحب أن أعتقد أنك تركت نفسك لنفسك. أما أنا فاعترف لك. هممت بالرجوع، بالركوع على قدميك وغسلهما بالدموع. وحسناً فعلت أنا أيضاً بأنني تابعت طريقي.

طريق مصيري.

أنا ماضية فيه إلى أقصاه. مرّة أُخرى، كان بإمكاني العودة وبإمكانك إرجاعي — هل سألت عني اليوم؟ هل مررت بجانب الشقّة؟ هل تلفنت؟ أنا واثقة ستسأل عني إن لم يكن اليوم فغداً — ولكن ما الفائدة؟ إنه قدري شاء لي ولك، ولا مردّ له. وها هو قد قطع علينا كلينا، فلا أنا أستطيع أن أعود إليك بعد مصرع ماري أبو خليل من أجلي، ولا أنت أرضى لك أن ترجع إليّ.

لن أحضر مأتم المس ماري، كما لم يتيسّر لي أن أحضر مأتم زنّوب من قبلها. فهل لي أن أطلب منك أن تنوب عني، يا هاني، وأن تسألها أن تغفر في سمائها لتميمه.

إلى أين أنا ذاهبة؟ — مع الليل إلى أن يطلع فجره.

ربّما علمت أنت قبلي. كل ما يمكنني الآن أن أقوله إنني قاصدة مع الرجل إلى حيث يعيّنون لي وجهتي ومهمّتي. وكذلك أبو شرشور. هو الآن إلى جانبي ينتظر فراغي من كتابة هذه الكلمات إليك. أبو عزيز اليافاوي ماشٍ إلى الحرب. هكذا يقول وهذا كل ما يعرفه. أما أنا...

تذكر أننا تكلّمنا أمس في الاجتماع عن أعمال العنف المخالفة للقوانين المرعيّة والأعراف المسلّم بها.

مكاني هناك.

سأحارب تحت كل سماء ضدّ كل الشرائع والتقاليد التي ارتضاها المجتمع وأطعنها بيدي . لأنه باسمها – تحت سماء بلادي – أنكر عليّ حقّ الحياة ، ولمّا أراد أن يسلبني باسمها الحياة نفسها اقترف بدل الجريمة اثنتين : قتل أعزّ الصديقات وأنبلهن وأطهرهن ، ونحر حبي .

ترى ، يا هاني ، أننا ما نزال على خلاف . إختلفنا على هذا أيضاً أمس ... أنت قلت منذ البداية : سنختلف على أمور كثيرة .

وهذا طريقي الآن يختلف عن طريقك في النهاية .

ولكن ، أهي النهاية حقاً ؟

لا أقدر أن أتصوّر ذلك . لا أقدر . لا أقدر .

هات يدك – أياها – على خدّي . فالرجل يستعجلني . ويلاقينا أبو شرشور بعد أن يوصل دفتر الخرطوش إلى أُم خاتون لتسلّمه إليك . فيه كل حياتي ، وهو لك ، وأنا بغير حاجة إليه ، فلن أتكلّم بعد اليوم . ومنذ اللحظة التي سأمشي فيها مع الرجل سيخرس اسم تميمه نصّور .

تمّت

إشارات

(*) الصفحة ١٠٨

جريدة « الأوريان » L'Orient ، العدد الصادر بتاريخ ١٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٨ وقد نقلت فيه خلاصة التحقيق الذي قامت به مجلة أوتلوك Outlook وعلّقت عليه .

(**) الصفحة ١١٩

من حديث للاستاذ نزار قباني في قاعة « وست هول » — الجامعة الأميركية — عن « ملحق النهار » الصادر في ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٨ .

(***) الصفحة ٢٠٢

من تحقيق في « ملحق النهار » منشور على دفعات بين كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ وشباط (فبراير) ١٩٦٩ . والفقرات هي للسادة : ١ — رينه حبشي ، ٢ — جبران مجدلاني ٣ — يوسف الخال ، ٤ — نور سلمان ، ٥ — أنسي الحاج .

(****) الصفحة ٢٢٧

من مقال بعنوان « لئلا يعود هارون الرشيد » للأستاذ عبدالله القصيمي في مجلة « مواقف » ، العدد الأول ، تشرين الأول وتشرين الثاني (اكتوبر ونوفمبر) ١٩٦٨ .

إلى القارئ

أسماء الأشخاص في هذه الرواية وأسماء الكثير من القرى هي من وضع المؤلّف ، وحبكة الحوادث كلّها من نسج خياله . وكذلك الأقوال التي تجري على ألسنة الأشخاص وما يأتون به من أعمال . إلا ما أشير إليه بصراحة في مواضعه من الكتاب .

إقتضى التنبيه إبعاداً لكل شبهة ومنعاً لأي تأويل .

المؤلّف

كتب للمؤلف

صدر :

الصبيّ الأعرج — مجموعة قصص

قميص الصوف — مجموعة قصص

العذارى — مجموعة قصص

مطار الصقيع — مجموعة قصص

الرغيف — رواية

طواحين بيروت — رواية

اختارت منظّمة الأونيسكو العالميّة « طواحين بيروت » في سلسلة « آثار الكتّاب الأكثر تمثيلاً لعصرهم » . وقد تُرجمت حتّى اليوم إلى :

١ ـ اللغة الإنكليزيّة وصدرت عن دار « هاينمان » في لندن سنة ١٩٧٦

٢ ـ اللغة الروسيّة وصدرت عن دار « بروغروس » في موسكو سنة ١٩٧٩

٣ ـ اللغة الألمانيّة وصدرت عن دار « فرلاك ركلام » في ليبزيغ سنة ١٩٨٢
وعن دار «يونيونس فرلاك» في زوريخ سنة ١٩٨٤

السائح والترجمان — حواريّة

نالت جائزة «أصدقاء الكتاب» للمسرحيّة سنة ١٩٦٢ وقد تُرجمت إلى اللغة الفرنسيّة وصدرت عن دار « أوريان » في باريس سنة ١٩٦٦

غبار الأيّام — خواطر

فرسان الكلام — نظرات في الأدب والأدباء

قوافل الزمان — ديوان شعر

حصاد العمر — سيرة ذاتيّة

مجموعة المؤلّفات الكاملة - في مجلّد واحد

بعض ما قيل

قال أنسي الحاج في « النهار » :

هل تذكرون «الرغيف» ؟ لا يزال توفيق يوسف عوّاد هو نفسه بعد ثلث قرن . بل هو اليوم أهمّ . لأنه ، بعد ثلث قرن ، عاد يكتب لجيل اليوم وعن جيل اليوم رواية اليوم . الرواية التي لم يكتبها لهذا الجيل أحد سواه . عجيب توفيق يوسف عوّاد ، حسبناه دخل التاريخ ، فإذا هو لا يزال يصنعه .

وعلى أثر ترجمة « طواحين بيروت » الى اللغة الانكليزية كتب « باتريك سيل » في مجلة « ميدل إيست إنترناشيونال » يقول :

قبل أي واحد من الصحفيين والسياسيين والمحللين ، قبل أي واحد من ممتهني قراءة المستقبل ، أدرك توفيق يوسف عوّاد ، بحدسه الفني والوطني ، أن شيئاً ما سينهار ، وأن المجتمع اللبناني – مجتمعه – يتداعى للسقوط . وهو في رائعته هذه – التي لها مكانها الرفيع في « بانتيون » الآداب – يتنبّأ عن الكارثة بصوت صارخ ، أقل ما يقال فيه أنه يحملنا على الخجل عن مواطنيه ، لأنهم سدّوا آذانهم عنه ولم يسمعوا إليه في حينه .

« طواحين بيروت » – إنها ملحمة الجيل في لبنان والبلدان العربية تجاه قضاياه المصيرية في العقيدة والسياسة والجنس .

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Zeth_Griffin

MARCH 2009

Zeth_Griffin@yahoo.com

Zeth_Griffin